

إبداعات التفرغ

[٧]

رواية

سيرة الشيخ نور الدين

أحمد شمس الدين حجاجى

١

أخذت ظلال الغسق تنشر أضواءها حول مدينة الأقصر القديمة عندما تحرك الشـــيخ نور الدين من وقفته أمام مقبرة جديه أحمد ويونس، وكان قد انتهى من قراءة جزء كامل من القرآن الكريم ختمه بالفاتحة والدعاء إلى الله أن يجعل ثواب مـــا قــرأ ريحًـــا طيبة ونورًا لساكنى هذه المقبرة المهجورة وللمسلمين أجمعين والمنقطعين الذين لا زائر لهم.

كانــت حركته وهو يغادر المقبرة بطيئة ثقيلة... أحنى ظهره المستقيم قليلاً ووضع يديه مطبقتين خلفه.

لقــد قضـــى هذا اليوم حزينًا. فقد أعلنت مصلحة الآثار أنها ستهد الساحة وتــزيل المقبرة القديمة غدًا، بلغه الخبر بعد صلاة الظهر وهو جالس فى الساحة مـــع أبـــناء عمومـــته، فنزل عليهم الخبر كالصاعقة. صرخ وحيد الحفنى أصغر الموجودين فى الساحة، والذى يقوم على خدمتهم:

- مش ممكن... مش معقول.

مـــع أنه لم يتعود أن يتكلم أمام أعمامه الكبار أو يرفع صوته فى وجودهم. لـــم يجـــد وحيد الحفنى صدى لصرخته، فصمت فى أسى يشارك الشيوخ صمتهم الحزين.

تنازعــت الشـــيخ أفكار شتى... شعر بالعجز المطلق وقسوته تحرق قلبه. ســـمع دقاتـــه سريعة قوية. وقف فجأة، ترك أهله دون أن يسلم وخرج من باب الساحة، نزل درجات السلم المرتفع ليصل إلى الطريق.

التفت إلى الساحة (بيت الضيوف) وتوقف. أمعن النظر إلى الباب والشبابيك والطـــلاء الأصـــفر علـــى حيطانها، والخط الأبيض الذى يزين قمتها. هذا الطلاء حديث؛ فقد دهنوا الساحة منذ ثلاثة أشهر متصورين أنها ستبقى إلى الأبد.

لقد وجدت الساحة مع وجود أسرتهم فى مدينة الأقصر وهو يعرف أن جده

الثانى أحمد يونس أعاد بناءها كما أعاد بناء مئذنة جده الشيخ أبو الحجاج.

ورث جـــده الثانى أحمد يونس مشيخة أسرته عن أبيه الشيخ يونس الذى يقولون عنه إنه كان أحد ثلاثة رجال أقاموا حكومة عرفية فى إقليم كبير يمتد من حدود مديرية سوهاج إلى وادى حلفا. ولقد استطاعوا، بهذه الحكومة، أن يقيموا العـــدل ويمـــنعوا صـــراعات القبائل. لم يكن ليونس من الأبناء سوى أحمد، كان وحـــيده ووريـــثه فـــى كل شىء؛ فقد نشأ قويًا كريمًا سيدًا فى قومه، أعاد بناء الســـاحة واحـــتفظ لأســـرته بالمجد الدينى فى منطقة عريضة من أرض الصعيد. وعـــندما أنجـــب أحمد ابنًا أسماه يونس على اسم والده، شاركه فى قيادة الأسرة واستطاع الابن أن يحتفظ لقومه بأرضهم فى مشايخ عطية، شرق الأقصر القديمة، حين استولى محمد على باشا على أراضى الأهالى.

تـــرك ولاة محمد على باشا الأرض لقومه احترامًا لهم، فالأهالى يستمعون إلـــى كلمـــاتهم، وهم لا يستخدمون نتاج هذه الأرض لأنفسهم فقط، وإنما يقدمون أكثرها للفقراء والمحتاجين.

لقـــد أكمل أحمد وأهله دور أجداده فى حماية أهالى المنطقة وحافظوا على السلام فيها، حتى اشتهرت بأنها لم تعرف حادثة نار واحدة فى تاريخها الطويل.

كـــان يسكن الأقصر القديمة عائلتان مسلمتان تربطهُما روابط الصهر والدم والـــتراث القديم، وعائلة مسيحية، كانت لها عندهما ذمة وعهد، وصهر. شهدت الساحة أمجاد أسرة الشيخ نور الدين، كانت ملتقى الوافدين إلى الأقصر، يجد فيها الكبـــير والصـــغير الملجأ والمأوى... يروى الناس الكثير عن بركتها وعن حجرة الشـــيخ سلامة، جده السابع، التى قيل إنه ما دخلها صاحب حاجة واستجار به إلا أجاره وقضيت حاجته.

حجـــرة الشـــيخ سلامة لها مكانة خاصة فى نفس الشيخ نور الدين؛ يسكن فـــيها أربعون وليًا من مريديه وتلامذته. لقد كان يقضى فيها فترة الظهيرة طوال أشـــهر الصيف من كل سنة، لا يشعر فيها بلسعة حر الأقصر. تهب عليها نسائم النيل وكأنها تُرسل خصيصًا إلى هذه الحجرة.

تحـــرك الشيخ موليًا ظهره للساحة وهو يسأل نفسه: أيترك مصلحة الآثار تهد الساحة؟ ألا يوقفهم؟ أهكذا بين يوم وليلة يفقد ساحته؟

تذكر جده أحمد وابنه يونس الذى أطلق عليه اسم يونس الصغير تفرقة بين الجـد والحفيد. لقد قيل إنه كان يشبه والده تمامًا. ماتت أمه وتزوج مع أبيه فى ليلة واحدة. أنجب يونس الكبير ابنين هما أحمد ومصطفى كما تكاثر نسل أبيه فقد أنجـب أربعـة أبناء هم: يوسف الأكبر ومن بعده أبو شنب، ثم عبد الجليل وعبد الرحمن.

كـان يونـس الصغير يقوم برعاية أبنائه وإخوته بينما والده يقوم بواجب الـرعاية والضيافة والحماية لأهل الله من زوار الساحة. كم حُلَتْ فى الساحة من مشـكلات، كانـت كلمة الشيخ الكبير كما كانوا يطلقون على أحمد قانونًا لا يأخذ قوته من السيف وإنما من الحب والاحترام.

مات يونس الصغير قبل أبيه، لم ير الشيخ نور الدين جده ولكنه كان يحس بـه فى أعماقه. يتمثل صورة جسده القوى ويسمع صوته الجهورى الحازم دون أن يتبين وجهه... تمنى كثيرًا أن يعرف شكل وجه جده.

تولـى رعايـة ابـنى يونس أخوه يوسف الذى لم يكن أحد يذكر اسمه إلا مسـبوقا بالسـيد، صحيح أن كل أبناء الأسرة يسبق اسمهم لقب السيد، ولكن إذا ذكر اللقب منفردًا فالكل يعرف أنه يوسف.

يقـال عنه إنه كان قطب الأقطاب، ورث الولاية عن شيخه الشيخ أحمد أبو شرقاوى شيخ الصعيد المقيم بنجع حمادى.

تُروى عن السيد حكايات وحكايات عن سيادته للعالم الروحى، والشيخ نور الديـن يذكر أنه ما إن كان يقترب من السيد حتى يشعر بأن تيارًا كهربائيًا يسرى فى جسده.

ارتفعـت مكانة الساحة فى عهد السيد، فلم تعد مقصد الأهالى فقط؛ بل أخذ الحكـام أيضًـا يفدون إليها للتبرك بالسيد وبساحته. إنه يعلم جيدًا أن البركة لن تغيـب عن الساحة أبدًا، ولكنهم يهدمونها. كيف يوقفهم؟ استعاذ بالله من العجز، وعاد يفكر فى الساحة.

تقـف السـاحة فـوق مـرتفع من الأرض يعلو المسلة المجاورة للمعبد. وبجوارهـا تمثالا رمسيس لا يظهر منهما غير النصف العلوى من الجسد، بينما

تختفى بقية التمثالين تحت التراب، وعلى يسارها من الخلف تظهر البربة، أعلى مكان فى معبد الأقصر، وقد غطاها التراب حتى منتصفها.

جاء عمال الآثار وهدموا بيوتهم منذ ربع قرن، واستسلمت المدينة لقرار الحكومة؛ فأخذوا يبنون بيوتًا جديدة قريبًا من الساحة ومسجد الشيخ أبو الحجاج، وتصوروا أن الساحة ستبقى مع المسجد دون أن تمسها معاول الهدم، وقد طمأنهم رجال كبار فى الحكومة بأن أحدًا لن يمس الساحة. كان هؤلاء الرجال يفدون إليها للتبرك بها، غير أن الإشاعات أخذت تصل إلى سمعه بأن الحكومة تريد هدم الساحة والمسجد معًا، كلام ثقيل يصل إلى سمعه كالسهام يخترق طبلة الأذن ولا يفقدها السمع ولكنه يحرق الجلد. لماذا تهدم الحكومة الساحة والمسجد؟ إنهم يريدون المعبد... هناك مكان للمعبد والساحة والمسجد.

يقولون إنها أوامر الحكومة. لقد عاش عمرًا طويلاً لا يعرف معنى لكلمة حكومة غير مجموعة أوامر تؤذى ولا تفيد. لقد هدمت الحكومة بيوتهم أيام الإنجليز واستمرت فى الهدم بعد الاستقلال... والقصص تروى أن الشيخ أبو الحجاج زار الملك فى منامه وهدده بضر فى ملكه إن هدم المسجد؛ فصدر أمر ملكى بوقف الأوامر الصادرة بالهدم... عاش أهالى الأقصر مطمئنين إلى أن الساحة لن تهدم فهى جزء من المسجد... ولكن موظفى الآثار جاءوا اليوم لهم بقرار الهدم. إنه يفكر جادًا فى أن يدخل مسجد جده ساعة الصلاة ويطلب من الأهالى مقاومة الحكومة.

وصل الشيخ إلى منزله ودخل حجرته، خلع جبته وارتمى على كنبة فى الحجرة... تلح عليه فكرة مقاومة الحكومة وترهقه. حاول أن يبعدها عن ذهنه حتى لا يدخل الأهالى فى مشاكل معها، وهى لا ترحم.

إنه يذكر كيف ثار على وضعه فى الساحة وهو فى الثامنة عشرة من عمره، لقد كانت حياته تسير على نمط واحد لا يتغير، يستيقظ مع الفجر ثم يعود مع العصر فيذهب إلى الساحة ليقوم على خدمة أهل الله من ضيوفها. يبقى فيها حتى يتناول الضيوف طعام العشاء ثم يعود إلى منزله. كان وجوده لخدمة الساحة اختيارًا من أهله. فقد ذهب مَنْ هم فى سنه من أبناء عم أبيه - وهو يطلق عليهم الأعمام - وأبناء أعمامه إلى الأزهر. وجد نفسه وحيدًا يقوم بعمل لا يحبه ولا

يـــرى فـــيه مستقبله، طلب من والده أن يرسله إلى الأزهر، فلم يستمع إليه فهو وحــيده ولا يريد أن يفارقه، ولما لم يفلح إلحاحه على والده بالسفر قرر أن يقوم بالرحلة إلى القاهرة ليتعلم فى الأزهر.

الطــريق إلـــى القاهرة طويل والقطار لا يقف فى مدينة الأقصر؛ إذ لم تمتد خطوط السكة الحديدية إليها، وعليه أن يسافر إلى نجع حمادى ليركب القطار إلى القاهـــرة وليس هناك سوى وسيلتين من وسائل المواصلات، أن يسافر على ظهر زورق مـــن الـــزوارق التى تنقل المسافرين إلى نجع حمادى أو على ظهر حمار فاخـــتار حماره. لم يكن الأمر يحتاج إلى تدبير كبير فقد جمع حاجياته بعد الفجر ووضـــعها فى خُرْج ألقاه على ظهر حماره ثم اتجه إلى نجع مشايخ عطية، لم يقم بعمل شىء غير النظر المتأمل إلى حقله الذى سيتركه؛ ألقى نظرة وداع إليه.

وحيـــن قـــرر أن يركـــب حماره بادئًا رحلته، كان ابن عمه محمد قد جاء ليـــتحدث معه، فأخبره بقراره. أخذ وقتًا طويلاً فى مناقشة لم يفلح فيها محمد فى إقناعه بالإقلاع عن عزمه، وتركه على وعد ألا يبلغ أهله بوجهته إلا بعد غروب الشـــمس حتى يكون بعيدًا عنهم. كانت الشمس قد توسطت السماء حين انطلق به الحمـــار نحـــو نجع حمادى، الشمس حارقة. إنه يذكر أن شيئًا لم يكن ليثنيه عن عـــزمه فى أن يقوم برحلته... مرت ساعات طويلة عليه وهو فوق حماره، شعر فـــيها أنـــه ذاهب ليفتح مدينة العلم إلا إنه كان كلما ابتعد عن الأقصر امتزج بهذا الإحســـاس أحاسيس أخرى: الحقل... الساحة... أبوه... أمه... الشيخ الطيب... أهل الله.

حـــاول أن يـــبعد هذه المشاعر عن التأثير فى نفسه، فتذكر أنه يحقق بهذا العمل نفسه ووجوده.

لن يبقى فى الساحة خادمًا لها طيلة عمره، لقد حفظ القرآن الكريم صغيرًا، وقـــرأ الكتب القديمة فى التفسير والحديث. يريد أن يفتح آفاقا جديدة والأزهر هو مكانـــه الوحيد. تذكر والديه وحزنهما عليه وخوفه من غضبهما؛ فغضب الوالدين شىء لا يحتمله نور الدين فلا قيمة للعلم دون إرضاء الوالدين. طمأن نفسه بأنهما لن يغضبا عندما يريانه عائدًا من الأزهر عالمًا كبيرًا، فأهله يقدسون الأزهر. هدّأ نفســـه بـــأن والـــده سيغفر لـــه... لم يهدأ فقد أدرك أنه يغالط نفسه فأهله لابد

غاضـــبون علـــيه... أدار لجام حماره ليعود إلى الأقصر، ولكن نفسه لم تطاوعه فأدار اللجام ثانية ومضى فى طريقه.

تذكـــر الساحة فآلمه أن يفارقها، أدرك أن مشاعره بتركها ليست صادقة... تذكر الأزهر فضرب بطن حماره بقدمه. هناك شىء قوى يشده إليه.

وصل إلى قفط. وقف ليطعم حماره. ذهب إلى ساحة بيت الشيخ، إحدى أسر القـــرية التى تنتمى إلى عائلته، وصل إلى باب الساحة واستحى أن يدخلها. ماذا يقـــول لهم؟ شد لجام حماره ثم أوقفه بعيدًا عن الساحة حتى أطعمه... أخذه إلى تـــرعة قريبة ليشرب منها ثم ركبه واستمر فى المسير حتى وصل إلى قنا. سمع صوت آذان العشاء. توقف ليسأل عن مسجد سيدى عبد الرحيم القنائى. ليس من المعقول أن يمر على قنا دون أن يزور مقام السيد القنائى... توجه إلى المسجد. ربط حماره فى الخارج وزار مقام السيد، ودعا الله ألا يغضب منه والده. خرج بعد الصـــلاة، دخل مطعمًا صغيرًا يقدم الفول والطعمية، أكل حتى شبع... إنه يذكر أنه أكل كثيرًا هذه الليلة.

عـــاد إلى حماره ليركبه، واتجه به إلى قرية الدير قرب نجع حمادى، فهو يريد أن يصلى الفجر فى ساحة الشيخ أحمد أبو شرقاوى ويترك حماره هناك وهو يعلـــم أن أهـــل الشيخ سيدبرون وسيلة لإرسال الحمار إلى الأقصر أو تركه حتى يـــأتى أحـــد مـــن أهله لزيارة أهل الشيخ. إنه يريد أن يصل إلى نجع حمادى قبل الساعة السابعة والنصف صباحًا موعد قيام القطار إلى القاهرة.

لكـــز بطن حماره بقدمه... تذكر أن الطريق موحش بين قنا ونجع حمادى. ســـتقابله دشـــنا والصمطة، والصراع قوى بين قبائل الهوارة والعرب هناك. إنهم يقولون: مستحيل على الغريب أن يمر ليلاً فى هذه المنطقة. ولكنه مطمئن، إن أى إنسان لو عرف مَنْ عائلته سيتركه لحال سبيله.

دخلت قلبه الطمأنينة والحمار يجرى به فى الطريق. أصوات كلاب تنبح... أشـــباح تـــتحرك من بعيد. أشباح تقترب. الخوف لعنة الله عليه. حاول أن يزيل الخوف بقراءة سورة ياسين وجزء عم حتى هدأ.

عـــرف أنـــه اقترب من نجع حمادى عندما شاهد الوادى يضيق فقد أصبح

الجبل على بعد خطوات منه، ليس بينه وبين النيل بعد يذكر. حجارة الجبل الجيرية البيضاء يختلط لونها بسواد الليل فتبدو داكنة. أشرق القمر فارتاح لضوئه، وانعكاساته على النيل. خفت حركة الحمار، شعر بالتعب. أوقف حماره، ونزل به إلى الشط.

نقيق الضفادع يريحه. قفزت ضفدعة إلى الماء، أحدثت صوتًا... تحركت موجات الماء... حركة سمكة كبيرة تضرب الماء بذيلها... رفع البردعة عن ظهر حماره وساقه إلى ماء النيل، خلع ملابسه، وأخذ يدعك ظهر حماره بالماء محاولاً أن يزيل عنه آثار العرق... شعر بأن الحمار قد أصابه الانتعاش... تركه على الشط يأكل أوراق الغاب والحلفا ورمى بنفسه فى النهر، أخذ فى العوم ثم غطس، لم يبتعد كثيرًا ثم عاد إلى الشط... لبس سرواله... ثم أحنى ظهره ليلتقط لباسه، وما إن رفع رأسه حتى وجد نفسه أمام رجلين يصوب أحدهما بندقيته أمام وجهه، والآخر يرفع شومته. نظر إليهما فى حيرة دون أن ينطق بشىء. أدرك أنه هالك. آه... غضب الوالدين... ترك الساحة دون مبرر... والآن يواجه الموت دون أن يُسأل عمن هو.

رفع الرجل الممسك ببندقيته صوته:

– طلع اللى معاك...

– آدى هدومى... فى الصديرى جنيه دهب.

بدا نور الدين لهما مستسلمًا، حمل صاحب البندقية الهدوم، استرخى قليلاً. أخذ يفتش فى الملابس عن الجنيه الذهب. اقترب منه حامل الشومة. وإذا بنور الدين يقفز سريعًا ليخطف الشومة من يده، ويتابع حركته بضرب صاحب البندقية على يده فتسقط البندقية على الأرض يلتقطها، يحملها بيده اليسرى ويلقيها بعيدًا فى النيل، ويوجه ضرباته بالشومة إلى ساقى الرجلين وقد تعالت صرخاتهما. أبناء الأبالسة لا يعرفون أنه من أحسن لاعبى التحطيب فى مدينته. رفع الشومة ليضرب فى الرأس. صرخ أحد الرجلين:

– فى عرضك.

– يا كلاب لما انتو مش قد الضرب بتعتدوا ع الناس ليه.

حمل أحدهما وألقاه فى النيل وسحب الثانى إلى جوار صاحبه.

- اسمعوا يا أولاد الأبالسة لو حد منكم مشى ورايا محدش حيعرف له مكان.

سحب حماره إلى الطريق. أخذ ملابسه فى يده، سمع أصوات نباح لم يأبه لها. ركب الحمار وصدره عار، وقبل أن يلكز الحمار بقدمه كان الحمار يعدو بصورة لم يعهدها، وكأنه فرس دياب ابن غانم يسير نحو تونس المرّية.

سمع صوت طلقة نارية فى اتجاهه، ولكنه كان بعيدًا عن مصدر الطلقة النارية. أخذ فى لبس ملابسه والحمار لم يتوقف عن العدو. لم يجد طاقيته فلف عمامته حول رأسه بطريقة تخفى عدم وجود الطاقية؛ فعمامته خمسة عشر مترًا من الشاش. شعر بالطمأنينة. ولكن صوت ذئب قريب يرن فى أذنه يتبعه صوت آخر. الصوت يدل على أن الذئب جائع.

لم يلق بالاً إليه فمواجهة الذئب أهون من مواجهة بنى آدم. الوقت يمر ببطء ويبدو أن الليل لن ينتهى وأن بينه وبين المعدية زمنًا طويلاً.

صوت الذئب يقترب... يرتد صداه من الجبل الواقف بجواره فيشعر أنه يسير فى عالم الجن. استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ومن كل مارد لئيم.

وصل مبكرًا إلى المعدية. نزل الحمار إلى الشط، وجد المراكب واقفة. ليست هناك مركب مستعدة للرحيل.

رفع صوته:

- فيه مركب حتعدى دلوقت ياريس؟

رد عليه صوت نائم:

- لأ مفيش...

- أنا جاى من لقصر أبو الحجاج وعاوز أروح بيت الشيخ أحمد أبو شرقاوى.

ارتفع صوت:

- مدد يا أبو الحجاج... مدد يا أبو شرقاوى.

ثم رأى شبحًا يتحرك نحوه:

- منقدرش نقول لأ... وحدك ولا معاك حد.
- معاى حمارى...
- قرِّبِ الحمار م المعدية.

سـحب الحمار نحو المركب... مال الزورق جهة المراكبى إلى المكان الذى يضع فيه الحمار... غيَّر مكان الحمار.

القمـر يغيب، عمره قصير فى أخريات الشهر العربى. ساد الظلام الأفق... يخفف حدته ضوء النجوم الباهت على صفحة الماء. شعر برغبة فى النعاس قبل أن تغفل عيناه سمع صوت المراكبى:

- خلاص وصلنا.

نـزل بحمـاره إلى الشط. أخرج من جيبه ثلاثة مليمات ليعطيها للمراكبى. رفض الرجل:

- لو تدينى جنيه دهب مش حاخده... أنا لا يمكن أقوم لحد فى الوقت ده. دى بـركة... شـى لله يا أبو الحجاج... شى لله يابو شرقاوى مدد... ينفعنا ببركاتهم.
- ربنا يكرمك... السلام عليكم.

ركـب حمـاره وانطلق إلى قرية الدير، وحين اقترب منها كان واضحًا أن الفجـر قـد اقـترب؛ فقد أخذ الظلام ينكسر. سار بحماره ببطء حتى جاور ساحة الشيخ أحمد أبو شرقاوى. فكر أن يتوقف قليلاً أمام البيت قبل أن يطرقه؛ فهو لا يـريد أن يوقـظ أحدًا غير أنه وجد حميرًا تسير فى اتجاه الساحة، أدرك أنه لن يكون بمفرده، فالناس قادمون لصلاة الفجر.

دخل الساحة فوجد الشيخ أبو الوفا بن الشيخ أحمد أبو شرقاوى جالسًا يقرأ وِرْدَهُ. نظر إليه الشيخ وابتسم:

- مين... أبو البركات نور الدين! ازيك... وازاى الأهل...

لم يسأله الشيخ ما الذى أتى به فى هذا الوقت من الليل. فلابد أن وراء هذا الفتى الذى يحبه الشيخ أمرًا، سيعرفه حتمًا.

انتهـــت صلاة الصبح... وجد نفسه عاجزًا عن أن يخبر الشيخ برغبته فى الوصـــول إلـــى نجـــع حمادى ليركب القطار. فقد أعد الإفطار ولا بد أن يتناوله. أجلســـه الشيخ بجواره. مد يده إلى الطعام صامتًا. ثم خطر لـــه أن يحدث الشيخ، فقال بفخر:

- أنا مسافر أدرس فى الأزهر.
- ما شاء الله... ما شاء الله.
- ولازم أركب قطر الساعة سبعة ونص من نجع حمادى.
- مفيش لزوم للعجلة يابنى... انت مش رايح امتحان... حتستريح دلوقت ونتكلم بعدين.

نـــادى الشـــيخ على أحد أبناء عمه وطلب إليه أن يأخذ نور الدين إلى بيته لينام هناك فهو متعب، والساحة ستكون الآن خلية مملوءة بالحركة.

لـــم يشعر برغبة فى معارضة الشيخ فقد استراح لأوامره. إنه ما زال قلقًا يـــريد أن يذهـــب إلى القاهرة كما يريد أن يعود إلى أمه وأبيه. ما رآه اليوم يؤكد لـــــه أنه أخطأ فى إغضاب والديه... يذكر الآن أنه نام كما لم ينم فى حياته فقد شعر برغبة فى أن يفقد وعيه ولا يفيق إلا وقوة كونية تتخذ لـــه قراره وتوجهه دون أن يغضب والديه ويفقد الساحة أو يفقد الأزهر.

اســـتيقظ علـــى صـــوت صاحب الدار قبيل غروب الشمس، يوقظه ويدعوه للقـــيام لملاقـــاة عمه الشيخ أحمد أبو الدقون وهم يسمونه بأبو الدقون؛ لأنه لم يحلق لحيته منذ أن نبت شعر ذقنه... وهب حياته للعلم والدين... وعاش مع أخيه مصطفى فى بيت واحد لم يفترقا. تزوج آمنة التى كان يسميها الشريفة فهى ابنة الشـــيخ محمـــد عبد الرحيم أبو الشيخ قاضى قضاة السودان، وزَوَّجَ أخاه لأختها الشريفة خضرة فوثق ذلك من أواصر الود بين الأخوين.

* * *

علـــم الشيخ أحمد بسفر ابن أخيه من صراخ زوجته حين علمت بسفره من ابنها محمد... تبعت صرختها صرخة أختها... بهت الأب وتألم فهو لم يتصور أن يصنع ابنه نور الدين ذلك.

كـان الشيخ أحمد حكيمًا فقد أسكت زوجته وأختها، ونهرهما فصمتتا على مضض... نظر إلى أخيه مصطفى وقال له:

– متزعلشـى... نور الدين حيمر ع الدير والشيخ أبو الوفا أبو شرقاوى مش حيسيبه يسافر لوحده... ولدك حيرجع لك.

طلب ركوبته أن تعد، وبعد صلاة الفجر انطلق نحو قرية الدير، وصلها قبيل غروب الشمس.

قـام نور الدين وقبل يدى عمه الشيخ أحمد وهو خجل منه، قال لـه عمه بهدوء:

– طالـب العلـم لا يهـرب... ستذهب إلى القاهرة يا نور الدين وستتعلم وستكون عظيمًا يا أبا البركات.

قضـيا اللـيلة فـى ذكـر مع الشيخ أبو الوفا، وناما قبل الفجر ليستيقظا للصـلاة... وبعد الصلاة طلب الشيخ أحمد الرحيل، سأله الشيخ أبو الوفا أن يبقى معهم بعض الوقت فرد عليه:

– سأعود بعد أن يصل طالب العلم الهارب إلى أهله.

أراد الشـيخ أبـو الوفـا أن يعطـيهم زادًا، ولكن الشيخ أحمد اعتذر فهما سيمران على أهل القرية وهما متجهان إلى الأقصر.

* * *

قضى نور الدين وعمه أسبوعين فى الطريق قبل أن يصلا إلى الأقصر، فقد أخـذ الشيخ يمر على أهله ومريديه يُعَرِّفُ ابن أخيه بعالمهم الذى كان يحس به ولكـنه لم يعرفه المعرفة الكافية. إنه يذكر أنه كان سعيدًا فى رحلته مع عمه فقد فتحـت لـه آفاقا من الوعى سمع عنها ولكنه لم يكن يعيها بهذه الصورة الحية. ومـع ذلك كان قلقًا، يريد أن يصل إلى الأقصر ليستعد لرحلته إلى القاهرة محملاً بدعـاء والديه، وحين وصل إليها كان صوت المؤذن يرتفع من مئذنة الشيخ أبو الحجاج معلنًا صلاة الظهر.

لـم يذهـب إلى منزله بل اتجه إلى المسجد، ثم خرج منه إلى بيته وقبل يد

والدته فاحتضنته وقد انهمرت الدموع من عينيها:

- كده تهرب وتسيبنى يا نور الدين.

لم يعرف كيف يوضح لوالدته موقفه. كل ما تعرفه أمه أنه هرب، ولم يناقشها فهو لم يتعود مناقشتها.

- معلهش يا أمه كله بأمر الله.

استدار ليخرج، حاولت أمه أن تبقيه.

- لازم أروح الساحة يا أمه.

ذهب إلى الساحة، لم يجد والده. قام بخدمة أهل الله كالعادة. قدم لهم الطعام. أخذ يستفسر عما يحتاجون إليه ليحضره. وحين انتهى القوم من الغداء خرج ليقف أمام الساحة؛ فاليوم هو بداية مولد الشيخ أبو الحجاج... المزمار البلدى... المرماح قد نصب... الخيل تجرى فى الميدان.

ذهب إلى منزله... وجد والده نائمًا نومة القيلولة، قبَّلَ قدمه محاذرًا أن يوقظه. دخل الحوش فأخذ الفرس يصهل ويحرك أقدامه فى رقصة فرح، وبدأت الناقة تتمطى استعدادًا للوقوف. وما إن ارتفعت بها قدماها الأماميتان حتى أخذت فى الرُّغاء بينما تمدد الحمار على الأرض ولم يحرك ساكنًا، لقد كان مجهدًا من رحلته مع نور الدين.

نظف حصانه وأسرجه وأمسك بعصا طويلة. أخرجه من الحوش. وركبه منطلقًا إلى الميدان يسابق الفرسان ويلاعبهم بالعصا من فوق حصانه. ازداد حماس الجمهور حين رأوا نور الدين ممتطيًا فرسه.

لقد ربى الفرس بنفسه، اشتراه عمه فى نفس اليوم الذى اشترى فيه والده حمارًا وناقة... الحصان والحمار والناقة ملكية خاصة لأبيه وعمه وأبنائهما إلا أنه يحس بشعور خاص نحو الفرس، فهى له وإن كانت ملكية مشاعة.

لم يتعود شباب الحجاجية أن يقوموا بلعبة المرماح، فهم يرونها للعامة من الناس وليست لعبة تُجَارّ لرجال الدين. شذّ عنهم واقتحم لعبة المرماح وعمره أربعة عشر عامًا. كان يشعر بالتفوق وهو يسبق رجال البيوتات الكبيرة بحصانه ويهزمهم بعصاه الطويلة كحربة الزناتى خليفة.

شـــعور جمـــيل ينـــتابه وهو يحرك الزانة ويلوى لجام فرسه الذى يطيعه. وكأنما يقرأ ما يدور بذهنه.

لاعـــب لساعات طويلة أكثر من شخص... اقترب منه الحاج محمد عبد الله أبو العوض المشهور بقتله لملتزم الكرنك التركى وقال له:

- أنت بتغلب بالبركة ياشريف... كفاياك كده انهارده.

عاد بفرسه إلى المنزل، وجد والده وعمه جالسين على دكة أمام البيت. نزل من على الفرس... سلم على والده وانحنى يقبل يده، ثم تركه ليعود بالحصان إلى الحوش.

قفل باب الحظيرة. خطا خطوات نحو والده الشيخ مصطفى. ظل واقفًا دون أن يـــأذن لـــه بالجلوس. لم يكلمه فى شىء، طلب الإذن فى الذهاب إلى الساحة. ابـــتعد خطـــوات. نـــاداه والده... يا نور الدين استعد للسفر، حتسافر بعد أسبوع لمصر...

* * *

ضـــاق الشـــيخ نـــور الدين بذكرياته فاعتدل من نومه، وقام ولبس الجبة ومضـــى نحـــو الســـاحة، تركها وذهب إلى الجبانة. لقد قضى اليوم بين الساحة والجبانة والمنزل جيئة وذهابًا لا يدرى ما يصنع؟ الثورة على الحكومة بمن؟

شـــباب أســـرته انفصل تمامًا عن شيوخها، لقد أنشأ جمعية أسماها جمعية الشباب الحجاجى تهاجم الشيوخ فهم فى نظرها سر تدهور الأسرة؛ إنهم يبحثون عن مستقبل اقتصادى، بعيدًا عن الشيوخ السلبيين الذين لم يخلفوا لهم ثروة.

شـــباب الشـــقيرات انفصـــل عـــن أهله وانفصل عـــن الحجاجية وأصبحت الجمعيتان تتنازعان بلا مبرر. إنهم لا يعرفون تاريخهم.

شباب الأقباط يدخل طرفًا فى صراع الشباب.

وصـــل إلـــى السوق بنفس المشية الهادئة حين صدرت منه زفرة ضيق لم يتعودها فى نفسه، فهمس فى سره «آه يا نور الدين الدنيا تغيرت»، وما إن انتهى من همسه حتى سمع الشاويش خليفة يناديه:

- يا شيخ نور الدين... يا شيخ نور الدين.
- أهـــلاً خليفة... إحنا قربنا ع البيت... تعال اشرب شاى. وسارا معًا فى صمت مخترقين القيسارية حتى وصلا إلى المنزل.

٢

- الأولاد حاضرين اليوم.

استطاع الشاويش خليفة أن يقطع الصمت بينه وبين الشيخ بهذه العبارة.

لـم يرسل ابنه محمود بموعد حضوره. وهو لم يعوده على ذلك؛ فهو رجل يسـتطيع أن يحضـر فى أى وقت. وإن كان يعلم أنه سيحضر اليوم، فهو يعرفه جـيدًا؛ مـا إن ينتهى من امتحانه حتى يهرب من القاهرة إلى الأقصر. ترى ماذا سـيحدث لـه عندما يعلم أن الحكومة قد قررت هدم الساحة؟ فابنه لا يثق فى الحكومة مثله تمامًا. إنها مخلوق بشع، مجهول، غير واضح الهوية.

لـم ينقطع الصمت بينهما والشيخ نور الدين لا يريد أن يقطع هذا الصمت، فهو يعلم أن خليفة مثقل بكلام كثير والشيخ يتمنى أن يوفر له عناء الحديث، فابنه حسـن يـريد أن يتزوج ليلى بنت عمران أبو السعود شيخ الشقيرات الذى رفض فكرة زواج ابنته من أساسها لحسن. فهو فى نظره ابن رجل غريب عن البلدة، لا يعرف أصله كما أنه يعمل فى البوليس، وانعدام الثقة بين الأهالى ورجال البوليس لـيس ولـيد الـيوم فهو تاريخ طويل، ولهم فى ذلك مثل شائع «لو كان صباعك شـاويش اقطعه». لكن الرجل طيب القلب عاش أكثر من ثلاثين عامًا فى المدينة، كان مثالاً للخلق الحسن. ربى ابنه تربية طيبة، وأرسله إلى كلية العلوم... الشيخ يحب هذا الفتى ويسعد عندما يراه مع ابنه وهو يعرف أن حسن التقى بليلى بنت عمـران فـى الكلية. كانت من أوائل الفتيات اللاتى التحقن من الأقصر بالجامعة. ويـبدو أنهما توادا، لا يتصور الشيخ نور الدين أن يكون بينهما أكثر من الود. لا يريد الشيخ أن يشق عليه فى حديث مؤلم. فخليفة سيحاول الدفاع عن نفسه بأنه واحـد من أهالى البلدة، خدمها وأحبها حتى إنه بعد أن أحيل إلى التقاعد قرر أن يـبقى فـيها، وأن يُدفن جسده فى أرضها مع أهلها. وما عيبه؟ وعيب ابنه حتى يرفضه عمران ويحرم ابنه من إنسانة يعزها؟

نفد صبر خليفة فخرجت الكلمات قلقة متوترة:

- حسن تاعبنى يا سيدنا الشيخ.

أجابه الشيخ باقتضاب:

- حسن إنسان كويس. مفيش تعب إن شاء الله.
- أصله عاوز يخطب بنت عمران وهو مش راضى. ليه مش راضى... أنا مش عارف...

أوقفه الشيخ:

- لا أبــدًا... يرضى... مفيش مشكلة... بكره نقرأ الفاتحة إن شاء الله... بس هدى نفسك.

وقف خليفة وقد أمسك بيد الشيخ وقبلها:

- ربنا يخليك لينا دايمًا بركة.

خـــرج دون أن يشرب الشاى ودون أن يلح عليه الشيخ ليبقى؛ فقد كان فى حاجة إلى أن يخلو لنفسه.

ولكـــن أحدًا لم يترك الشيخ لنفسه. فقد سمع أصوات صراخ خارج المنزل تـــبعها طرق على بابه... كانوا خمسة رجال وامرأتين، إنه يعرف الآن المشكلة، ولن تستغرق معه وقتًا لحلها، فهم بالتأكيد قادمون للطلاق فهو مأذون المدينة.

رفع أحد الرجال صوته:

- عاوزين نطلق يا سيدنا الشيخ.
- طـــلاق فـــى عينك انت وهوه... تطلقوا إيه... انتو عارفين بتعملوا إيه ياغجر.
- يا سيدنا الشيخ انت عارف بنت الـــ... تعبانى.
- امش اخرج يا مجرم انت تتعب بلد.

ألقى الشيخ نظرة على الفتاة الباكية وقد تورمت عيناها من ضرب زوجها:

- اســـمعى يـــا بنتى لما يحب يطلقك متجيش معاه، سيبيه يطلقك غيابى، متضيعيش حقوقك وحقوق أولادك.

- يا سيدنا الشيخ تاعبنى... أنا تعبانة منه، مجرسنى، ومبهدلنى ومفرج على الناس... دى مش عيشة.
- اصبرى يا بنتى بكره يعقل... وروحى دلوقت.

عاد الشيخ ببصره إلى الرجل وصرخ فيه:

- تأدب مع مراتك... احترمها يا أخى... دى أم عيالك وامش دلوقتى من قدامى وإذا شفتك تانى هنا حيكون يومك يوم.

حاول الرجل أن يتكلم، خرجت كلماته مبهمة كأنما يتهته بأصوات غير ذات معنى، وقام الشيخ ليفتح الباب ليخرجهم من المنزل وحين خرج الرجل رفع صوته:

- طب أنا حشتكيك يا شيخ نور الدين، بقى انت مش عاوز تطلق... بيمين تلاتة حشتكيك... تكون مراتى حرمانة على لمشتكيك.

ابتسم الشيخ فالرجل لم يتوقف عن القسم بالطلاق وهو مقرر طلاق زوجته. لو ترك هؤلاء الناس للحظات غضبهم لطلق نصف المدينة. إنهم دائمًا يغضبون منه، وقد يسمع منهم اتهامًا بالظلم والتحيز فهو غالبًا ما كان يأخذ صف المرأة ولكنهم كثيرًا ما كانوا يعودون إليه معتذرين.

اعتدل الشيخ فى جلسته، إنه ما زال يفكر فى الثورة على الذين يحدون من حريتهم كبشر... إنها مغامرة غير مأمونة، أصابه الضيق، تذكر نصيحة قديمة لشيخه الطيب: «لم يئن الأوان بعد يا نور الدين... لم يئن الأوان بعد... لا تقحم أحبابك فيما لا يعرفون واصبر...».

نعم، الصبر. عندما خرجت كلمة الصبر من فمه كان ذلك يعنى استسلامًا منه لمصير الساحة. تمتم: «سلمت أمرى إليك يا الله».

نادى الشيخ ابنته منيرة لتفرش له المصلى فقد حان موعد صلاة العشاء، وقف أمام القبلة ناويًا الصلاة معطيًا ذاته كلها لله ناسيًا هذا الوجود.



٣

وصـــل قطـــار الســـريع القادم من القاهرة إلى سوهاج، وأخذ الزحام ينفك وبـــدأت شـــلة محمـــود تشـــم أنفاسها، كانوا ستة رجال وثلاث بنات انتهوا من دراســـتهم وحـــددوا موعـــد ســـفرهم فى قطار الساعة الثانية عشرة. كان موعد تجمعهم محطة باب الحديد فى الساعة الحادية عشرة على أن يسبقهم حسن ليقطع لهـــم التذاكر فى الساعة العاشرة. وحين تجمعوا فى الساعة الحادية عشرة على رصـــيف القطار فى محطة مصر لم يكن حسن قد وصل، فذهب محمود إلى شباك الـــتذاكر ليعرف علة تأخره فوجده فى آخر صف متعرج بينه وبين عامل التذاكر على الأقل ساعتان.

- إيه اللى حصل. نسيبك ساعة ولسه برضه فى الآخر.
- كل ما تقدم خطوة الناس ترجعنى خطوتين أعمل إيه؟
- على كده، القطر حيفوتنا... تعال معايا.
- لفين؟
- بس تعال.

أمسكه من يده وعاد إلى صحبه. وخرجت منهم فى وقت واحد صيحة:

- فين التذاكر.

رد عليهم محمود:

- جاءتـــنى فكـــرة: تريزا تيجى معايا وتقف فى صف الستات درجة تالتة وتقطع لنا تذاكر... وليلى تروح فى صف الستات درجة تانية... وعلى وأبـــو العلا وحسيب يروحوا يركبوا القطر فى أوله... وحسن وصليب يقفوا مع العفش هنا.

ضاق على بمحمود:

- أروح فين يا عم... ده القطر واقف بعيد حوالى كيلو من هنا.

– ما هو يا تتمشى يا حتقف لحد لقصر طاوعنى أحسن لك.

لــم يهــتم بسماع إجابته ومضى مع تريزا وليلى إلى شباك التذاكر مرخيًا عينــيه محاذرًا أن يسقطهما على وجه تريزا. اسم تريزا وحده يثيره فهو يذكره بالحكايــة الشائعة عن جده الكبير الشيخ أبو الحجاج الذى تزوج من فتاة اسمها تريــزا القبطــية. كثــيرًا ما كان يعتز بأنها جدته وأن فى دمه امتزج الدم العربى والمصــرى القديم امتزاجًا لا يعرف التحلل، وتريزا هذه تهز الماضى كله، وتعمق فــيه الامتزاج بالأصول الأولى. لم يعرف فتاة فى جمالها ولا خلقها، صامتة حتى تُســأل وحين تتكلم تخرج الحكمة من فمها. لم يشعر بين فتيات الجامعة أن هناك فتاة تشده إليها مثلما تفعل تريزا. إنه يعرف أنها تكن لــه نفس المشاعر... الود والاحــترام... ويعرف أيضًا أن الدين يقف حاجزًا كبيرًا بينهما فما أتيح لجده لن يُــتاح لــــه. ولقد وقف هذا الحاجز بينهما يمنع من تطور العلاقة نحو أى شكل شرعى.

كــان يحــس بأنه مشدود إليها منذ أن رآها أول مرة وهو يلتحق بمدرسة الأقصــر الــثانوية قــبل أن يشعر جسده بالحنين نحو المرأة. كانت تسكن بجوار صــليب صــديقه. يدخــل الشارع فينادى على صليب إذا لم تكن مطلة من شرفة مــنزلها أو واقفة أمام باب بيتها يخرج نداؤه قويًا، وإذا وجدها أطال النظر إليها فــيخرج نداؤه لصليب ضعيفًا مبحوحًا... الشىء الذى أدهشه ملاحظته أنه ما إن ينادى على صليب حتى تطل من شرفتها، والغريب أن أحدًا لم يلاحظ شيئًا. وحين الــتحق بكلية الآداب قسم اللغة العربية التحقت بنفس الكلية فى قسم التاريخ فكانا كثــيرًا مــا يلتقــيان، يبادئها بالتحية مرة وتبادؤه أخرى، غير أن حوارًا لم يدر بيــنهما، وحــتى التحية لم تزد على هز الرأس، تسبقها أو تتبعها ابتسامة. كان يســأل نفســه هل هو الجبن الذى يمنعه من الحديث معها؟ كان يبعد هذا التصور بأنها المسئولية فهى ليست له.

ضــاق ذرعًــا بهذا الإحساس المتوقف عند نقطة لا يتعداها، فأخذ يتحاشى لقاءهــا ومــن ثــم تحيتها... ثم التقى بإلهام من نفس قسمها فى إحدى حفلات الكلية... نظر إليها فبادلته النظرة... كانت جريئة... نظرتها تشجعه... تدعوه إلى الحــركة... اقــترب منها واقتربت منه... حادثها... اخترع كلامًا... تواعد معها على اللقاء... صعيدى لا يفرق بين هزة الإعجاب وهزة الحب... اهتز كيانه حبًا. كتب شعرًا عن الحب والحزن والحرمان والألم.

كانـــت إلهام أرستقراطية تجيد وضع المساحيق على وجهها ورسم عينيها بـــالكحل الأســـود... شده التناقض بين واقعها وكلامها فهى تتحدث عن الطبقات الكادحـــة وتحريرها... تناقش فى السياسة والاجتماع والاقتصاد، شىء لم يعرفه عن فتيات بلده حتى تريزا نفسها لا تقارن بها. الوجه الأبيض التركى ألغى الوجه الأســـمر المصرى، اختفت تريزا لتحل محلها إلهام. نضارة الحضارة قادرة دائمًا علـــى إزاحة التخلف بعيدًا. وهى فتاة ربيت فى جو أرستقراطى لا علاقة له بعالم تريـــزا. لم يشعر بأى صراع فى داخله وهو يتوقف عن كل شىء. لقد شدته حتى لم يعد قادرًا على التركيز فى قراءته، حتى أصدقاؤه لم يجد متعة فى صحبتهم... لقد ملكت عليه نفسه.

دخل الكلية وهو تائه ينظر حواليه ليجد فتاته فإذا بتريزا تناديه:

- محمود... محمود... نظر إليها فبهت أن تكون تريزا هى المنادية.
- أهلاً تريزا.
- أنا عوزاك.

جرأة لم يعهدها فى تريزا. سار معها خلف مكتبة كلية الآداب، إنه يعلم أنه الشـــاب الوحيد الذى خرج معها من باب الكلية. إنه خائف أن يراه أى واحد من شـــباب الأقصـــر فإنها ستكون نهاية تريزا... وهو يريدها أن تتكلم لينهى الحوار وتريزا تنتزع الكلمات انتزاعًا فلا تخرج.

- أيوه يا تريزا...

صمتت تريزا وأخيرًا نطقت:

- انت بتحب.

نظر إليها محمود نظرة صارمة فإذا بها تنظر إليه بنفس الصرامة:

- ميصحش تحب البنت دى... انت أخويا وأمرك يهمنى.

هـــل صحيح أنه أخوها؟... هل بدأت تريزا تغار؟... لقد كان يحبها ولكنه لا يعـــرفها... لم تتركه تريزا لأفكاره، وانطلقت تلقى بكلماتها بسرعة وكأنها تخشى ألا يكون هناك وقت لإنهاء حديثها.

- متسرحشى كتير... انت عارف إن أخويا بيشتغل فى وزارة الثقافة وهو عارف أبوها... أصله موظف كبير هناك. هيه جات زارتنى وأخويا قال

كلام كتير عن أبوها... أنانى ويحب مصلحته وبيلعب مع السلطة وعنده استعداد يضحى بأى شخص فى سبيل مصلحته راجل معندوش دين لا بيصلى ولا بيصوم وسكرى معندوش مانع يجيب عشيقاته فى البيت قدام بناته... ودى بنته وأنا عرفتها ثايرة على أبوها لكن كلها إعجاب بيه وحديثها عن الجماهير والكادحين حديث بيعجبها ويضايق أبوها فبتتمادى فيه وهيه متهيأ لى عاملة معاك علاقة لأنك شىء مختلف بتتفرج على قدراتها فيك. إنت مش بس صعيدى إنت من عيلة بتمثل كل اللى الصعيد عايش فيه. أنا قلت لك وانت حر. جايز أنا غلطانة... ماليش حق أكلمك فى الموضوع ده... لكن أنا خايفة عليك... خايفة عليك منها يا محمود تجرحك.

اهتز محمود مع كل كلماتها. كان يريد أن يصرخ فى وجهها أن تتركه فهذا كلام سخيف... كيف سمحت لنفسها أن تقول هذا الكلام! من أعطاها هذا الحق؟ ولكن شيئًا ما أخرسه، لم يستطع حتى أن يقاطعها أو يستفسر عما تقول، فهذا مجرد كلام لا دليل عليه. كانت تتكلم فى عصبية وانفعال شديد حتى إنه لم يعد قادرًا على النظر إلى وجهها الملتهب الذى تحول من تريزا الشابة إلى تريزا الأم التى تريد أن تعلم وليدها. وبعد أن ختمت كلماتها نظر إليها فإذا وجهها قد عاد إلى هدوئه. حركت عينيها بحركة هادئة وتمتمت بصوت هامس:

- أنا آسفة.

وتركته ومضت.

لم ينم ليلتها، لم يفكر فى دوافع تريزا فى هذا الكلام؛ فإحساسه كبير بأن تريزا صادقة فى كل كلمة تقولها وأنه أخذ يكتشف هذه الحقيقة ويعجز عن الاعتراف بهذا الشىء الذى لم تقله تريزا. إن إلهام كانت مصابة بداء الكذب، تكذب بسهولة لا تقل عن سهولة مضغها للبان.

لقد مرت أيام على حديث تريزا حين ذهب إلى الكلية فسأل عن صاحبته وعرف أنها لم تحضر، ذهب إلى بيتها فى موعد عمل والدها فدق الجرس لتفتح له الخادمة فدخل حجرة الجلوس ليجد فتاته جالسة بجوار رجل غريب على مقعد واحد يجلسان ملتصقين فما إن رأياه حتى ابتعدا كمن يريد أن يوارى جريمة. خرج ولم يلتق بها بعد ذلك، ولكنها كلفته شهرًا من المرض لزم فيه الفراش.

حيـن عـاد صليب وحسن صديقاه وزميلاه فى السكن إلى الشقة وجداه قد سقط مريضًا على فراشه.

تصـورا فى البداية أنه ربما يكون قد أصيب بأنفلونزا حادة... ولكن جسد محمـود بـدأ يضمحل والحرارة لم تتوقف عن الارتفاع والوجه المصفر أخذ فى الذهـول. أصابتهما الخشية عليه فالأمر يبدو أخطر من تصوراتهما، أحضرا لـه محمـد رشدى أحد أبناء الأقصر من أطباء الامتياز فى القصر العينى. لم يتعرف علـى حالـته، فـأراد أن يأخذه إلى المستشفى ليعرضه على أحد أساتذته، ولكن محمـود يـرفض أن يذهب. إنه يبدو مستسلمًا للمرض، فقرر صليب وحسن أن يحمـلاه على الرغم منه إلى المستشفى ولكنه يصر ألا يغادر سريره. إنه لا يريد أن يتكلم... أن ينطق... لماذا لا يريد أن يذهب إلى المستشفى؟

وقفـا حائريـن حيـن دق جرس الباب وفتح صليب ليجد محمد رشدى قد أحضـر أستاذه إلى الشقة. كان تشخيص الطبيب أنها حالة نيمونيا وأنه فى حاجة إلـى الـراحة التامة، وهو يرى أنه من الخير أن يذهب إلى المستشفى... خرج الأسـتاذ، وقـد تغير وجه محمود، انعكست الصفرة والامتعاض على وجهه حتى جعلته أشبه بشبح قادم من عالم الموتى.

فكر محمد رشدى قليلاً ونظر إلى صليب وحسن:

- حـنعالجه فـى الشقة... حجيب لـه الدوا من المستشفى وربنا يستر النيمونيا متتقلبش لحاجة تانية.

صـليب وحسن يعيشان لحظة قلق. هل يرسلان لوالده؟ هل يتركانه معهما هنا مستسلمًا للموت...

تمر اللحظات بطيئة... قررا ألا يرسلا لوالده... محمود لا يتحسن... عيناه تغوران فى محجريهما... نظراته تزداد تيهًا... قال صليب: الأمر لا يحتمل التأجيل لا بـد أن نرسـل لوالده... لم يرد حسن عليه فهو لا يدرى ماذا يصنع...؟ خرجا معًا إلى الكلية... صليب يوضح وجهة نظره... حسن لا يرد...

لـم تمـض ساعة على خروجهما حتى دق الباب... محمود لا يستطيع أن يقوم من فراشه... الدقات تزداد قوة... وهو تائه عنها... الجرس لن يتوقف حتى يفتح الباب، سكت صوت الجرس، سمع صوتًا أنثويًا:

- افتح يا محمود... أنا تريزا.

عاد إلى نفسه وهو يسمع صوت تريزا... لماذا تأتى هنا... إنه لا يستطيع أن يقف. الصوت يعود:

- افتح يا محمود أرجوك... افتح... أنا تريزا...

شد من نفسه صوتها... أخذ يستجمع قوته حاول أن يقف... إنه فعلاً مجهد متعـب عاجز عن الوقوف. أسند يديه إلى الحائط وهو يتحرك ليفتح لها الباب... أخـذ يكـح... ارتمـى على الأرض... سحب نفسه... وقف نصف وقفة... فتح الـباب... صـرخت تريـزا... وضعت يده على كتفها، وأمسكتها، ووضعت يدها الأخرى حول وسطه وسحبته من الصالة إلى حجرته.

رقـد علـى السرير... تريزا تنظر إليه فى استغراب... تفكر... نظرت إلى وجهـه المصفر وقد خرجت عظامه إلى الأمام، ليس فيه من علامات الأحياء غير الحركة المتعبة.

صرخت تريزا:

- إيه اللى عامله فى نفسك...؟

نشـجت... وضـعت وجهها بين يديها... لم يتوقف نشيجها ارتفع صوت محمود:

- اخرجى يا تريزا... صليب وحسن حييجوا دلوقت وبعدين تبقى فضيحة.
- تـبقى فضيحة تبقى... أنا وانت وربنا عارفين الحقيقة... ومتخافش أنا شايفة صليب داخل الكلية وحسن رايح كليته. وأنا كان لازم آجى... أنا السـبب فـى ده كله أنا مالى... ليه قلت لك... أنا آسفة يا محمود... آسـفة... لكن مكنتش أعرف انك بتحبها بالشكل ده... ما هو يا أخى يا تقـبلها زى ما هيه يا متموتش... يا محمود... عيب... عيب انك تقع علشـان واحدة متستاهلش... دول عالم تانى ملهومش علاقة بينا ولا بمصـر... فوق... فوق... ومتموتش روحك... محدش عارف مرضك لكـن أنـا عارفاه. إذا مت دلوقت تبقى مت من غير تمن... بالمناسبة البوسطجى تحت إدانى جواب جايلك.

فتحت حقيبتها لتخرج الخطاب:

- باين عليه من لقصر ومن أبوك.

وضعت الخطاب بجواره وهى تكمل حديثها:

- يا أخى إن مكنتش خايف على نفسك فكر فى أمك... فكر فى الشيخ نور الدين اللى بيعتز بيك.

وما إن ذكرت اسم والده حتى انتابته ارتعاشة شديدة:

- كفاية يا تريزا... كفاية... كفاية...
- كفاية إيه يا أخى...؟ يعنى تموت فطيس علشان واحدة متستاهلش... لو الشيخ عرف حيقول عليك إيه...؟
- تريزا كفاية كده أنا خايف حسن وصليب ييجم.
- طيب أنا ماشية يا محمود، لكن إذا مشفتكش قريب فى الكلية حجيب أخويا يجى ياخدك البيت... انت أخويا كمان وأنا أولى برعايتك... خليتك بعافية.

وقفت تريزا لتخرج، وقبل أن تخرج من الحجرة سمعت أقدامًا تتوقف أمام باب الشقة وحركة مفتاح يدخل فى القفل. تراجعت لتقفل باب الحجرة وتهمس بقلق لمحمود:

- حد جاى هنا... إيه العمل؟

كان على محمود أن يفكر بسرعة... أن يقوم بعمل سريع... لن يكون القادم سوى صليب أو حسن أو كليهما... وقف... نظرت إليه مستغربة... إنه يشد نفسه بينما هى ترتعش... استعادت نفسها حين خرج من الحجرة لتسمع صوته:

- أهلاً صليب.

رد عليه صليب الذى هزته المفاجأة:

- إيه ده... إيه اللى حصل... أنا كنت ناوى أتصل بيوك... علشان كان لازم تسافر...
- اسمع أنا جعان... جعان جدًا...
- فيه فول وجبنه...
- لأ نفسى آكل حمام...

- أجيبها منين...
- هات لى نص كيلو م الحاتى فى الدقى...
- يا سلام يا أبو حنفى... أجيبلك الحاتى كله...

خرج صليب مسرعًا من شدة الفرح ليحضر الكباب لمحمود.

استردت تريزا أنفاسها حين سمعت صوت الباب يفتح ثم يغلق... محمود يعود إليها ليفتح باب الحجرة:

- أنا آسف يا تريزا.
- أبدًا...

خرجت تريزا وحمدا الله أن لم تحدث فضيحة... صليب صديقه ولكن هل يفهم حقيقة العلاقة بينه وبين تريزا، وإن فهم فهل يقرها؟ وحتى لو حدثت فضيحة ولم يفهم أحد أو لم يقره على هذه العلاقة إنسان فهو يشعر أنه ليس وحيدًا... ويشعر بالدفء... بالصدق الإنسانى، شعور يختلط بجسده المريض فيتحول إلى دواء سحرى يعيده إلى نفسه إلى قوته.

خرجت تريزا، لم يفكر فى شىء... فتح خطاب والده فيه حوالة بستة جنيهات وخطاب من سطرين «ابننا العزيز نرجو أن تكون بخير وأن تكون منكبًا على العلم فهذا أملنا فيك حفظكم الله... الإمضاء نور الدين».

هكذا دائمًا والده يسمى الدراسة بالعلم، لا ينسى أبدًا مصطلحات المجاورين.

زيارة تريزا وهذا الخطاب أعاداه إلى الحياة مرة ثانية، وأخذت الصور تتراقص أمامه تريزا، صليب، حسن، الشيخ نور الدين.

عاد صليب ومعه ربع كيلو كباب وطبق سلطة ورغيفان، لم تكن نقوده تكفى لشراء أكثر من ذلك. لم يهتم محمود بالكم... فالمهم أن صليب لم ير تريزا. وضع صليب الكباب والسلطة والعيش أمام محمود فأخذ فى التهامها باشتهاء لم يعرفه منذ وقت طويل.

مرت ثلاثة أعوام على هذا الحدث لم يدر فيها حوار بين محمود وبين تريزا أيام الدراسة. يلتقى بها آخر كل عام فى رحلتهم إلى الأقصر فى الإجازة الصيفية. وهناك تزور أسرته مرة أو أكثر. وهذه آخر سفرة يجتمعان فيها.

همس محمود لتريزا:

- أنا مش عارف أشكرك إزاى... انت عملت فيه خدمة كبيرة...

فهمـــت تريزا أنه يعود بها إلى أيام طويلة قديمة. لم تسأل نفسها عن سبب فتحه لهذا الموضوع الآن. فالمهم أنه يفتحه. وأنها سعيدة بهذا. ردت عليه:

- إحنا أخوات يا محمود.

ابتعد عنها قليلاً ريثما تقطع التذاكر ثم عاد بها وبليلى إلى صحبه.

كـــان رصـــيف قطـــار الصعيد مشحونًا بالبشر والأمتعة، وحين بدأ القطار يـــتحرك مـــن بعـــيد، أخذ الجميع فى التحفز للقفز على أبوابه وشبابيكه. وتعالت الصيحات كبداية لأشياء أخرى قد تنتهى بمعارك. ترك البنات بجوار العفش وجرى مـــع صليب وحسن ليقفزا إلى الدرجة الثانية حيث سيجلس البنات، قفز كل منهم مـــن شـــباك وحين وصلت أقدامهم إلى الأرض تبينوا ألا مكان لجالس، طلب من صليب أن يقفز ثانية ليعود بالبنات وبعدها ربنا يسهل. مضى الوقت طويلاً ثقيلاً، فقـــد تأخـــر صـــليب، كان عليه أن يضع عفشهم فى الدرجة الثالثة أولاً ثم يعود، وحين عاد كانت الطرقات قد اكتظت بالواقفين.

رائحة العرق تملأ المكان ولكن لا أحد يشم فالجميع مشغول فى وقفته.

نظر حسن إلى محمود:

- حنعمل إيه...؟
- حنـــتخانق خناقة لرب السما... ارجع يا صليب نادى حسيب وعلى بس بسرعة.

تحـــرك القطـــار فاهتزوا جميعًا مع حركته. الأصوات لم تنقطع. عاد صليب وحســـيب وعلـــى، هـــنا ارتفع صوت محمود: يا جماعة الستات لازم تقعد... يا جماعة عيب... خلو عندكم دم... ده انتوا صعايدة...

لم يلتفت إليه أحد. مد يده إلى أحد الجالسين وسحبه من مكانه:

- يا أخى بقول لك قوم.

وتشابكا بالأيدى، حاول الناس التدخل، أجلس صليب البنات مكان الواقفين، تدخل حسيب وعلى. اعتذر حسن للرجال: يا جماعة آسفين بس عيب البنات تقف.

رد الرجل المضروب:

- كان لازم يطلب بأدب.
- معلهش حقك عليه.

أخرج صليب سيجارة هوليود، وأعطاها للرجل:

- حقك عليه.

رفضها الرجل:

- لا... مبشربش.
- يا أخى ميصحش خدها دحنا اخوات.

مـد الـرجل يده إلى علبة السجائر التى لم يكن فيها غير سيجارتين. أخذ سيجارة منها. وكان ذلك يعنى نهاية المشاجرة.

انسـحب محمـود وصحبه إلى الدرجة الثالثة بعد أن اطمأنوا على البنات. وحين وصلوا إلى أبو العلا وجدوه واقفًا.

- إيه اللى حصل؟
- الناس خدوا الأماكن بالقوة.

وكان لا بد من معركة جديدة.

- يا جماعة عيب تاخدوا الأماكن بالقوة.

وقف رجل عجوز من الجالسين على الأرض.

- إيه هيه سيما بيحجزوا فيها؟

العصى هنا غليظة وكثيرة. وأية معركة لا تُعرف نهايتها. فكر فى أن يحسم الموقـف بحـل وسط إن وافق المجتمعون عليه فإن المشكلة ستحل وإلا فأمامه معركة.

- يستحسن تسيبوا الأماكن. إحنا حنقسمها. كل واحد يقعد شوية.

بـدا هـذا حلاً معقولاً ومنطقيًا فى نظرهم فلم يكن أحد من الموجودين فى حاجة إلى العراك.

مـرت السـاعات الأولـى حتى أسيوط ثقيلة وبطيئة وقاسية... الوقفة... الحـر... العـرق... الزحام. ضاع العيش والبيض فى زحمة الركوب وعرفوا أن

علـــيهم أن يتعايشـــوا مع الجوع حتى يصلوا إلى الأقصر أو ينزل أحدهم فى أية محطة من محطات الوقوف لكن هذا يعد مغامرة فى هذا الازدحام فقد يفوت القطر أى واحد يخرج منه.

أخرج الرجل العجوز صرة وأخذ يفكها، تابعت أعينهم اللفة. فطير مشلتت وجبنة وحمام. نظر الرجل إلى جماعته وقال:

- تفضلوا...

وأعاد الكلمة على محمود وصحبه:

- زى مقسمنا الأماكن نتقاسم الأكل.

أخـــرج بقية الرجال طعامهم. لم يعتذر أى واحد من الصحاب. مدوا أيديهم إلـــى الطعـــام وأخذوا يأكلون بنهم فهى مشاركة ولكن من جانب واحد. غير أنهم أجمعوا ألا يقف الرجل العجوز أبدًا فقد ضمن مكانه حتى يصل إلى بلده. خلت كثير من المقاعد فى سوهاج وجلسوا فى استرخاء وقد داعب النوم عيونهم، غير أنهم لم ينسوا البنات، فى كل محطة يقف فيها القطار يذهب واحد منهم ليطمئن عليهن.

رمى محمود نفسه على كنبة فارغة مستعدًا للنوم فلم يتركه صليب.

- أنا عاوزك...

- فيه إيه يا صليب؟

- أمر مهم.

كان صوته ينم عن أن أمرًا هامًا يرهقه.

- أنا سامعك كويس.

- تريزا.

- مالها تريزا؟

- أنا بحب تريزا وعاوز أجوزها.

انطلق صليب يروى قصة حبه الصامت لتريزا قبل أن يغادرا الأقصر. وحين ذهـــبا إلى القاهرة كان يراها أنسب فتاة لتكون رفيقة حياته. لم يجد محمود فيما يقول صليب مشكلة. إنه يترك نفسه لهم بلا هم.

- طب يا أخى متخطبها.

محمـــود لا يفهـــم أن هناك بعدًا ما بين أسرة صليب الفقيرة وبين أسرتها المشهورة فى الصعيد بالغنى والجاه.

- أنا مش شايف مشكلة أنت مسيحى وهيه مسيحية وده كفاية.
- ياريت... بس ده مش كفاية...
- الأمـــر زى ما انت شايف عندنا طبقية كبيرة... المتعلمة ياخدها متعلم والغنية ياخدها غنى. والمتعلمة الغنية ياخدها متعلم غنى.

صمت صليب وصمت محمود فهو لا يدرى ماذا يريد منه صليب؟ هل يريده أن يتدخل أم أنه فقط يروى همومه له؟ إنه لم يتكلم عنها قط، وهو الآن يروى له كـــل أحاسيسه نحوها. لم تكن مفاجأة لـــه فتريزا تُحب. وصليب شاب جدع يعتمد علـــيه، ولـــو كانت تريزا أخته لسعد بزواجها من صليب. يبدو أنه لا يفهم تقاليد الأســـر المسيحية فى الزواج... رؤيته للأمور سطحية. ولا شك أن صليب يواجه مشـــكلة... الشـــخص الوحـــيد القـــادر على حلها هو أبوه الشيخ نور الدين فهو يســـتطيع الإقـــناع ويستطيع أن يفرض وجهة نظره إذا ما كان مقتنعًا بها، ولكن كيف يكلم والده فى هذه المشكلة؟ وهل هذا ما يريده صليب؟

- قل لى أى حاجة أعملها لك يا صليب.
- تكلم تريزا تشوف رأيها.
- طـــب وإيه قيمة رأى تريزا إذا كانت أسرتها هيه اللى حتعارض؟ فكرك تريزا تقدر تقف فى وش أهلها؟
- لأ... لكن تقدر تساعد.
- وفكرك هترضى؟
- نحاول... بس انت متفكرش وخليها على الله وسيبنى أنام شوية.

وضع يدًا تحت رأسه ويدًا فوق عينيه. ولكنه بدلاً من أن ينام، أفاق... فقد اقتحمـــت رأســـه صـــورة الشيخ نور الدين. إنه الآن فى الخامسة والسبعين من عمره، المفروض أن يُحال على المعاش، أن يضعف، أن يتوقف عن الحركة ولكنه أقوى منه وهو ابن الثانية والعشرين. يشعر أمامه بالضعف والعجز. يحل مشاكله ومشاكل الناس. وهو الآن يعجز عن الوقوف بجوار صديقه فيجد نفسه متجهًا إلى الشـــيخ نـــور الديـــن الـــذى يتدخل فى مشكلات المسيحيين والمسلمين، الفقراء

والأغنـــياء، الأهل والغرباء على حد سواء. أى رجل هو؟ من أية طينة خُلق؟ لقد عـــاش أربع سنوات من عمره فى القاهرة يحاول أن يقلده عندما كان مجاورًا فى الأزهر فلم يستطع. لقد حدثه زملاء أبيه فى المجاورة: أنه كان خير زملائه، يقرأ الكـــتاب مـــرة واحدة وكأنما ينطبع فى قلبه. أما هو فإنه مختلف عنه يقرأ وذهنه بعـــيد عما يقرأ، لا يركز إلا فى شهر الامتحانات. حادثه رجل من أهله كما حادثه الشـــيخ المجـــاور أن والـــده كان أغنى مجاور فى الأزهر وأنه كان يرسل لوالده نقودًا.

أى رجـــل هو الشيخ نور الدين؟ لقد حاول أن يصنع مثله فعجز، حاول أن يجـــد عملاً ولكن القاهرة لم تعطه هذا العمل. أراد أن يستقل عن أبيه فلم يستطع. ما إن يبدأ الشهر حتى يتشوق طلبة الأقصر إلى خطابات آبائهم المحملة بحوالات بريدية، أما هو فكان يكره انتظار هذا الخطاب وأكثر ما يكره الحوالة البريدية التى تذكـــره دائمًا أنه تابع للشيخ نور الدين. إنه لا يرفض تبعيته لـــه ولكنه يريد أن يشعره أنه مثله، قوى، قادر. لقد روى له الشيخ المجاور أن والده كان يسكن فى مـــنزل مع زملائه فرأى واحدًا منهم ينظر من سطوح المنزل خلسة فنظر إلى ما رأى فوجد فتاة عارية فاقشعر جسده. لم يثر ولم يصرخ وإنما أمر الفتى أن يغادر المـــنزل وأن يبحـــث لـــه عن مكان آخر. هذا الرجل يعمل ويذاكر ويرسل لأهله نقـــودًا ويحـــافظ علـــى نقائه فى غربته. أما هو فقد أحب إلهام منصور وعراها وأغرقـــته فى شهوة جسدية، ولولا ذلك القرآن والورد الذى كان يحصنه به والده كلمـــا أمســـك بيده ليودعه وهو فى طريقه إلى القطار لما عرف كيف تنتهى هذه العلاقة. إنه يعرف جيدًا أن الشيخ نور الدين يقف بينه وبين كل متعة جسدية، لقد رآه مـــرة بعـــد أن تعرى مع امرأة فاتنة الجمال يخترق الحائط ليقول لـــه: أهذا أنـــت؟ تكـــررت هذه الصورة فأوقف حركة جسده. كثيرًا ما يسائل نفسه هل هذه الصورة حقيقية أم أنها من صنع الرهبة من هذا الرجل؟

أى رجـــل هـــو الشـــيخ نور الدين؟ إنه يحس بفخر أنه ابنه ويحس أيضًا بتعاســـة أنـــه لا يســـتطيع أن يقيس قامته بقامته. تمنى كثيرًا أن يصارعه فأهل الأقصر يروون الكثير عن قوته البدنية.

يطرد هذه الأفكار فهذا لا يليق به، إنه شيخ كبير، ولكنه يعرف أنه سيهزم.

الـــروايات تـــتحدث عن قدرته على العوم فقد كان يسبق الجميع فى اجتياز

النيل. آه لو يسابقه فى السباحة وحتى هذه فإنه يعرف أنه لن يستطيع. شيخوخة هذا الرجل أقوى من شبابه.

لقد أبلغه أحد أصحاب الشيخ أنه يمتدحه ولا يرى فيه عيبًا إلا أنه لا يصلى. لـــم يطلـــب منه منذ أن كبر أن يؤدى فروض إسلامه، وحين علم هذا من صديق الشـــيخ أخـــذ يواظب على الصلاة، حاول أن يريه ذلك. رآه يصلى العصر بمفرده فصلى وراءه وتابعه فعجز عن التركيز، كان الشيخ يغيب فى الصلاة كأنها ليست فرضًـــا يؤديه وإنما حب يقوم به فى لقاء مع حبيب يعرفه ويستغرق فى مناجاته. إنهم فى المدينة يقولون عنه إنه أكثر إخوته شبهًا بأبيه، وهو لا يصدق أحدًا، إنه يعـــرف أن هـــناك طريقًا طويلاً لكى يكون الشيخ نور الدين. إنه يغبط هذا الرجل ولكنه يحبه حبًا عميقًا فى عمق ماء النيل عند ساحة أجداده.

انطفأ نور عربة القطار حين وصل الكمسارى ليوقظه من تفكيره:

- تسكره؟
- مع زمايلى وره...
- فين زمايلك؟

تبين من صوت الكمسارى أنه جاره صلاح:

- إزيك يا صلاح.
- مين الأستاذ محمود... أهلاً... إيه اللى قعدك هنا متروح درجة أولى.
- أنا كويس هنا... لكن فيه معانا بنات ممكن آخدهم درجة أولى؟
- يا أخى روح وديهم... قعدهم أى مكان يعجبك.

بعد أن تركه الكمسارى تحرك إلى الدرجة الثانية فوجد البنات قد غرقن فى الـــنوم فتركهن ومضى إلى الدرجة الأولى. إنه لا يريد أن يجلس هناك وإنما يريد أن يحرك جسده، أن يخرج من توتره ومن قسوة الجلسة فى هذا القطار المرهق. تحرك من عربة إلى عربة على غير هدى، وقبل أن يصل إلى مؤخرة القطار وجد الأستاذ دياب، إنهم يسمونه فى الأقصر الدكتور دياب، تأفف من رؤيته وتمنى ألا يكـــون قد ترك مكانه. سلم عليه دياب وطلب منه الجلوس فاعتذر بأن زملاءه فى انتظاره بالدرجة الثالثة.

- انت مش باين ليه... ومبتزورناش ليه؟

فرد عليه باقتضاب معتذرًا بمشغوليته فى الدراسة ووعد بأن يزوره عندما يعود إلى القاهرة ثانية.

- وإزاى الشيخ؟
- كويس.

تركه، وتوجه إلى عربات الدرجة الثالثة.

* * *

يعــرف محمود جيدًا أنه لن يفى بوعده للأستاذ دياب فهو لا يطيق أن يراه ولا يــتحمل اللحظــة التى يجلس فيها معه ومع زوجته وأولاده، إنه يشعر بأنهم عــالم مخــتلف عن عالمه، يذكره بغلاسة منصور بك والد فتاته القديمة، كبرياء فارغ أجوف، وإحساس كبير بالذات دون سند حقيقى يسنده.

ديــاب هــذا ابن الشيخ محمد ابن عم الشيخ نور الدين، وفى عرف الأسرة عمه ولكنه لا يناديه إلا بيابا الشيخ. تعلم فى الأزهر الشريف وكان أمل الأسرة أن يعود ليصبح واعظًا وإمامًا فى الأقصر فقد قل عدد التحاق أبنائها بالأزهر الشريف إذ اتجهوا إلى المدارس الأميرية.

تفــوق ديــاب فــى دراسته وحين تخرج أرسله الأزهر فى بعثة إلى لندن ليحصل على الماجستير.

يقول عنه المقربون من الأسرة إنه أساء إلى العلم فقد تكبر على أهله حتى إنــه لم يكن ينظر إلى أخيه أحمد إلا باستعلاء. ولم يكن على وفاق مع أبيه حتى إنــه كثيرًا ما كان يشكو للشيخ نور الدين متهمًا إياه بأنه قاسى القلب لا يحب إلا نفسه. كان الشيخ يطلب إليه أن يدعو لــه ويحذره من الغضب عليه فهى نزوات شباب ولكنه ما يلبث أن يعود إلى أصوله الأولى.

قضى دياب أبو محمد فى لندن سنتين تقمص فيهما الحياة اللندنية، أو هكذا توهم. كان حين يعود إلى بيته يصر ألا يأكل إلا بالشوكة والسكينة. وحين يحادث أهله يدخل بعض الكلمات الإنجليزية التى لا يفهم أحد منها شيئًا.

تزوج بفتاة قاهرية من أسرة غنية تعمل مدرسة للغة الإنجليزية. زادته هذه

المصاهرة بعدًا عن أهله. لا يذكر محمود أنه زار بها الأقصر. كان كمن يخشى أن يريها لأهله الصعايدة المتخلفين. حتى حين مات والده حضر بمفرده وآلم الجميع ألا تؤدى زوجته واجب العزاء لأقرب الناس إلى زوجها.

باع معظم نصيبه فى الأرض وكأنما أراد أن يقطع كل صلته بماضيه.

عندما وصل محمود إلى القاهرة زاره ليؤدى حقًا لابن عمه فشعر بغربة فى بيته. وكان لقاؤه بزوجته مهينًا له.

كانت تتساءل:

- مين ده؟
- ده ابن عمى.
- ابن عمك مين؟
- الشيخ نور الدين.
- أهلاً... تشرب قهوة ولا شاى.
- لأ أبدًا يافندم أنا شارب قبل ماجى.

انتهى الحوار عند هذا الحد، تركته مع ابن عمه الذى قام ليعد الشاى لـــه، ولولا الخجل لما شرب الشاى، إلا أنه ضغط على نفسه وشرب نصف الكوب وهب واقفًا بلا مقدمات.

- استأذن.
- متقعد تتعشى.
- شكرًا أصلى معزوم فى فرح الليلة.

وســـلم علـــيه وانصـــرف. وما إن أغلق دياب باب الشقة حتى أخذ محمود يجرى كأنما كان يفر من جن خبيث.

ترى ما الذى أعاد دياب أبو محمد إلى الأقصر؟

لا بد أنه قادم ليبيع آخر ما يربطه بالمدينة.

٤

عاد الشيخ إلى الكنبة، ألقى عليها جسده، حاول أن يسترخى فلم يستطع... الســاحة تلح على تفكيره، أصبحت هى العالم كله... يؤلمه أن تهدم كما يؤلمه أن يستسلم... لا حل... تغير العالم... لقد شاهد التغير يحدث أمام عينيه... كان يحب هذا التغيير ولكنه اقتحم النفوس.

إنــه يذكــر فــى رحلته الأولى إلى القاهرة كيف كانت الأحلام تملأ روحه. طمــوح لا يعــرف الحدود. كان يحلم أن ينتهى من دراسته ويصبح شيخًا للأزهر نفســه... إن الطموح قد وقف بأهله فهم يذهبون إلى الأزهر ثم يعودون، ابن عم جده عبد الرحيم أبو حشيش رفض أن يكون شيخًا للأزهر وعاد ليصبح معلم كتاب فــى الأقصر... لم يفكر فى الساحة كثيرًا فهى ستبقى لتراه من أكبر شيوخ مصر كلها.

ســكن فى رواق الصعايدة... وجده عالمًا غريبًا مملوءً حدة وعنفًا... لقد أصــبح مركــز الصراع بين مشايخ وجه بحرى ومشايخ وجه قبلى ولعل الصراع الــذى لــم يحــتمله هو المعارك بين مشايخ وجه قبلى ومشايخ الشراقوة. هزه العــنف. كــان عليه أن يأخذ جانبًا منه ولكنه ضاق بهذا الصراع وقرر أن يتركه كلــية؛ فانــتقل إلــى مسكن فى حى الحسين مع بعض طلبة مديرية قنا... كانت أيــام... اشــتاق للساحة وللسلام فيها، أدرك لماذا رفض عبد الرحيم أبو حشيش مشيخة الأزهر.

القاهــرة مديــنة غريــبة عليه، جنود الاحتلال الإنجليزى يملأونها. يشعر بالغربة فيها، وكأنما وطنه هو الأقصر فقط، والمشايخ يتصارعون حول المناصب، وأبــناء مصــر يــتحاربون تحت رايات لا معنى لها. سمع عن مصطفى كامل... واســتمع إليه وأحبه. كره سعد زغلول كرهًا شديدًا وهو يقدم مشروع امتياز قناة الســويس لمجلس شورى القوانين، شعر بالمهانة... ضربه عساكر الإنجليز وهو

خارج من اجتماع للحزب الوطنى. فالوردانى القاتل مسيحى مخلص لوطنه ودينه.

لم يقطع رسائله عن أهله طيلة هذه الفترة... كان يشتاق إليهم، ولكن العلم والحـياة الجديدة بما فيها من توتر تشده. لقد أصبحت جزءًا منه مما كان يخفف حـدة الشوق وكثيرًا ما كان يوقفه، كانت علاقته بابنى عم أبيه السيد يوسف أبو الحجاج وحسين حميمة. كان ينادى كلاً منهما بالعم حسب العرف وقد جمعها العلم والحـب فى وفاق كبير. والعجيب أنهم كونوا فى القاهرة فرعًا لأسرتهم، قدم نور الدين مع عمه حسين وأبو الحجاج الذى جعلاه شيخًا لهما فهو الأكبر.

وكـان الشيخ أبو الحجاج يعجب لـه كيف تداخل فى عالم القاهرة. لم يفكر طـوال خمس سنوات أن يزور الأقصر، يعيش حياته فى القاهرة وكأنه يعيش فى الأقصر. غير أن الشيخ أبو الحجاج تغيرت فكرته كثيرًا منذ صيف العام الخامس.

لقد تغير الشيخ نور الدين كثيرًا وكان الشيخ أبو الحجاج يعرف علة تغيره ويعـرف الألم الذى أصابه، ويتألم لأنه لا يعرف كيف يوقف ألمه. وحين قرر أن يسافر الشيخ نور الدين فى صيف العام السادس كان يفهم أن نور الدين يريد أن يلجأ إلى الساحة لعل بركتها تزيل ألمه.

كـان أول شـىء زاره حيـن وصل الأقصر هو الساحة والمسجد... وجد المدينة قد تغيرت كما وجد أهله قد تغيروا أيضًا. فرح أبوه وأمه به كما فرح أهله جميعًا بزيارته.

تغير كل شىء فى نور الدين، إنه فى الطريق ليكون من الكبار فى الأسرة. كـان يتكلم كلام الواثق ولا يتكلم إلا حين يُسأل، وكان قادرًا على الإقناع. لم يعد يلـبس الجلباب الأبيض وعليه البفتة السوداء، والعمامة ذات الخمسة عشر مترًا، وإنمـا ظهر لهم شيخًا يقف بينهم لابسًا قفطانه وجبته. يلبس فوق رأسه عمامة الشـيوخ؛ طربوشًـا أحمـر تلتف عليه عمامة دقيقة أنيقة، فهو الآن الشيخ نور الدين.

لـم يلعـب بالعصا ولم يركب الفرس فى المرماح فقد كان واضحًا أنه لبس دوره الجديد دور الشيخ نور الدين.

أسعد هذا التغيير الكبار وأبدى والده السعادة أمامهم على هذا التغيير، غير أنه كان يعانى ضيقًا شديدًا، شعر أن ابنه يخفى ألمًا كبيرًا... لقد أرسل له منذ عام

يـــبلغه برغبـــته فى الزواج من قاهرية... وافق على الزواج مع أنه لم يكن يحب لابـــنه أن يتزوج من فتاة غريبة، فهو يريد أن يزوجه ابنة أخيه أحمد... وها قد عـــاد إليه ابنه بالحزن بدلاً من الزوجة. أراد الأب أن يطمئن على ابنه فاقترح أن يـــزوجه رقـــية ابـــنة عمه وتم الزواج فى الساحة التى لم يفارقها منذ وصل إلى الأقصر إلا حين يذهب لأمه أو يقوم بزيارة لمريض أو زيارة شيخه الطيب، وحين قرر العودة إلى القاهرة لم يأخذها معه، فهذا اقتراح الكبار فهى صغيرة ولا تحتمل الغربة، وعلى نور الدين أن يحضر للزيارة كل صيف.

لقـــد شـــاهد بناء أول وكالة فى الأقصر، والغريب أن الذى أنشأها هو أحد أقـــربائه... أى أن الساحة لم تعد المكان الوحيد الذى يلجأ إليه الغرباء. كما رأى فـــندقا جمـــيلاً بُـــنى على طراز مختلف عن مساكنهم يحمل اسمًا أجنبيًا يسمونه ونتربالاس.

تمر أمام عينيه وجوه لناس أجانب قدموا من العالم الآخر الذى يستعمرهم. يســـميهم الأهالى سواح. حضر معهم قوم غرباء، يبحثون عن وسيلة للكسب من ورائهم. كثر المال وكثرت معه الأحلام فى الغنى وابتعد بعض الناس عن الساحة.

يســـمع طوال الصيف عن أنباء اكتشافات لمقابر قدماء المصريين فى قرية القـــرنة غـــرب الأقصـــر... تعذبه فكرة نبش المقابر، يحادث أهله وأهل مدينته. يحـــاول أن يفهمهـــم أن هذا حرام. الكثير منهم يقول إنهم كفرة وهو مقتنع أنهم ليســـوا كفـــرة فهم أهل فترة. قال لابن عمه يونس أبو أحمد الذى يكبره بخمسة عشر عامًا:

- غدًا ينبشون مقابرنا.

رد عليه يونس:

- هذا أمر الله.

وقـــف أهل القرنة ضد محاولة إخراجهم من منازلهم شجعهم، ومعه تلامذة الشـــيخ الطيـــب. نجحـــوا فـــى البقاء... سكتت الحكومة عن فكرة إخراجهم من مـــنازلهم... ولكـــن الحكومـــة، ذلك الكائن العنيد، لن تتوقف عن مضايقتهم حتى تخرجهم منها.

بدأ التغيير... ولن تكون له نهاية.

بـــاع والـــده معظم أرضه، لم يبق منها غير فدان من أرض الحجاجية فى مشايخ عطية... كبر ولم يعد يعرف ما يصنع بالأرض؛ فأخذ يبيعها قيراطًا ليطعم أهل الله من نزلاء الساحة.

وحيـــن عـــاد إلـــى القاهرة كان عليه أن يقوم بدور آخر؛ أن يتاجر ليرسل لوالـــده نقـــودًا ليقوم بإطعام أهل الله، أخذ يتاجر فى الشاى والبن، إنه يذكر هذه الأيام كانت أيام رخاء، امتلك فيها العلم والمال.

وعندما انتهى من دراسته فى الأزهر لم يفكر فى البقاء فى القاهرة؛ لم يعد يـــريد أن يكـــون شـــيخًا فى الأزهر أو للأزهر، إنه يريد أن يعود إلى مهده، إلى الســـاحة حيث السلام والطمأنينة. وحين وصل إلى الأقصر كان عليه أن يقيم بيتًا لزوجته ولأبنائه الثلاثة فقد أنجبت زوجته مخيمر وابنتين.

كان عامه الأول فى الأقصر بعد عودته من القاهرة قاسيًا فقد ماتت زوجته ومـــات ابـــنه مخيمر فقبلَ أن يُدَرِّسَ فى مدرسة الأقباط فى قنا. وهناك تزوج أم أبنائه التى خلفت له ستة أولاد وبنتين.

لـــم يكـــن بقـــاؤه فى قنا مريحًا. يريد أن يعود إلى الأقصر فأقنع الجمعية الخـــيرية القبطـــية بإنشاء مدرسة فى الأقصر وكان افتتاحها حدثًا عظيمًا. اشترط على الجمعية أن تمنح المجانية لأبناء المسلمين الفقراء. والحقيقة أن الجمعية لم ترفض له طلبًا.

كان يشد أبناء الأقصر إلى المدرسة تارة بالترغيب وتارة بالقوة. فالمستقبل للعلـــم. ولكن الأهالى لا يفهمون ذلك. غير أنه كثيرًا ما حقق نجاحًا يراه الآن فى عيون تلامذته الذين يجلونه فى صمت إجلالاً كبيرًا.

خـــرج من المدرسة متجهًا إلى الساحة فوجد أعدادًا غفيرة من السياح على عربات تتزاحم فى طريقها إلى شارع النيل. لم ير مثل هذه الأعداد من قبل.

نظر ناحية الشط فوجد هذا التزاحم يتمركز بجوار المعدية المواجهة للناحية الشـــمالية للســـاحة... فجماعة السواح فى طريقها إلى الغرب. نظر إلى ابن عمه الكبـــير الشيخ يونس أبو أحمد وسأله عن هذا الجمع الغفير الذى لم ير مثله فى الأقصر. حرك الشيخ يونس سبحته وهو يقول:

- انهارده افتتاح مقبرة توت عنخ آمون، العالم كله هنا.

رد الشيخ نور الدين:

- لاحول ولا قوة إلا بالله... لا بد أنهم سينقلون الجثمان إلى المتحف فى القاهرة... علشان تكون فرجة بفلوس.

شعر بضيق... ترك الساحة... مشى حتى وصل إلى الجبانة القديمة، نظر إليها... أصابته الرعشة وهو يفكر، ربما يكون مصيرها مصير مقبرة توت عنخ آمون. عندما تستقل مصر ويخرج الإنجليز لن يعبث أحد برفات أجدادنا.

إنه يذكر الحدث الهام الكبير فى حياته وحياة مصر كلها فقد اعتقلت السلطات الإنجليزية سعد زغلول باشا واهتزت مصر لهذا الاعتقال. قام مع صديقه الشاعر الشيخ محمد موسى الاقصرى يحركان إقليم قنا للثورة. اهتزت قوة إنجلترا فى القاهرة فأرسلوا طلبًا للقبض عليه. هرب إلى نجوع مديريته يحض الناس على الثورة ويقاوم الإنجليز... كانت أيام... تحول كرهه لسعد زغلول باشا إلى حب شديد... نجحت الثورة وكون وصاحبه محمد موسى الجماعة الوفدية فى المحافظة.

وقف الإقليم كله معه ضد الإنجليز وحكومتهم... الموقف الآن مختلف، ليست هذه مشكلة الإقليم... إنها مشكلة الأقصر، مشكلة أسرته، من يدرى ربما لا تكون مشكلة أحد سواه. هى فعلاً مشكلته.

مقاومة الإنجليز ربما تكون أيسر من مقاومته لعبد الناصر. لقد هد أشياءً كثيرة ولم يتكلم أحد... حتى حين ضرب الوفد وحَلَّهُ صمتت الجماعة الوفدية فى الأقصر صمتًا تامًا.

مشاعر متضاربة يكنها لعبد الناصر، يحبه ويهتز لسماع صوته وفى الوقت نفسه ينقده... يرى فيه أملاً كبيرًا لمصر ويخشى على مصر من قوته... الخيوط كلها بيده... لو توقف لتوقفت مصر... لو سكت لحظة لانهد بناؤها... لقد أعاد إليه حماس الشباب وهو يستمع إلى خطابه وهو يؤمم قناة السويس... مصر كلها وقفت معه... كان يتمنى أن يجمع الناس بعد حرب السويس... ولكنه لم يصنع شيئًا. قدم لهم الاتحاد القومى... بلا رصيد من ماضٍ أو تاريخ... مجموعات من الرجال لا ترابط بينهم، كل منهم له سببه الخاص الذى من أجله التحق بالاتحاد...

آه عــبد الناصر... كان يمكن أن يبنى مصر بناءً أعظم من ذلك... ولو ثار اليوم من أجل الساحة فستهتز القوى الحاكمة.... وسيهدمون الساحة ويهدمونهم. لماذا يا عبد الناصر تقتل فى الناس روح التمرد...؟

الســاحة ذلــك الكائــن العزيز... الجلسة فى داخلها... الجلسة على الكنبة ونســائم النــيل تهب عليهم. فنجان القهوة بعد العصر مع الأهل... زوار الساحة وأحــبابها... كــل هــذا سيضــيع... لقد كانوا يشاهدون هلال رمضان وهلال ذا القعدة... كثيرًا ما شاهدوه قبل أية مدينة أخرى.

والنــيل ذلك المخلوق الخرافى الذى لا يعرف كنهه... القادم منحة من الله يمتد قرب الساحة يجرى قويًا كأنه من العماليق يحفر الأرض... يغنى ويصمت... يعلــو ويــنخفض صــورة لا تتبدل تعيش مع الأزل... شراع يسير نحو الساحة وشــراع يبــتعد عنها... لا شك أنه من الجنة وإن قالوا إنه قادم من الجنوب من كينيا أو الحبشة... أسباب، فلكل شىء سبب، ولكن الحقيقة فوق السبب، إنه قادم مــن هــناك من الأزل حيث أرواح الأجداد المقدسة تعيش لتمنح الأرض الخصب والبركة... إنه هنا دائمًا واقف ومتحرك... والجبل بألوانه اللازوردية تنعكس على النــيل؛ فتارة هو فى لون السماء وتارة فى لون الجبل... والشمس تلقى قرصها لتخــتفى فــى أحضــان الصخور الحية قبل أن تصنع الغسق، يقف مع أبناء عمه يضــبطون ســاعاتهم على مغيبها وهم يراقبونه فى متعة مَنْ يعرف سر الجمال الإلهــى القــادم مــن قدرته الخلاقة على الإبداع المتجدد الذى لا ينتهى... وحين يختفى قرص الشمس يعيدون النظر إلى مياه النيل التى تأخذ فى احمرار وكأنما لم تختف بعد شمس النهار، إنهم ينتظرون قليلاً ليأخذوا فى صلاتهم لذلك الإله العظيم صانع الجمال.

٥

كـــان يومـًــا عصـــبيًا على الشيخ نور الدين. أراد أن يخفف من حدته على نفسه. أخذ فى قراءة الورد الذى أخذه عن الشيخ الطيب. فقد كان مفتى الطريق، ثـــم أخذ الإذن من شيخه بالتوقف عن مجالس الذكر ليقوم هو بمفرده بأدائها. لقد كان يجد متعة فى أداء ورده بمفرده. إنها تحول العلاقة بينه وبين الله إلى علاقة شخصـــية لا يـــتخللها وسيط. وحين دق الباب كان الطارق الحاج خليل المقاول، أدخله غرفة الجلوس واستمر فى أداء ورده فالحاج يريده لأمر، إن كان هامًا عليه أن ينـــتظر فلـــيس هناك أهم من أن ينتهى الشيخ من ورده دون أن تتدخل الحياة الدنيا لتلهيه عن حق الله.

انتهى الشيخ من ورده وأقبل على الحاج خليل يحييه:

- الساعة متأخرة يا حاج... فيه حاجة مهمة متستناش لبكره.

وقبل أن يرد الحاج خليل. دق الباب فقام الشيخ ليفتح فإذا به الحاج حسان المقاول ومعه المقدس نظير.

أدخلهما الشيخ وهو متأفف. وابتسم.

- إيه حد قال لكم إن إحنا حنبنى بيت.

صـــمت الشيخ وصمتوا معه، وبعدها قام الشيخ لينادى على زوجته لتصنع لهم شايًا. وعاد إلى جلسته ولم يتكلم.

استجمع خليل شجاعته فى مواجهة الشيخ:

- إحنا جايين يا سيدنا نشترى تراب الجبانة.
- هوه تراب الجبانة بيتباع... ده تراب بشر من الأرض وإلى الأرض.
- أصلوا إحنا عاوزين نعمله أماين طوب.
- ســـبحان الله اتنيـــن حجـــاج وواحد مقدس. إيه اللى جمع الشامى على المغربى، أماين طوب! ومين يملك يبيع تراب الجبانة؟

- انت...
- إزاى...؟ وحنوزع الفلوس دى على الورثة يا أولاد الشياطين؟
- لأ نديهم للفقرا والمساكين.
- نديهم تمن تراب أجدادنا.
- ده تراب.
- تـــراب عندك انت... دى أجساد اتحللت، رجعت لأصولها الأولى. وبعد كده اقفلوا يا أبالسة الموضوع ده، حجاج ومقدسين إيه؟ انتوا حتمشوا من هنا من غير متشربوا الشاى.
- بتطردنا يا شيخ نور الدين!
- أنـــا بايـــن علـــىَّ مربتكمش يا أبالسة... لو بكره لقيت واحد منكم فى الجـــبانة مش حيعرف إيه اللى يحصل له؟ ولو لقيت أى عربية تخصكم أنا بنفسى حكون عدو ليكم. يللا مع السلامة.

نظـــر الرجال بعضهم إلى بعض فى حيرة، لقد أشعرهم الشيخ أنهم يرتكبون عمـــلاً من أعمال جهنم ولا يدرون هل يغضبون من الشيخ أم يعتذرون لـــه. وهم يعـــرفون أن غضـــبهم ســـيواجه مـــنه بحدة قد تجعلهم سبة المدينة كلها فآثروا الاعتذار.

- إحنا آسفين يا شيخ نور الدين مكناش فاهمين سامحنا...

أمسك الرجال الثلاثة يد الشيخ وأخذوا فى تقبيلها وهو يسحب يده من بين أيديهم.

- اقعد مكانك أنت وهوه أو امشوا.
- لأ حنشرب الشاى ده بركة.

وجلسوا صامتين حتى انتهوا من شرب الشاى، ثم خرجوا.

نـــادى الشـــيخ جاره صديق وطلب إليه أن يذهب إلى أحمد أبو محمد شرق السكة الحديد ويطلب منه أن يأتى لمقابلة عمه حالاً. وعليه ألا يعود إلا به.

لم تمض دقائق على ذهاب صديق حتى سمع الشيخ طرقا على الباب، فتحه فـــإذا بابـــن ابـــن عمه أحمد أبو محمد يقف أمام الباب. قبل يد عمه ودخل معه الحجرة.

كان أحمد مهمومًا... نظر إليه الشيخ...

- أنا بعت لك رسول علشان تيجى وأهو انت هنا... شكلك متضايق.. فيه حاجة يا أحمد؟
- يابا الشيخ أخويا دياب بعت تلغراف بيقول إنه جاى دلوقت وأنا رايح ع المحطـة أستقبله... وأنا خايف من زيارته دى... باين ناوى يبيع ربع الفـدان اللى فاضل فى مشايخ عطية ودى أرض بركة مش للبيع، دى آخـر إرث الشيخ أبو الحجاج. وياريت المسألة تقف عند كده أنا خايف يكـون ناوى يعرض نصيبه فى البيت للبيع وأنا ممعايش فلوس أشترى مـنه. الفيضـان السـنة دى بشـايره مبنتش. والسواقى خفت ميتها، لعارفيـن نسـقى أرض ولا نروى زرع. السنة دى سنة تحاريق. يعنى ياعـالم حنعمل إيه ونجيب فلوس منين... نوكل العيال ولا ندى دياب. والمشـكلة إن أمـى بتحبه... لو طلب منها إن إحنا نترمى فى الشارع علشان راحته توافق وبدون زعل مش عاوز أتكلم معاها فى دياب لأنى مش عاوز آخد غضبها.

صمت الشيخ فهو يعرف أن دياب عزيز عليها وأنها لا تحب شيئًا قدر حبها لـه، ولكـن عندما تصل به أنانيته إلى حد بيع البيت لا يظن الشيخ أنها توافق. وسـواء وافقت أو لم توافق فإن لـه نصيب أبيه، ومواجهة دياب فى حاجة إلى حكمة ولا سيما أن أخاه أحمد نفسه لا يستطيع أن يواجهه بما يشعر.

قطع الشيخ الصمت:

- خلـيها علـى الله يا أحمد، بكره تتعدل ومتشيلش هم... إذا فاتحك فى شىء قل له الأمر مع عمك وسيبنى أتصرف معاه.

استراح أحمد لكلام الشيخ فقد ألقى عن كاهله حمل مواجهة دياب واستراح أن يتحمل الشيخ مسئولية حل مشكلته معه.

أستأذن يابا الشيخ أصلى رايح المحطة علشان دياب يلاقينى هناك أحسن لو مالقانيش حيغضب ويظن حاجة كده ولا كده.

- أنـا بعـت صدِّيق لأنى عاوزك بكره الصبح تيجى بدرى الجبانة ومعاك حماريـن... وكـام عربـية كـارو وتقول للفلاحين اللى جارك يجيبوا حميرهم علشان ينقلوا تراب الجبانة ويدوروه فى أرضهم.

- أنا حقوم دلوقت أروح المحطة لحسن القطر على وصول.
- إوعى تنسى... لحسن أنا مش عارف حننقل تراب الجبانة ده إزاى؟

خـــرج أحمـــد أبـــو محمد وعاد الشيخ إلى ورده يسبح لمالك الأرض ومن علـــيها. ولا يذكر من عالمه سوى الفيضان المتأخر الذى ينبئ بكارثة. فيدعو الله أن يعجل به.

٦

وصــل قطــار السريع إلى محطة الأقصر الساعة الواحدة والنصف متأخرًا ســاعة ونصــف، وهــذا رقم قياسى لهذا القطار فهو غالبًا ما يتأخر ساعات ولم يحــدث أن وصــل فــى موعده قط. كانت المحطة هادئة ليس فيها غير عدد من الرجال الذين جاءوا ليستقبلوا ذويهم.

عــندما تــرك محمــود القطــار وجد أباء زملائه وزميلاته على الرصيف، وبالطــبع لــم يكن بينهم والده، فلم يحدث مرة واحدة أن ودعه والده أو استقبله علــى المحطة، ولم يكن محمود يريد من والده أن يصنع ذلك فهو يعرف جيدًا أنه يقصد أن يفطمه عنه... أن يمنحه استقلاله وأن يجعله حرًا فى حركته، ولكنه هذه المرة كان يتمنى أن يكون والده مع هؤلاء الرجال، إنه فى شوق لرؤيته.

سلم محمود على آباء أصدقائه ونظر فإذا أحمد أبو محمد بين المستقبلين، شــعر بالأسى لأحمد فهو سيواجه مأزقًا مع أخيه أعانه الله على الخروج منه... حمل حقيبته وخرج إلى ميدان المحطة... كان الميدان مهملاً... الأحجار والطوب والأسمنت تملأ المكان.

فالحكومــة تريد أن تعيد بناء المحطة على الطراز الفرعونى... كان المبنى بسيطًا جميلاً ولكن الحكومة تريد محطة فخمة... تحرك وسط هذا الركام بحقيبته حــتى وصل إلى موقف عربات الحنطور... ركب إحداها، وقبل أن يسأله السائق إلى أين؟ كان محمود يقول لــه: بيت الشيخ نور الدين من فضلك... أخذت العربة طريقها جنوب المحطة فى الشارع الملاصق لها. مضى وقت طويل قبل أن يلاحظ اللافتات المعلقة فتذكر أن موعد الانتخابات قد حل... إنه لم يتابع هذه الانتخابات ولا المرشحين ولكن سير العربة فى هذا الطريق القصير عرفه بأسماء المرشحين جمــيعًا... اللافتات جميعها تحمل كلمات متقاربة. رجل الشعب... صديق الأمة... ابن الجماهير... المكافح والمناضل العصامى... صاحب التاريخ النزيه انتخبوه من

أجـل مصـلحة البلد... من أجل العزة والكرامة. ضاق بهذه الكلمات فهو يعرف هـؤلاء الرجال جميعًا. لا تحس البلدة بهم أو بوجودهم، ظهر واضحًا لـه أن أهم اسـمين مـن بيـن المرشـحين هما محمد بك عياد وعبد الرءوف بك العديسى، وكلاهما من أعيان المنطقة وأسرة كل منهما لها تاريخ طويل فى حكم البلد، ومع ذلـك يسـبق اسميهما ألقاب العصامى... المكافح... الثائر المناضل... يرشحون أنفسهم تحت اسم عبد الناصر.

نظـر إلى إحدى اللافتات باحتقار ثم توقف عن النظر وعاد ليفكر فى أبيه. ترى ماذا يصنع الآن؟ إنه يعرف أنه ليس نائمًا. ويعرف أنه ينتظره ولكن أباه لا يقول لـه كلمة تعبر عن حبه لـه. إن حبه مقرون دائمًا بالفعل.

وعليه أن يتعلم منه. إنه لا يعرف كيف؟

دفـع باب المنزل ليجد والده محتبيًا على الكنبة، يمسك محمود بيده ينهال عليها تقبيلاً فيسحب الوالد يده ويرفع رأس ابنه ليقبل جبهته ثم ينادى:

- يا أم حجاجى محمود وصل...

تحضر الأم لتقبل ابنها وتغالبها الدموع وهى تحتضنه ثم تتركه لتسخن لـه الطعـام فلقد أعدت لـه بطة سمينة... استيقظ أخوه الصغير عبد الرحيم ليشاركه طعامه. بدا على الجميع أنهم لم يدهشوا لحضوره فقد كانوا يتوقعونه. كيف عرف الشـيخ أن ابنه سيحضر اليوم؟ على محمود أن يتوقف عن الاستفسار عن كيفية معرفة أبيه لأشياء كثيرة. إنه لا يجد لها تفسيرًا، ربما يكون نور الله قد حل على عقل الشيخ حتى جعل الأشياء تبدو واضحة أمام عينيه.

قـبل أن ينـتهى محمـود من الطعام غاب والده فى النوم، ذهب مع أخيه ووالدته إلى حوش المنزل لينام فى الظل.

هبـت نسـمة هواء... خففت من حدة الحر... ارتمى على السرير الجريد الذى أعدته أخته لـه... أخذ ينظر إلى السماء يتفرس فى النجوم التى يعرفها... الـنجم القطـبى... نجوم كثيرة لا يعرف أسماءها... ينظر إلى النجم ذى الذنب. يسـتهويه هـذا النجم... يقف بمفرده مشتعلاً كأنه شهاب متوقف يضىء منطقة عريضة، على بعد منه دائرة من النجوم تبدو ضعيفة خافتة وكأنها تدور فى فلكه تسـتمد ضوءها منه... أخذت عيناه تبحثان عنه... ترى أين يقع هذا «النجم ذو

الذنب» الآن... أخذ ينظر ويمعن النظر... كانت نومته فى الصيف فى الحوش أو فـوق سـطوح منزلهم تمثل لـه متعة، كان أهمها مراقبة هذا النجم... لقد مرت عليه سنون وكبر والنجم ثابت فى مكانه، حتى حين يظهر القمر ويشع بنوره على الأفق فإن ضوءه لا يختفى ولا يضعف.

اعـتدل من نومته، أخذ يبحث عن النجم، إنه ليس فى مكانه... غيَّر اتجاه نظره... آه وجده... إنه يقف فى الغرب مضيئًا مشتعلاً... دائرة النجوم تزينه.

استمر هبوب النسيم... محمود ينظر إلى السماء، الأم قلقة لصمته وحركته المتوترة، حاولت أن تقطع الصمت:

– مر أسبوع من غير منْحس بنسمة هوا.

ثم أخذت تروى لـه أحداث عشرة أشهر كاملة منذ غيابه عن الأقصر. نظر إلـى وجـه أمه الواقع فى الضوء... جاوزت هذه المرأة الستين ومازالت تحتفظ بمعظـم أسـنانها... لم تؤثر التجاعيد على طفولة وجهها... إن علاقة أمه بأبيه تدعو إلى العجب... فبينما أبوه يبدو وقورًا عقلانيًا لا يتعب أبدًا كانت أمه ضعيفة عاطفية تتعب من أقل جهد، لا تستخدم عقلها أبدًا، تصدق كل ما يقال حولها، حتى مـا كانت تقوله النسوة من أن الشيخ نور الدين ينوى أن يتزوج من فتاة صغيرة يدفعهـا إلى البكاء، فتجعل من حياة الشيخ جحيمًا، فهى تغار عليه وتعلم أنه قادر علـى الزواج من أكثر من فتاة صغيرة فهو رجل فحل قوى... وسامته فى الكبر تفـوق وسـامته فـى صباه... لم يكن الشيخ يأبه لها كثيرًا، كان يعاملها معاملة الابـنة حـتى تتدخل غيرتها وهنا كان يصدها بعنف ويهجرها أيامًا لا يوجه لها حديثًا. كانت ابنته الصغرى منيرة تقوم بشئونه، تحاول أن تخفف حدة التوتر فى المنزل، ولم تحادثه منيرة قط فى أى أمر من أموره، وعندما كان يغضب من أمها لـم تـتدخل فى الإصلاح بينهما فهى تتضايق منها كثيرًا حين تعدد الأشياء التى تضايقها من الشيخ، ومع أن أمها تضخمها فهى لا تدعوها للضيق بل على العكس يزداد شعورها بالاعتزاز بأبيها.

كانـت أمها تتكلم كثيرًا عن رفيقة أخت الحاج ركابى... «الرجالة وحالتهم عجـب» يسمونها رفيقة. والناس، وكلامهم كثير عن الشيخ، يقولون إنها وعدت بصـيرى بمـئة جنـيه ذهبًا إذا أجلسها مع الشيخ لترى عيونه... عيون الشيخ

واسعة ممتدة فى خط مرسوم كأنها عيون خارجة من رسوم جدران معبد الأقصر القديمـــة تمتد عليها حواجب كثيفة، آه من نظرته عندما يكون غاضبًا إنها مخيفة وآه من نظرته عند هدوئه إنها تفيض لينًا ورقة وحنانًا.

بعض من الناس يقول إن بصيرى أخذ المئة جنيه، والبعض منهم يقول إنه لم يأخذ مليمًا.

ومـــع أن هـــذا حدث قبل أن يتزوج بأمها فإن هذه القصة تضايقها... إنها تعـــرف أن عـــيون الشـــيخ نور الدين أغلى من ذلك بكثير... وما أغضب الأم أن رفيقة جاءت إلى الشيخ وجلست معه فى الحجرة ساعة كاملة... طلب منها الشيخ أن تخـــرج فلمـــا خرجـــت لم تتمالك نفسها من أن تحاول الاستماع إليهما... لم تســـتطع أن تتبين ما يقولان... وبعد أن خرجت المرأة سألته عما دار بينهما من حديث فلم يجبها الشيخ واختفت عنه أيامًا لا تخرج للقائه ولا يسأل عنها.

مـــر أســـبوع علـــى هذه الحادثة تذكر لها أختها الكبرى شمس أن أمها لم تـــتوقف عن البكاء حتى سمعت أن رفيقة تابت وتزوجت وأنها تنوى أداء فريضة الحج.

التقت منيرة بها وهى صغيرة فى بيت إحدى صديقاتها وما إن عرفت رفيقة أنهـــا ابـــنة الشيخ نور الدين حتى وقفت لتحتضنها وتقبلها وهى تقول فى حنان بالغ:

- ابنة شيخى.

عادت أمها إلى الشيخ معتذرة، ولكن نار الغيرة لم تهدأ داخلها.

لا تـــدرى منـــيرة مـــا الذى يضايق والدتها؟ لقد جعل الله لكثير من الناس الهدايـــة على يدى والدها... ما العيب فى ذلك؟ ولكن هذه أمها تصر على أن ذلك يضايقها ولا تدرى كيف تسكنها وتطمئنها، والأغرب من ذلك أن والدتها تذكر بألم شـــديد مـــا يقال من أنه خطب فتاة من مصر وهو طالب بالأزهر الشريف، وأنها ماتت قبل أن يتزوجها. هند أخت الشيخ تضايقها كثيرًا حين تقول إنهم يقولون إنه تـــزوجها ولم يدخل بها. لماذا تغار أمها من هذه الحكاية القديمة؟ فهى تخشى أن يكـــون الشيخ ما زال يحبها، صحيح أنه لا يتكلم عنها أبدًا وأن الأم لم تستطع أن تسأله عنها لكن ذلك لا يعنى عندها أنه نسيها.

تتعجـــب منيرة من نفسها فحين تتكلم عن خطيبته المتوفاة تشعر بالإشفاق علـــى أبيها، لو كان ذلك صحيحًا فلابد أنه تعذب كثيرًا ولكن لا يظهر على والدها إلا الســكينة والســلام، هذه حالته الطبيعية... تكلم منيرة نفسها... «آه يابا لازم تعذبت كتير». وحين ذكرت لها أمها أن والدها سيتزوج هذه الأيام شعرت بالرغبة فـــى الثورة على أمها ولكنها كتمتها. بنت الشيخ نور الدين لا تصرخ فى أحد فما بـــالك بأمهـــا... لـــم تتمالك منيرة أن قالت لأمها بصوت حاولت أن تجعله يخرج هادئًا:

- أمه كفاية... علشان خاطرى بلاش الكلام ده.

ردت الأم بصوت باكٍ:

- طيب ابق شوفى... بكره يجيبها لك البيت.

وحيـــن أبلغتها إحدى قريباتها بأن والدها سيتزوج وأن الخبر يملأ المدينة ذعرت الفتاة مما سمعت. فهل من المعقول أن يتزوج الشيخ نور الدين وأن تدخل بيتهم امرأة غريبة...؟ صحيح أنها ستتزوج هذا الصيف من ابن عمتها ولكنها لا يمكن أن تقبل أن تشاركها وأمها فى الشيخ امرأة أخرى. تصورت أن أباها يبتعد عن أمها عن قصد، وأنه قريبًا إما أن يأتى بواحدة إلى المنزل أو يسكنها فى منزل آخر.

صرخت الفتاة:

- يا خراب بيتك يا امه.

فكرت أن ترسل خطابًا لأخيها الحاج فى أسوان ولمحمود فى القاهرة ولكن الفكرة لم تعجبها. سقطت الدموع من عينيها، هل يمكن أن يحدث ذلك!

حضر الحاج من أسوان كلمته أمه... ابتسم الحاج فهو صورة أخرى للشيخ نور الدين:

- كلام إيه ده يا امه...
- لازم تكلم أبوك وتشوف لى حل... أنا رايحة لأخويا.
- اللهم اجعله خير.
- أبوك بعيد عنى ومبيكلمنيش والناس بتقول ودّا الشبكة.
- ويا ترى دفع المهر؟

- البنت حلوة... وأبوك راجل قد الدنيا.

لـم تـتدخل منيرة فى الحديث ولكنها تمنت أن يكلم أخوها والدها فى هذا الأمر. سافر الحاج ولم يكلم والده فهو يعرفه جيدًا ويعرف والدته. إن حبها للشيخ كبير وهى تخشى عليه من النسيم...

منـيرة لـم تسـترح لتجاهل أخيها لهذا الأمر. انتظرت حتى صلى والدها العشـاء أعدت لـه الطعام، وأحضرت الطشت والإبريق ليغسل يديه، سكبت الماء فسال على ملابسه... نظر إليها فإذا بها تبكى. سألها بحنان بالغ:

- فيه إيه يا منيرة؟

ألقت الفتاة كلمتها بسرعة:

- انت صحيح حتتجوز؟

ابتسـم الشـيخ، هـذا الجو المكفهر فى المنزل سببه أنه سيتزوج... أخذ يداعبها:

- وانت إيه رأيك مش برضه أجيب لكم شابة تخدمكم أحسن أمك عجزت؟ والواحد بقه مش قادر يقعد فى البيت من غيرة أمكم الفارغة.
- أوعى يابه.
- أوعى إيه يا منيرة... أجوز... ده أنا حاموت السنة دى...

جعلـتها جملـته الأخيرة تجهش فى البكاء، تركته والندم يعذبها أنها كلمت والدها فى هذا الأمر.

رفضـت منـيرة أن تذهـب لتأتى بصينية الطعام وقالت لأمها روحى انت هاتيها... يا شيخة حرام عليك تظلمى أبويا.

وعاد السرور ثانية إلى المنزل.

قالت أمه لـه:

- اليوميـن دول أبـوك مـش عاجبنى من ساعة مجه الأمر بهد الساحة وشيلة الجبانة القديمة وهو مهموم.
- بتقولى إيه يامه يهدو الساحة ويشيلوا الجبانة خبر إيه ده.
- صحيح يابنى.

إنـــه يعــرف ما تعنى الساحة بالنسبة إلى أبيه. والجبانة التى كثيرًا ما كان يخشى الاقتراب منها... لقد عرف معنى الموت فيها. كان يلعب مع أصدقائه لعبة الاستغماية. وكانت أمه كثيرًا ما تحذره من الذهاب إلى الجبانة والسير على قدميه فوقها فإن لها حرمة، فأجداده مدفونون بها. يذكر قصة رواها أخوه الحاج لبعض أصحابه وكان يجلس معهم أن جده أحمد حين مات أخذوا جسده إلى الجبانة ليدفن بجــوار ابنه يونس وساعة الحفر سقطت الفسقية فنزل ابنه يوسف ليدفنه فوجد جثة أخيه يونس قد كشفت وتعجب أن يرى وجه أخيه كأنه مات لساعته لم يتغير شـــىء فى الجسد، كان صورة من أبيه لا يفرقه عنه إلا أن شعر رأسه وذقنه لم يشيبا كما حدث لوالده فلف الابن والأب فى كفن واحد.

لــم تسترع انتباهه هذه القصة حتى كان يختفى فى الجبانة من زملائه فى لعــبة الاستغماية، وبينما كان يجرى سقط فى فسقية، فوجد نفسه وجهًا لوجه مع جســدين يشـــبه أحدهمـــا الآخر، تسمر فى مكانه، حاول أن يبتعد عن الجسدين فاضـــطر للمسهما، نظر ثانية فإذا به أمام وجه أبيه. أخذ يصرخ، فسمعه زملاؤه الذين أخذوا ينادون على من يخرجه من الفسقية.

ذهب إلى المنزل وهو ما زال يصرخ:

- شفت أبويا ميت... شفت أبويا ميت ومعاه واحد تانى.

عاد الأب إلى المنزل ليجد ابنه فى حالة هيستيرية فأمسك برأسه بشدة وقرأ القرآن فى أذنه.

- أيوه اللى شفته ده جدك يونس وأبوه... اهدأ يا حبيبى.

قضـــى لـــيلة من الرعب وهو يرى والده ميتًا. ووالده يسهر الليل بجواره لـــيحكى لـــــه قصصـًــا كثيرة عن أهله من الأموات، ولم يهدأ إلا حين اقتنع بأن الأموات ليسوا بأموات وإنما هم أحياء يرزقون.

مـــن يومهـــا لـــم يذهب إلى الجبانة ولا يذكر أنه فكر فى زيارتها أو زيارة الجـــبانة الجديدة حتى أيام الأعياد حين كانت أمه تذهب فى الطلعة بالكعك لتفرقه علـــى الفقـــراء والمساكين رحمة على أهلها. كبر ولم يغادره هذا الإحساس الذى أحـــس بـــه فـــى صغره وهو يسقط فى الفسقية، إنه يذكر أنه شاهد فيها الفئران والســـحالى التى ما إن أحست به حتى هربت ودخلت جحورها، ومع ذلك فهو ما

زال يخشــى الفــئران والسحالى، وكثيرًا ما يسأل نفسه هل صحيح أن ما رآه هو جسد جديه يونس وأحمد أم أن ذلك كان من صنع خياله؟

تركــته أمه لينام، لكن النوم ضاع، أخذ يفكر فى الجبانة وجده وأبيه. فهذا يوم شاق ومرهق على أبيه وعلى المدينة كلها وعلى أحمد أبو محمد بالذات، ترى ماذا صنع مع أخيه؟

٧

كانت الساعة الثالثة عندما انتهى دياب أبو محمد من الطعام فى بيت أخيه، وقد جلست أمه بجواره. كانت فرحة أن ينزل ابنها فى البيت فإنه لم يبت فيه منذ أكثر من عشرين سنة، إنه لا يأتى إلى الأقصر إلا لمهمة أو مع بعض أصدقائه فينزل فى لوكاندة سافوى أو الأقصر هوتيل. هجر البيت ولم يعد يشعر أنه تربى فيه. أخذ يخجل منه ومن حياته الريفية، ولكن الحمد لله ها قد عاد إلى أصله ثانية.

لا تعرف الأم أن أحمد حاول جاهدًا أن يثنيه عن الذهاب إلى فندق.. تضرع إليه وأقسم عليه بروح أبيه وأجداده واستحلفه بالنبى وآل البيت وبحق الله عليه.

قبل على مضض وتأفف، ولكن أحمد كان سعيدًا أن يعود أخوه إلى المنزل، رأى فى ذلك بشارة خير.

وقف دياب يغتسل فخلع طاقم أسنانه، نظرت أمه إلى عدة الأسنان ثم إلى وجهه وشعره. لقد تغير كل شىء فى دياب؛ ملامحه ازدادت صرامة وازداد كبرًا، هل هو سعيد فى حياته؟ وهل يمكن أن يكون سعيدًا؟ بعد أن ترك أهله، وتابع القاهرية التى أنسته العالم. شعرت الأم لأول مرة أنها تنفر منه، إنه بعيد عنها وعن عالمها. لقد حرمت منه سنين... سنين طويلة... ترى هل جاء يعتذر؟ شعورها يقول لا... وشىء آخر فى داخلها يتمنى أن يكون نعم.

جلس دياب وقد خرج أحمد وزوجته من الحجرة ليتركاه مع أمه. نادى دياب أخاه الذى عاد ومعه الشاى:

- أنا عاوز أكلمك فى موضوع.
- خير إن شاء الله.

صمت لحظة ثم خرج صوته خشنًا جافًا:

- الأرض ونص البيت.

نظر أحمد إلى والدته التى بدأ وجهها يرتعش وقال:

- استريح دلوقت وبكره ربنا يعدلها وكل اللى تقولوا ماشى.
- أنا عاوزك تعرف إنى مش حقعد كتير، حبيع الأرض ونص البيت.

قالت المرأة بهدوء:

- بتقول إيه يا دياب؟
- سمعت يا أمه.

ردت المرأة بغضب:

- إلا قل لى ياسى دياب بيه... أيوه سى دياب بيه... انت مرحتش لوكاندة ليه...؟

رد أحمد بهدوء:

- أنا دقيت فيه يامه.
- اسكت انت يا أحمد... بقى انت مش جاى تشوفنا... تشوف أخوك اللى ربى البنات أخواتك وشايل أمه.

صرخت المرأة:

- بيت إيه يا دياب بيه اللى عاوز تبيعه... انت تخرج... انت ناسى نصيبى فيه... انت ناسى حقوقنا عليك... أبوك صرف عليك مصرفش على أخوك... أدى آخر تربيتنا فيك.
- يا أمه متزعقيش.
- مين قال إن ليك أم... والله انت ما بايت فى بيتنا وروح شوف لك لوكاندة تانية... وأنا رايحة لنور الدين يشوف لنا صرفة فيك.

كانت هذه أول مرة يرى أحمد أمه تغضب على ابنها دياب، وأول مرة يراها بهذه الحدة والصرامة. لقد هز دياب وترًا حساسًا فى قلبها حين تحدث عن بيع نصيبه فى البيت آخر شىء تتوقع أن يصل إليه ابنها. هذا كثير على نفسها... كانت تتصور أن ما يصنعه حالة طارئة سيعود بعدها إلى نفسه ولكنه دائمًا يتمادى... وهى لا تجد سببًا لتماديه.

غضب دياب من قول أمه:

- أنا خارج وأنا حر أبيع نصيبى مبعهوش انت كبرت وخرفت...
- أيوه خرفت... واتجننت، اللى ليها ابن زيك متتجننش ليه؟

حـــاول أحمد أن يهدئ أخاه فلم يفلح، بينما تركت الأم الحجرة ومضت إلى غرفتها.

أصـــر دياب على أن يأخذ حقيبته ويخرج... حملها وخرج ومعه أحمد الذى ســـرج حماره ليحمل عليه الحقيبة، ثم أخذا يسيران على الجسر بمحاذاة الترعة حتى وجدا عربة حنطور نام سائقها وقد ترك الحصان يسير دون قيادة أو توجيه، فالحصان يعرف الطريق إلى البيت، نادى دياب على العربجى الذى استيقظ:

- خذنى إلى سافوى هوتيل.
- أنا مش فاضى... مروح.

عرف أحمد العربجى فهو عم عجور:

- معلهش يا عم عجور ده الدكتور دياب إذا سمحت خده اللوكاندة.

رد عجور:

- دياب بيه... انت فين من زمان غايب... خدتك البلاد منينا.

ركب دياب العربة بينما وضع أخوه الحقيبة بجوار مقعد السائق.

- متزعلش ياخوى بكره تتعدل وحنروح كلنا للشيخ نور الدين واللى يحكم بيه يمشى، بس حيكون فى العصر اصله بكره حيهدوا الساحة ويزيلوا الجبانة.

ركـــب أحمـــد حماره وعاد إلى منزله، بينما تهديد والدته بأنها ستذهب إلى الشـــيخ نـــور الدين يرن فى أذن دياب. حاول عجور أن يزيل عنه النوم بالحديث معه ولكن دياب لم يفتح فمه بكلمة... إنه لا يدرى ما يصنع؟

كـــان يتصور الأمر سهلاً ككل مرة، ولكن يبدو أن الأمر صعب جدًا فوالدته تعلـــن غضـــبها عليه. لأول مرة أحس بالانقباض من هذا الشعور. إن زوجته فى حاجة إلى المال تريد أن تغير أثاث المنزل، وأن تعد ابنتها للزواج فقد وصلت لهذا الســـن، كـــان يتمنى أن يعطيها لمحمود ولكن زوجته قتلت هذه الفكرة فى اليوم

الأول الذى زارهم فيه بمنزلهم، وهو يعلم أن هذا مستحيل فنظرة محمود إليه فى القطار تنم عن احتقار... أرقته نظرته... فى هذا الغلام سر من أبيه، نفس نظرة الشــيخ الــتى تقول الكثير. عاد يفكر فى المال، ولكى يحصل عليه لابد أن يلتقى بأبــيه الشيخ نور الدين... إن أصعب شىء على نفسه هو لقاء الشيخ. لقد علمه الشــيخ الكثير. عجز عن حفظ القرآن فاستدعاه الشيخ وأخذ يقوم بنفسه بتعليمه، فســر له معانــيه، علمه القراءات حتى إنه حين دخل معهد قنا الدينى كان يعرف أكثر مما يعرف زملاؤه. أوصى به أساتذته فقد كانوا يكنون للشيخ قدرًا كبيرًا من الاحــترام، وحين انتهى من دراسته الثانوية بالمعهد أراد والده أن يقعده بجواره ليعمل صرافًا إلا أن الشيخ أرغم والده على أن يرسله إلى الأزهر. دخل كلية اللغة العربية، كانت أمتع جلساته فى الأقصر حين يضع المشكلات اللغوية والدينية التى واجههــا فــى قراءته أمام الشيخ فيحلها لــه وكأنما قرأها بالأمس وكأنها ليست بمشــكلات. وحيــن ذهــب إلــى أوروبا تفتح على عالم كبير. عالم من الفردية والشعور بالذات وجد لــه صدى كبيرًا فى نفسه بل تجسد فى داخله ربما أكثر مما شــاهد. وعــاد ليجد والده قد توفى فقطع جذوره مع أهله، إنه لا يريد أن يرهق بهــم وبمشــاكلهم، لا يريد أن يتقوقع كالشيخ نور الدين. آه لو عاش الشيخ نور الديــن فى القاهرة لربما أصبح شيخًا للأزهر فهو لم يشاهد بين أساتذته رجلاً فى علمه وذكائه وإخلاصه. لقد وهب الشيخ حياته للأقصر فسجنت مواهبه آه... أهل الأقصــر يلقــون بمتاعــبهم ومشاكلهم على كتفه، وعليه أن يجد حلاً لها، إنه لا يريدهم أن يصنعوا به مثلما صنعوا بالشيخ نور الدين... الرجل الوحيد من بينهم الــذى يكــن لــــه الاحترام والتبجيل... إنه يريد أن ينقذ نفسه منهم، لا يريد أن يمنحهم حياته كما فعل الشيخ. إنهم لا يكفون عن مطاردته بالنميمة وهو لا يكترث لهــم فهم مجرد كائنات تعيش لتأكل ثم تموت. لقد خطبت لــه والدته ابنة أخيها فــرفض وتصــورت والدته أنه ممتنع حتى ينتهى من دراسته وصعقت الأم حين علمت أن ابنها تزوج فى القاهرة دون أن يدعوها، لم تدر ماذا تصنع؟ وفكرت أن تزوجها لابنها أحمد فرحب بالفكرة حتى لا يحرج والدته وخاله. إنه ينظر إلى ابنة خالــه الــيوم: صحيح أنها فلاحة ولكنها احتملت إخوته وأمه وأنجبت لــه أولادًا رعــتهم خــير رعايــة ولكنها مع ذلك لا تساوى زوجته. لقد التقى بها فى لندن تــدرس الماجستير فى اللغة الإنجليزية، تعارفا وتواعدا على الزواج على أن يتم بعــد عودتهمــا إلى مصر. التقى بأهلها واستغرب فى البداية ألا يسألوه عن أهله

فهـــو لن يكون فخورًا بحضور أى منهم، وهو يعلم أيضًا أن أحدًا منهم لن يحضر لـــو استدعاه، فأسرته لا ترى كفئًا لبنت من بناتها. إنهم مملوءون كبرًا وإن بدوا قمة فى التواضع. لا يعرف سببًا لفخرهم أو سببًا لتواضعهم.

شـــدته هذه الزوجة إلى عالمها فأصبح إخوتها وأقرباؤها عالمه. كثيرًا ما كـــان يضـــيق بهـــم ولكن لا خيار لـــه فقد كان يحب زوجته. وهو فى أعماقه لا يعـــرف السبب. لقد كانت بعيدة عنه، بعد مرور عام من زواجهما لم يحدث بينهما حديـــث عميق، كانت تعطيه أوامر وعليه التنفيذ. أنجبت لـــه ابنًا وبنتين، علاقته بهـــم قوية، ولكنها ليست عميقة، ليس فيها التداخل الذى كان بينه وأبيه، يشعر بفرديتهم تشبه فرديته، هذه الفردية التى بناها على أنقاض تاريخ طويل من شبابه غير أن فرديتهم تلقائية لا معاناة فيها ربما كانت ثمرة معاناته. لم يسأله أحد من أبـــنائه عـــن أقـــربائه وإن أخذت ابنته الكبرى تسأله عن أسرتها فى الأقصر. لم يكلمهـــا كثـــيرًا فهـــو لا يشعر أنه قادر على الحديث عنهم، لقد قطع الحبال بينه وبيـــنهم بغير رجعة، وهو الآن يعود ليبيع آخر ما تبقى لـــه من تراث، ولا يدرى إن كان سيحصل من الشيخ نور الدين على شىء فهو رجل صعب عندما يشعر أنه مـــع الحق، والحق ليس مع الشيخ نور الدين ولا مع أخيه وأمه وإنما معه؛ فهذا نصـــيبه فى إرث أبيه. لن يستطيع أن يأخذ حقه غدًا؛ فالشيخ غارق فى مشكلته، هدم الساحة وإزالة الجبانة، لعله يفرغ منها فى العصر. إنه يرجو أن ينتهى الأمر قـــبل قطار التاسعة... يريد أن يرحل... لا يريد أن يبقى فى هذه المدينة أكثر من ذلك... إنه يختنق فيها.

توقف عجور أمام الفندق وقال بلهجة تظهر عدم اكتراث:

- وصلنا يا بيه.
- خد فلوسك.
- متخلى.

أخـــذ عجـــور النقود متضررًا فهو لم يكن يتصور أن يأخذ من أحمد أو من أخـــيه شـــيئًا عـــن توصيلة مثل هذه، ولكنه شعر أنه يجب أن يأخذ؛ فهذا الرجل غريب عنه وعن أحمد وعن عالمهما كله.

٨

أخــذ الدجـــاج والـــبط والأوز فـــى الجانب الأيسر من الحوش فى الحركة ومحمـــود لـــم تغفل لـــه عين، وما إن أخذ يتابع أصوات هذه الطيور حتى سمع صـــوت الباب يفتح ثم يغلق، عرف أن والده ذاهب لصلاة الصبح فقام من سريره وانـــتعل حذاءه ولم يغير جلباب نومه... فتح باب الحوش وأخذ يجرى حتى وصل إلى أبيه ثم صار خلفه بمقدار خطوة إلى أن وصلا إلى مسجد الشيخ أبو الحجاج.

دخـــل الأب مقصـــورة جده وأخذ فى قراءة القرآن حتى أذن المؤذن لصلاة الفجـــر. قـــام الشيخ بعد انتهاء الآذان بأداء صلاة الفجر، ثم صلى الصبح جماعة وبعـــد تسليم الإمام بحث محمود عن والده فلم يجده. دخل المقصورة ثم فتش فى المســـجد فلم يعثر لوالده على أثر. خرج من المسجد مسرعًا فتبين من بعد شبح والـــده لابسًـــا قفطانه وهو يتجه نحو الجبانة القديمة... أسرع محمود للحاق به، وحيـــن اســـتطاع أن يراه وسط الجبانة كان الأب ما زال يسير، يبدو أنها لم تكن هدفـــه، أخـــرج منديلاً من جيبه ثم توقف. انحنى ليملأ المنديل من تراب الجبانة واســـتمر بعدهـــا فى مشيته كان محمود يريد أن يصل إليه، ولكنه أدرك أن والده يـــريد أن يصنع شيئًا بمفرده. تابعه عن بعد حتى رآه يصل إلى شاطئ النيل عند الجميزة التى كثيرًا ما حدثته عنها أمه فهى ترتبط فى ذاكرة أهله بوفاة عمه عبد الرحيم. لم يصل عبد الرحيم إلى مرحلة المراهقة عندما كان ملء سمع وبصر أمه وأبـــيه. كـــان ذكـــيًا قويًا. كان وحيد والديه، روى لـــه أخوه الحاج أن عمه أخذ جاموسته لتستحم فى النهر عند هذه الجميزة فأخذه التيار وغرق. بكى الأب ابنه الوحـــيد. وكان الشيخ أحمد أبو شرقاوى، شيخ الصعيد فى الساحة، قد رأى آلام الأب فدعا لـــه دعوة:

- اللهـــم أجبر كسره بنور الدين أبو البركات... اصبر يا مصطفى فإن الله مع الصابرين وسيخلفك الله بمن هو خير منه. اذهب إلى بيتك.

ســـمع مصطفى يونس كلام الشيخ وذهب إلى منزله ونام مع زوجته. إنهم

يقولـــون إن عـــدد الأيـــام التى مرت منذ هذه اللحظة حتى ميلاد نور الدين تسعة أشهر كاملة لا تزيد ولا تنقص.

تذكر أم نور الدين أنها رأت وهى تحمله أن نورًا سقط على حجرها فقررت أن تسميه نور الدين، غير أنها أسمته أحمد في شهادة الميلاد الرسمية على اسم جـــده غـــير أن لقـــب نور الدين أبو البركات غلب عليه حتى إن قليلاً من الرجال بالمدينة هم الذين يعرفون أن اسمه الحقيقى أحمد .

فـــى هذا المكان الذى توفى فيه عبد الرحيم أخوه يأتى الشيخ... هذا شىء غريـــب على ابنه، فأهل المدينة يقولون إن هذا المكان من النهر مسكون بالجن، وإنه يأخذ كل عام طفلاً، ولقد عرف أطفالاً كثيرين أخذهم النهر، يقال إنهم غرقوا فى هذا المكان بالذات عند الجميزة.

نزل الشيخ إلى حافة الشط ووقف ابنه خلف الجميزة مختفيًا ينظر إلى أبيه محـــاذرًا أن يراه. أخرج الشيخ المنديل وأخذ يتلو آيات من القرآن ثم وضعه على الأرض وخلع قفطانه ووضع عمته فوق القفطان، خلع لباسه ودخل الماء ثم خلع سرواله وألقاه بعيدًا ومد يده ليمسك بالمنديل. لم ير من جسد والده سوى وجهه الأســـمر المستطيل ذى العيون القوية ويده اليسرى تضرب فى الماء. كان يتحرك فى الماء كمركب بخارى سريع حتى وصل إلى منتصف النهر فاعتدل واقفًا، يبدو أنـــه يحرك قدميه ليحتفظ بتوازنه كأنه واقف على اليابسة، وقد أخذ يستخدم كلتا يديـــه وهـــو يفتح المنديل وينثر تراب الجبانة وهو يقرأ ياسين. ثم يلقى بالمنديل ويدعو الله:

«يـــارب النـــيل... ورب الأرض... ورب البشر... ورب كل حى وجماد... ورب مـــا يعلم وما لايعلم... خفف عنا الضر... وارفع عنا البلاء... وارفع الماء لنا منة وثوابًا منك».

ثـــم أخـــذ يقفز فى الماء ويخرج منه... يبدو الجسد من بعيد كأنه السارى تمساح من تماسيح النيل... حوت يجرى يضرب فى الماء... إنه لا يتبين منه غير حركـــته، هذا أبوه يصنع ما لا يستطيع أن يصنعه شاب مثله... يتوقف عن القفز لـــيأخذ فـــى السباحة مستخدمًا كلتا يديه، يضرب الماء بقوة حتى يصل إلى الشط الآخر... ترى هل يستطيع أن يعود دون أن يستريح؟ ولكن الشيخ لم يتوقف عند

الشط الغربى بل عاد يسبح وكأنه يسابق سمك النهر... قارب يمر يمينًا وآخر يمر يسارًا ثم يختفى أبوه ولا يظهر لــه أثر فى الماء.

ماذا يصنع محمود؟ هل يصرخ...؟ هل يطلب النجدة؟ أينزل إلى النهر لينقذ والـــده؟ توقــف لحظــة وهو يرى ماء النيل يرتفع وكأنه حوض مغلق فتح عليه صنبور ماء.

قـــرر محمـــود أن يصـــرخ، وقبل أن تخرج الصرخة كان الشيخ يظهر فى منتصـــف النهر. ليقفز فيه قفزات متعددة وكأنما هو قطعة من المطاط تلقى فوق الصخر لترتفع ثم تعود لتسقط.

توقــف الشـــيخ ليأخذ فى السباحة عائدًا إلى الشط الشرقى وقد تغير شكل الماء من الزرقة إلى الحمرة. رأى جسد والده يطفو على سطح النهر وهو يضرب المـــاء بقدمـــيه ويديه ضربات القوى الواثق حتى عاد إلى الشط فرأى جسد أبيه لأول مـــرة عاريًـــا سرعان ما أخفاه الشيخ حين لبس سرواله، وأخذ يكمل لبس ملابسه والماء يتساقط عليها ليبلها بلاً خفيفًا... وابنه ينظر إليه لا يشعر أنه ينظر إلى جسد أبيه بل إلى إله فرعونى قادم من عالم اللا نهاية.

٩

حين عاد الشيخ إلى البيت كان محمود غارقا فى أفكاره مشدودًا إعجابًا بهذا الرجل – قام الشيخ فغير ملابسه، لبس الجبة والقفطان وربط الحزام على وسطه، ثم لف عمامته على الطربوش الأحمر وأخذ فى الانصراف وهو يطلب من محمود أن يقابلـــه عند الساحة ولكن محمود لم ينتظر فانطلق فى صحبة أبيه حتى وصلا إلى الساحة.

استغرب الشيخ من المنظر فقد غطى الفضاء المجاور للساحة بالناس جاءت مـــن كـــل مكـــان مـــن إقليم الأقصر، رجال من شمال الأقصر ومن جنوبها معهم حمـــيرهم بمقاطفهـــا المـــدلاة على جانبيها وجمال جاءت تأخذ من تراب الساحة والجبانة لتلقيه على الأرض المباركة. تراب الأجداد يعانق تراب أرض الأجداد... جـــاءت الرفاعية بأعلامها وطبولها يقودها الشيخ محمد عبد العزيز وتوافد كبار رجـــال قـــرى الأقصر على خيولهم المزركشة استعدادًا للعب المرماح، على أنغام الزمر البلدى. لم يكن الشيخ يريد ذلك كله؛ كان فقط يريد نقل التراب ولم يكن يود أن يجعـــل مـــن نقل أجساد أجداده فرجة لأحد... لقد ذبح القادمون الذبائح وبدأوا يقـــيمون أفرانًا للطبخ... إن على الناس أن تصنع ما تريد، وعليه أيضًا أن يصنع ما يجب عليه.

أخذ الناس فى هدم الساحة فلم يكن هناك أجراء فالأهالى يريدون أن يأخذوا البركة بصنيعهم. وصل الحفر فى حجرة الشيخ سلامة إلى ستة أمتار وليس هناك أثـــر لجـــثة. والحمير تحمل التراب وتنقله بعيدًا عن مكان الساحة، استمر الحفر مترين آخرين ولا أثر. نظر أحد الرجال إلى الشيخ نور الدين وسأله:

– نعمل إيه تانى يا سى الشيخ؟

صرخ الشيخ:

– احفر ياراجل.

إنــه متأكد أن جده يسكن هنا بل متأكد أكثر أن معه أربعين وليًا من أولياء الله الصالحين.

انــتقل خــوف الرجل إلى الناس فى الشارع المكتظ بهم فربما لا يكون فى حجرة الشيخ سلامة شىء غير التراب.

وبدأت المعاول تتحسس شيئًا. والشيخ يصرخ...

- خف ايدك انت وهو.

فخفت المعاول وأخذت تتحرك كأنها يد حنون تربت على وليدها حتى برزت الجــثة الأولى... وصرخ الرجال الله أكبر... وتعالت صرخات الناس فى الخارج: الله أكبر.

نادى الشيخ نور الدين عم أبيه الشيخ الشافعى وهو أصغر منه سنًا.

- عم الشافعى هات الأكفان...

ولــف الجســد فى كفن وهو يقرأ القرآن والناس فى الخارج تتلو البسملة بصوت مرتفع. حاول البعض أن يقترب فمنعهم الشيخ:

- لا يقربــن أحــد من هنا... فهذا سر من أسرار الله... يا أهلى الموت سر... لا تنكشفوا على الأسرار.

بدأت جثث تظهر وعظام لا حصر لها فى حجرة الشيخ سلامة.

لــف الشيخ بقية الجثث والعظام فى كفن واحد وسأل أن يرسلوا لــه عربة كارو لتحمل الأجساد، ومضى إلى الجبانة والناس يتجهون نحوه وحين اقترب من مدخلها نظر إلى الناس ورفع صوته قائلاً:

- يــا جماعــة مش عاوزين أى حد يقرب من هنا، اللى يعرف لــه ميت بس ييجى.

تقدم الشيخ عمران سيد الشقيرات ومعه بعض الرجال إلى مساكن أجدادهم كما تقدمت بيوت الحجاجية، كل منها يتجه إلى مساكن أهله، كما تقدم أهالى نجع الحمــارة والسوالم إلى مقابر أجدادهم. ووقف الشيخ وابنه مع ابن ابن عمه أبو المجــد يونــس ومعــه الشيخ الشافعى وابن أخيه شفيق عند مقبرة جديه أحمد ويونس. نظر إليهما محمود فإذا بهما كما رآهما عندما كان طفلاً، يا سبحان الله،

جمعهما والده فى كفن واحد كما جمع بقية الأجساد والعظام من المقبرة والمقابر المجاورة، وكانت الحمير تحمل التراب ووالده يبحث بين التراب عن أى شىء يدل علـــى أن حـــياة خبئت فى هذا المكان. لقد تغير وجهه واسمر قفطانه الأبيض ذو الخطوط الذهبية وتعفرت جبته، أما طربوشه الأحمر فقد أخذ لون التراب الأسود، والعمــــة بالتأكيد لم تعد بيضاء. نظر الشيخ حواليه فوجد حسان المقاول يقف مع السوالم.

- يا حسان.
- أيوه يا سيدنا الشيخ.
- أنا مش قلتلك متجيش هنا.

كان وجه حسان متغيرًا عنه بالأمس.

- ليه يا سيدنا الشيخ دول جدودى ولا مش جدودى يعنى تحرمنى ليه إنى ألـــم جـــدودى... أنا آسف على امبارح. ادع لى ربنا يغفر لى... أهى غلطة... لو انت رضيت أنا انهاردة مرضاش. يا ولداه الموت صعب... ودول جدودنا الكرام.

كان الرجل صادقا وكان صوته يعبر عن ذلك.

- فين لوريك يا حسان؟
- عند المركز.
- تقدر تجيب كام لورى؟
- اتنين واحد بتاع خليل والتانى بتاع نظير.
- خليك متمشيش من هنا إلا لما أقول لك.

كانـــت الساعة قد قاربت العاشرة وكان واضحًا أن الحفر انتهى، وقد جمعت كـــل أسرة أجساد وعظام أهلها فى كفن واحد... طلب الشيخ من حسان أن يحضر اللوريات بسرعة إلى هنا... نادى الشيخ مشايخ العائلات وسأل:

- حتعملوا إيه دلوقت؟
- البلد كلها عاوزة تحتفل بالموتى وحنحطهم فى عربيات ونلف البلد وبعد كده ندفنهم فى مدافنا.
- أولاً دول حيدفـــنوا ســـوا شقيرات وسوالم وحجاجية وأبيض أو أسود وغـــنى وفقير والمعروف وغير المعروف... عاشوا سوا وادفنوا سوا

ويـــرجعوا تـــانى ويدفنوا سوا... الشيخ أحمد النجم يوسف فتح فسقية بجـــوار مقام السيد يوسف حندفنهم فيها... وحكاية لف الشوارع بلاش مـــنها... حـــرام عليكم تخلوا موتانا فرجة... إحنا حنحطهم فى عربات لورى ونصلى عليهم فى السيد يوسف... وحندفنهم فى صمت... الشيخ أحمد النجم منتظرنا.

لـــم يستطع أحد من الموجودين حول الشيخ أن يعترض على كلامه. وحتى لو اعترض أحد فإنه لن يجد استجابة من الباقين، ولم يكن الشيخ يتوقع من أحد الاعـــتراض. رأوه يكلم ابنه محمود وهو يشير إلى فارس من بين الفرسان الذين يلعبون فى المرماح.

- هو ده ود محمد يوسف العمارى؟
- أيوه يابا ده حرز الله.

لم يكن والده قد تعرف على حرز الله، فكيف عرفه وعرف والده؟ لم يستطع أن يخفى تساؤله.

- عرفته إزاى يابا.
- الفرس اللى راكبه من ذرية فرسى القديمة روح ناديه... ييجى بسرعة.

مضى محمود لينادى حرز الله، لوى رقبته لينظر إلى والده فوجده مشغولاً فقـــد حضـــر حسان بعربته ووراءه بعربة أخرى خليل يتبعهما نظير بعربة ثالثة. أسرع محمود ليحضر حرز الله بينما كانت الأجساد تحمل فوق العربات. ركب من اســـتطاع من أهل الموتى فيها، ثم انطلقت دون توقف بين ذهول الناس الذين أخذ عددهم يتكاثر، فهم لم يتوقعوا أن تجرى العربات بأجساد أجدادهم دون أن يقيموا لها الاحتفال اللائق. صرخ بعض الموجودين:

- لأ وقفوا... العربيات مش حتمشى.

نظـــر الشيخ إلى الواقفين أمام العربة بينما حرز الله قد وصل بحصانه قرب الشيخ ومعه محمود.

- سيب الحصان يا حرز الله... وتعال انت ومحمود تروحوا مسجد السيد يوسف... الحصان حيكون هناك.

أمسك الشيخ بلجام الحصان وأخذ يوجه نظراته إلى الناس المتجمعين وإلى

الجمـــال والحمـــير التى تحمل التراب. ترك اللجام من يده ورفع يديه إلى السماء يدعـــو ربه أن يجعل فى هذا التراب خصبًا للأرض. أنزل الشيخ يديه الضارعتين وعاد ليمسك بلجام الحصان... تحركت الجمال التى تحمل محامل المشايخ وأتباع الطرق الصوفية تتعالى أصواتهم بذكر الله.

كـــان الشيخ يبدو ساهمًا إلا أنه تغير فى لحظة سريعة، رآه محمود كما رآه كـــل الموجودين يقفز على صهوة الجواد كأنه فتى فى العشرين من عمره، تحرك بالحصان ببطء ليقترب من العربات. لم يكن الشيخ فى حاجة إلى أن يرفع صوته فـــى الـــناس فقد ابتعدوا عن العربة وأخذوا ينظرون إلى الشيخ فى صمت، وكأن حدثًا جديدًا قد حدث ليغير من موقفهم هذا. وقف الشيخ بحصانه فى محاذاة عربة حسان ورفع صوته:

- امش يا حسان انت وخليل ونظير على بركة الله.

ســـارت العربات وترك الناس لها الطريق، وقد اصطفوا على الجانبين، وما إن ابتعدت عنه العربات حتى لوى حصانه فى مواجهة النيل ثم شد اللجام وضرب بطـــرفه كتف الحصان اليمنى ثم اليسرى، وأطلق اللجام فأخذ الحصان يسبح على الأرض وقبل أن يفيق الناس من تعجبهم كان الحصان يغيب عن أعينهم.

صرخ حرز الله:

- خيال... فارس مجبتهوش ولادة... ده حصانى... عمره معمل كده...

وقف محمود صامتًا سمع صوت فريد وكان يقف مع مجموعة من الأطفال:

- عاش... عاش... عاش...

رد الأطفال:

- الشيخ نور الدين.

ثم هتف طفل آخر بالهتافات الانتخابية:

- تنتخبوا مين؟

رد الأطفال وشاركهم الهتاف بعض الكبار:

- الشيخ نور الدين.

قال أحد الواقفين بجوار محمود:

- لقد انتخبه الله.

تـــرك الفرســـان السباق ولووا أعنة خيولهم نحو السيد يوسف تبعهم خلق كثـــير. وصـــلت العـــربات الثلاث إلى مسجد السيد يوسف لتجد الفرس الذى كان يركـــبه الشيخ نور الدين مربوطًا فى جذع نخلة أمام المسجد، ويبدو أن الشيخ قد أراد أن يطمئن إلى كل شىء قبل أن تصل العربات.

وقف أمام الجامع الشيخ أحمد النجم يصلى صلاة الجنازة ثم يعود المصلون بالأجساد إلى المقبرة. يهيل الشيخ نور الدين التراب – مع أعمامه وأبناء أعمامه وكثـــير من أهل البلدة – على أجساد وعظام أجداده، وهم يقرأون القرآن ويدعون الله لهـــم وللمسلمين أجمعين بالمغفرة والجنة. يلقى الشيخ بآخر حفنة من تراب يتبعها بكلمته للشيخ سلامة:

- يالله السلامة يا شيخ سلامة... الملتقى قريب.

ويغادر المكان فيجد الشيخ محمد عبد العزيز شيخ الطريقة الرفاعية أمامه:

- هذه حال الدنيا يا شيخ نور الدين.
- الدوام لله يا شيخ محمد.

يذهـــب الشـــيخ محمد عبد العزيز إلى مقبرة والده بينما يمضى الشيخ نور الديـــن عـــائدًا إلى مسجد أبو الحجاج مطأطئ الرأس حزينًا. يسير بجواره الشيخ الشـــافعى طيلة الطريق لا يقول أحدهما للآخر كلمة؛ فقد انغرس معنى الموت فى قلوبهما بعمق فأحدث الصمت. سار وراءهما محمود... غلبته مشاعر شتى فهذا الـــيوم تـــاريخ جديد فى حياته، يمده إلى أجداده وإلى أرضه وتراثه، إنه لا يشعر بذلك الحزن الذى يشعر به والده ولكنه يشعر أن شيئًا ما قد كسر فى دائرة حياته، وأن شيئًا جديدًا لابد أن يبدأ. إحساس غامض تبدأ معه الحياة كما يبدأ الموت.

وصـــل محمود إلى أطلال الساحة فوجد الشيخ نور الدين ومعه عمه الشيخ الشـــافعى ينظران إليها وقد غابا فى صمت عميق. ثم رأى والده والشيخ الشافعى يغرقان فى بكاء عميق.

١٠

كـــان فـــى نـــية الشيخ نور الدين أن يذهب إلى منزله بصحبة ابن عم أبيه الشـــيخ الشـــافعى غـــير أنهما بدلاً من أن يتجها إلى المنزل سارا مع النيل حتى اقـــتربا من الجبانة القديمة فعرجا عليها وهما لا يتوقفان عن قراءة القرآن ترحمًا على الموتى، ثم اتجها إلى أطلال الساحة... ابتعد كل منهما عن الآخر وهو ينظر إلـــى الـــبقايا... لا شك أن كلاً منهما كانت تثير شجونه أشياء مختلفة عن الآخر فكلاهمـــا كـــان غارقـــا فـــى نفسه، يعيش لحظة مع أفكاره، يسترجع ماضيه مع الساحة، وما يمثله هذا الماضى لكل منهما.

كان الشيخ نور الدين ينظر إلى الأطلال ويطيل النظر... يتمتم بكلمات، خرج صـــوته هامسًا «لقد أخذوك منى أيتها الحبيبة... ولكنها إرادة الله...» رفع عينيه فالتقـــتا بالبربة... نقل ناظريه حولها ثم تركزتا فى طاقة البربة... البعد بين هذه الطاقـــة والأرض كبـــير الآن... لقد كان لا يزيد على طوله كثيرًا... كم كانت هذه الـــبربة قريـــبة إليه. كان يحبها حبًا لا يقل عن حبه للساحة... الفرق بينها وبين الساحة أنها كانت لـــه وحده، بينما كانت الساحة للناس جميعًا. إنه يذكر أنه كان يتسلق جدرانها وهو ابن الثانية عشرة من عمره... كم كان سعيدًا وهو يرى مَنْ هم فى سنه ينظرون إليه فى إعجاب.

شـــعر يومًـــا بالرغبة فى أن يتسلقها... لم يكن هناك أحد يشاهده... توقف عند طاقة البربة... دخلها... أخذ ينظر إلى القاع وجده مظلمًا... اهتز وسقط على يديـــه فى قاعها... كانت الأرض حنونًا عليه لم يصب بأذى... هب واقفًا... امتلأ بالخوف... أخذ يرتعش فهو يعلم أن البربة مسكونة بالجن والعفاريت... استجمع نفســـه... فكر فى أن يتسلق الحائط، فوجد أن ذلك مستحيل... الحائط ناعم ليس فـــيه شقوق، يتحسسه بيديه فهو عاجز عن الرؤية... حاول ثانية، أدرك صعوبة التســـلق فالحـــائط يميل تجاهه بعكس الحائط الخارجى... استسلم لعجزه... تذكر الجـــن والعفاريت. أخذ يصرخ دون توقف «إلحقونى»... طال صراخه. لم يلحقه

أحـــد... توقف عن الصراخ... أدرك أنه سيموت إذا لم ينقذه إنسان... أخذ يفكر فى طريقة للخروج من البربة...

لا يـــدرى مـــا يصـــنع؟ أخذت عيناه تتعودان الرؤية فى الظلام. رأى الجن والعفاريت واقفة على الحائط أمامه... خاف... التصق بالحائط... نظر جواره إلى الناحية اليمنى وجدها واقفة... أدار وجهه للناحية اليسرى، أدرك الحقيقة... إنها مجـــرد صـــور... أخـــذ يمعـــن النظر فى الوجوه المحفورة على الحائط... صور لفرســـان تحارب... وأسرى، وأخرى لرجال يقفون فى وقار مبتسم... إنه يعرف هـــذه الوجـــوه... تشبه وجوه أعمامه وأبناء أعمامه... رجل عار يظهر عورته، رأس كلب... وجه قط... صورة صقر... جسد تمساح... العالم كله هنا... توقف عـــند صـــورة امرأة تحمل طفلاً بين يديها تقف وقفة ملوكية... شدته عيونها... تـــنظر إليه تناديه... أخذ يتأمل... شعر بأنه يعيش فى عالمه... وأن شيئًا يسحبه إلـــى السماء... يشده نحو قوة عليا تسيطر عليه... شعر بحب الله، حبًا بلا خوف صـــافيًا نقيًا... تحرك داخل الفناء فى البربة... أصابه يقين أن هذا المكان مقدس مـــثله مـــثل المسجد، أو الساحة... إنه مسجده هو... صنعه الله لـــه ليصلى فيه بجـــوار هذه الوجوه التى يعرفها... تذكر جده الكبير أبو الحجاج فقد بنى مسجده فـــى مثل هذا المكان... وقف وسط الفناء تصور مكان القبلة، نوى الصلاة... أخذ يرفع صوته وهو يرتل القرآن الكريم... أنهى صلاته وعاد إلى ترتيل القرآن، وجد متعة وهو يرفع صوته بالورد الذى يتلوه أهله فى كل مناسبة دينية أخذ ينشد:

تباركت ياالله ربى لك الثناء

لم يكن ينشدها وحده... إنه متأكد من ذلك فلقد تعالت أصوات أصحاب هذه الصور، خرجوا من أماكنهم... شاركوه الذكر... هذا المكان لا شك مقدس... إنه يشعر لأول مرة بمعنى الكلمات وحقيقة الإيمان... حتى الصلاة لم تعد تقليدًا تعوده عن أهله، إنه يؤديها بفهم عميق... عرف خشوع الإيمان... الوقت يمر فلا يشعر به... حل الظلام... لا يرى أحدًا ولكنه يسمع أصواتًا تذكر الله معه... لم يفكر فى الخـــروج من البربة... حين يتعب سينام مع أهله... نعم إنهم أهله... وجدهم... اكتشـــفهم... مشـــكلة الجـــوع ستُحل... هو غير جائع الآن، لا يحب أن يفكر فى الجـــوع حتى يشعر به وعلى أية حال فهى مشكلة جماعية ما يصيبه يصيبهم... ولا بد أن هنا طعامًا للجميع... سمع حركة الفئران والسحالى... تضايق أن يسكن

مســجده فئران وسحالٍ... أخذ يقرأ سورة ياسين... وصل إلى الآية «سلام قولاً من رب رحيم».

توقف فقد رأى ضوءًا يسقط من الطاقة وسمع صوتًا ينادى:

- يا نور الدين... يا نور الدين...

عرف صاحب الصوت... ابن عمه الكبير يونس أبو أحمد.

- أيوه يا شيخ يونس.
- انت هنا... إيه اللى جابك هنا؟

أدرك نــور الديــن أن أهلــه قد تغيبوه فأخذوا فى البحث عنه، ولكن كيف عرفوا أنه فى البربة؟

لم يكن نور الدين يعرف حقيقة ما حدث، لقد كان أول مَنْ لاحظ غيابه عمه أحمــد ، ســأل عنه. لم يجده، تصور أنه ذهب إلى البيت ولكنه حين عاد إليه بعد صــلاة العشاء لم يجده هناك، سأل عنه والدته التى كانت بدورها قلقة لغيابه، قال الشيخ أحمد أبو الدقون:

- لازم مع أبوه فى الزرع فى مشايخ عطية.

وقبل أن ينتهى من عبارته كان الشيخ مصطفى والد نور الدين يدخل المنزل عائدًا من الحقل دون أن يكون نور الدين معه... اهتز البيت اهتزازًا شديدًا لغياب نور الدين، سأل الشيخ أحمد أبو الدقون عنه ابنه محمد صاحب نور الدين فأجابه بأنه لا يعرف مكانه.

صرخت الأم فقال يونس الابن الكبير لأحمد أبو الدقون:

- متخافيش يا خالة... أنا حجيبو من تحت طقاطيق الأرض.

ثــم خرج ليأتى بنور الدين. كان اتجاهه بيت بصيرى العبادى صاحب نور الدين. سأل عنه أمه فأخبرته بأنه غادر المنزل منذ أكثر من ساعة. ظن يونس أن نور الدين خرج مع بصيرى. ولكن أين؟ سمع يونس صوت أخيه محمد يناديه:

- بصيرى بيحاول يركب البربة.

أسرع يونس ليرى بصيرى.

- يا ولد انزل... لتقع...

أدرك يونس أن نور الدين فى البربة.

استغيب بصيرى نور الدين، أحس بأنه لا بد أن يكون قد حاول أن يتسلق البربة فسقط فى قاعها، ولم يرد أن يبلغ أحدًا حتى لا يعاقب نور الدين، وفكر فى أن يخرجه منها بنفسه... كان يعلم أن الأمر صعب عليه ولكن المحاولة لن تضر. فالبربة خطر؛ فيها عقارب وحيات وعفاريت وجن، وحين سمع صوت الشيخ يونس تنفس الصعداء فهو لم يفش عن صديقه سرًا.

صرخ يونس:

- الواد شقى ومش حيجبها البر. أنا حجيبه وأكسر راسه علشان ميعملهاش تانى...

كان الناس قد تجمعوا حول البربة ومعهم مصابيح غازية، وقد أحضر يونس حبلاً ثم تسلق البربة حتى وصل إلى الطاقة وبعد أن نادى نور الدين ألقى إليه بحبل...

- اربط الحبل كويس فى وسطك وامسك فيه.

فكر يونس أن يضرب نور الدين بقسوة بعد أن يخرجه من البربة إلا أنه لم يصنع ذلك بل لم يقل له كلمة تأنيب... لقد سمعه يقرأ القرآن فى الخرابة... غريب نور الدين... نظر إليه... فى وجهه شىء جديد، يخرج به من البربة، يدفع يونس لاحترامه... فقال لنفسه «فى نور الدين سر... الله وحده أعلم به... كيف ينزل هذه البربة المخيفة ولا يظهر عليه الخوف».

فكر عمه الشيخ أحمد أبو الدقون أن يمسك برأسه ويقرأ له القرآن ليحصنه من الشياطين التى تسكن البربة إلا أن وجه نور الدين جعل العم يتوقف عن صنع ذلك فقد شعر أن ابن أخيه «محصن من كل شيطان رجيم». الشىء الغريب الذى يتذكره نور الدين أن أحدًا لم يقل له لا تذهب ثانية إلى البربة... يبدو أن الجميع قد أدرك أنه سيذهب إليها.

لقد فكر طويلاً فى الطريقة التى يدخل بها البربة ثم يخرج فى الوقت الذى يريد... هداه تفكيره إلى أن يأتى بحبل طويل فهو يريد أن يلتقى بأهله وصحبه يذكر الله معهم وبينهم... لن يفهم أحد هذا... لن يدرك أحد ما يحس به... فهذا سره الذى لا يجب أن يطلع عليه غير الله.

هـداه تفكيره إلى أن يأتى بحبل طويل يربطه فيما بين رأس تمثال رمسيس المجاور للبربة وتاجه، ثم يتسلق البربة ويلقى بالحبل من الطاقة وينزل به، وبعد أن يصلى ويعيش مع وجوه أهله المرسومة على الجدران يؤدى فرائض عبادته، يعـود. كان عمره خمسة عشر عامًا حين حاول ذات يوم أن يتسلق البربة كعادته حين فوجئ بشخص يمنعه من تسلقها، غفير جديد من خفراء الآثار...

- ياد ابعد.
- لأ مش باعد.
- إن مبعدتش حوديك فى داهية.

اقـترب الـرجل من نور الدين وحاول أن يدفعه بعيدًا عن البربة فإذا بنور الدين يحمل الرجل ويلقيه على الأرض. يصرخ الرجل فيأتى لنجدته عدد كبير من خفـراء المعبد. يأخذ نور الدين فى مصارعتهم فيراه بصيرى العبادى وابن عمه محمد فيأتيان لنجدته. لم يكن نور الدين فى حاجة إليهما، فقد استطاع أن يختطف عصـا أحدهـم، وأخـذ يضـرب بها الخفراء الذين عجزوا عن النيل منه. تروى الـروايات أن وجـه نور الدين قد تغير وكأنما لبس لبدة الأسد. بصيرى العبادى يحلـف بأن الخضر عليه السلام قد مسه بقوته العظمى حتى إن محمدًا وبصيرى العـبادى، وقـد جاءا لينقذاه، خافا أن يقتل نور الدين الخفراء فأخذا يمسكان به ليمـنعاه عـنهم، لكن نور الدين لم يهدأ ضرب محمد وبصيرى، قال محمد «ربنا يستر»، وستر الله فقد وصل يونس مسرعًا من الساحة ليصرخ فى نور الدين.

- إيه ده يا نور؟... انت بتشتغل عصبجى.

تسمر نور الدين فى مكانه حين سمع صوت ابن عمه الكبير:

- روح اسبقنى ع الساحة.

حـاول الشيخ يونس أن يهدئ الرجال. أخذهم إلى الساحة، فالموقف معقد جدًا لقد كسر ذراع رجل منهم، وأصاب اثنين برضوض شديدة.

هـدأ الشيخ أحمد أبو الدقون الرجال واعتذر لهم عن فعلة ابن أخيه... تألم الشيخ لما صنع نور الدين، وعندما رآه أمامه صرخ فى وجهه:

- يا نور... متى كنا أهل قتال ومشاجرة؟
- يا نور... لا تخرج أهلك عن سلامهم...
- يـا نـور... اتـق الله فـى أهلك وهم أهلك، لقد أعطاك الله القوة فلا

تستخدمها إلا فى موضعها... يا نور ما ذنب هؤلاء الناس؟

- يا نور اتق الله فى قوتك، قبل رأس الناس الذين أسأت إليهم.

كـان نور الدين مطرقا... إنهم يحرمونه من المكان المقدس الذى يخلو فيه للقـاء ربـه... وهـا هو ذا يرتكب جرمًا لم يصنعه من قبل أحد من أهله... قال لنفسه «يا الله... ماذا أصنع؟»

وهنا ارتفع صوت من خارج الساحة:

- يا نور الدين... يا نور الدين.

يعرف نور الدين الصوت جيدًا فهو صوت الشيخ الطيب. هرول إلى الخارج بينما وقف كل الرجال فى الساحة احترامًا وتقدموا ليستقبلوه وقد بُهتوا للمفاجأة.

عـندما خـرج نور الدين من باب الساحة كان الشيخ الطيب يصعد مهرولاً السـلالم المؤديـة للباب. كان يسير وسط السلالم وقد رفع يده اليمنى إلى الهواء كمـن يتحسـس حائطًـا تقوده داخل الساحة. لو أن نور الدين والموجودين فى الساحة لم يكونوا يعلمون بفقد الشيخ لبصره لما تصور ذلك إنسان.

قبل نور الدين يد الشيخ الطيب.

- شيخنا.

- يا نور الدين... يا نور الدين.

أمسـك نـور الدين بيد الشيخ الطيب وهو يدخل الساحة، تقدم عمه الشيخ أحمد أبو الدقون ليرحب بالشيخ بينما كان مستمرًا فى حديثه لنور الدين.

- يـا نور الدين... لا تبحث عن الخلوة بعيدًا عن الناس... فأنت للناس. قد يخلو العبد إلى الله وهو بين الناس. اللهم اغفر لنور الدين.

أمسـك الشـيخ أحمد أبو الدقون بيد الشيخ الطيب الأخرى - وقد أدرك أن هـناك شـيئًا لا يعلمـه بيـن هـذا الغلام والشيخ الطيب - فهو يرى ما لا يراه المبصرون.

قـبل نـور الدين يد الشيخ الطيب ولم يكلمه فى شىء، وذهب إلى الرجال ليصافحهم فوجدهم فى غير حاجة إلى مصافحته فلقد غفروا لـه.

* * *

منذ هذا اليوم أصبحت البربة جزءًا من معبد الأقصر.

بدأ الحفر داخلها ليزيلوا التراب حتى تكون صالحة للأجانب... صنعوا سورًا حولها، وصنعوا قانونًا يعاقب مخترقها...

عندما علم بأن على من يريد دخول البربة عليه أن يأتى بتصريح خاص من مصلحة الآثار، حصل على التصريح، دخلها فتألم كثيرًا... ليست هذه بربته... لم يجد أهله هناك... وجد صورًا... لقد اختفى أهله عندما حاولت مصلحة الآثار أن تكشف أسرارهم... ضاعت البربة، أخذها منه اللصوص... سرقوها.

خــرج مــن الــبربة مــنكس الــرأس ينهش الحزن قلبه... عاد ثانية إلى الساحة... رآه عمه الشيخ الشافعى... استغرب من منظره... ناداه:

- يا نور الدين... إيه فيه؟... مات لك ميت انهارده.

أطــرق نور الدين وخرج من الساحة وأخذ ينظر إلى جدار البربة وهو يكلم نفسه «نعم مات لى ميت يا عم» وأجهش فى البكاء.

لقد ضاعت منه البربة... والآن تضيع منه الساحة... أخذوا واحدة وهدموا الأخــرى مــن أجلها... راح الشيخ نور الدين فى نشيج قوى... الغريب أن عمه الشافعى كان قد بدأ البكاء معه فى نفس اللحظة.

١١

لـــم يطـــل غضب الأهالى كثيرًا لسرعة نقل رفات الأجداد دون احتفال، فقد أدركوا الموقف، وتقبلوه واستمروا فى احتفالاتهم غير أنها لم تبق طويلاً؛ فبعد أن نضجت لحوم النذور وأكلت، ذهب كل فرد إلى بيته، غير أن الأحاديث أخذت تنتقل مـــن مكـــان إلى مكان عن كرامات الأجداد، فقد ارتفع ماء النيل فجأة بشكل يدعو للدهشة ويبشر بفيضان رخى بعد تأخر وصوله. وحديث آخر يذكرونه عن الشيخ نـــور الديـــن بأن الأجداد ظهروا لـــه فى المنام وطلبوا منه أن يدفنهم فى صمت، كانـــت هـــذه هـــى أحاديث اليوم الأول... ماذا يمكن أن يقول الناس غدًا فالنساء العاقـــرات توافدن على الجبانة وعلى المقبرة الجديدة بالسيد يوسف يطفن حولها سبعًا. من يدرى ما يخفى الغد لهؤلاء النسوة... تكلم الناس فى أشياء كثيرة عن الشباب الذى يعمل فى السياحة ولم يهتم بأن يحضر ساعة إخراج الجثث، والذين حضـــروا جـــاءوا مع وفود سياحية ليروا السياح تقاليد الأقصر، وأكثر من نالت ألســـنة أهـــل الأقصر مرشحى الانتخابات فإنهم جميعًا خرجوا اليوم لزيارة القرى المجاورة، وعلموا من أهل القرى التى زاروها أن أهم رجالاتها فى زيارة للأقصر للاحتفال بنقل رفات الأجداد. والغريب أنهم تضايقوا لا لأنهم لم يحضروا لحظة نقل الـــرفات، وإنمـــا لأن فرصة الدعاية لأنفسهم بين الجماهير القادمة من الريف قد ضاعت، فمدينة الأقصر لا ثقل لها من حيث عدد الأصوات الانتخابية فمعظم الناس لا يـــثقون فـــى الانـــتخابات وفى المرشحين ومعظمهم لا يذهب ليدلى بصوته فى صـــناديق الانـــتخابات، ومـــن يدلـــى بصـــوته فإنمـــا يذهب مجاملة لمرشح من المرشـــحين، ولكـــن قوة الأقصر تكمن فى أجهزة دعايتها القوية والمؤثرة على الفلاحين الذين يفدون كل يوم لقضاء حاجاتهم فى البندر.

اســـتغل جمـــيع المرشـــحين دون استثناء خبر نقل الجبانة فطبعوا إعلانات يعدون فيها ناخبيهم بأنهم سيعملون على عدم هدم الساحة والجبانة القديمة. ولم يـــبلغ الشيخ نور الدين أحدًا بموعد هدم الساحة ونقل الجبانة ومع ذلك فقد سرى الخبر إلى القرى المجاورة ولم يصل إليهم.

عـندما ترك محمود مكانه قرب الساحة كان يرى أخاه الحاج حجاجى قادمًا من أسوان فاقترب منه وسلم عليه وأشار إلى مكان أبيه.

لقـد ابتعد محمود عن أبيه حتى لا يراه لحظة بكائه فهو لم يره قط يبكى. لابـد أن الأمـر أقـوى من كل قوته. لقد رآه فى الصباح يخرج من سماء آلهة الفراعنة والآن يجده فى ضعف عامة البشر، لكم يحبه فى قوته وفى ضعفه، ولعل والده كان أقرب الناس إلى نفسه وأحبهم ساعة بكائه، لكنه مع ذلك يكره أن يراه فى هذه الحالة. أخوه الحاج أقوى منه وأقرب إلى نفس أبيه، يعرف ذلك جيدًا ولا يضايقه فهو نفسه يحب الحاج حبًا لا يعادله إلا حبه للشيخ نور الدين.

احتضـن الحـاج والده ومسح دموعه بيده وأخذ جده الشيخ الشافعى بيده وسـار بهما بعيدًا عن آثار الساحة، وبعد أن ابتعد الشيخ نور الدين عنها اقترب محمود لينظر إلى أطلالها فوجد تمثالاً لأحد آلهة الفراعنة.

عـاد محمـود إلـى المنزل فوجده يغص بعدد غفير من الناس فكأنما مات الأجـداد الـيوم وهم يأتون للتعزية. كان مشايخ العائلات أول من وصل. جمعتهم السـاحة على حب كبير، وكأنما أدركوا أنه كما عاش أجدادهم وماتوا معًا فعليهم أيضًـا أن يعيشـوا ويموتـوا معًا. حضر الأب عبد المسيح وهو تلميذ الشيخ فى مدرسة الأقباط وكان من أشقى الطلبة، بعد أن مات والده طلب الشيخ من أهله أن يعمـدوه خلفًا لأبيه، فذهب إلى كلية الاكليريوس وعاد أهدأ نفسًا. لم ينس الشيخ نصـحه لأهلـه فهو يحب دوره الجديد ويمتلئ طموحًا فى أن يساهم فى إصلاح مجتمع الأقصر.

حضر محمد عياد ومعه مجموعة من حاشية الانتخابات وأخذ يلوم على أن أحـدًا لم يبلغه الخبر. فلم يرد عليه الشيخ فقد قدم فى نفس اللحظة منافسه عبد الـرءوف العديسى والتقى الغريمان وتصافحا، وأخذ العديسى يلوم أيضًا على أن أحـدًا لم يبلغه الخبر، لم يكن الشيخ يريدهما ولا حاشيتهما أن يبقيا أكثر من ذلك فقال كلمة تعنى النهاية:

- الفاتحة ربنا يأخذ بيدكم وينجحكم.
- قرأ الجميع الفاتحة، ثم خرج المرشحان وأتباعهما ضحك رضى سليمان
- إزاى يقروا الفاتحة بنجاح الاثنين؟

رد الشيخ نور الدين:

- النجاح مش فى الانتخابات. النجاح فى الدنيا والآخرة والله يولى من يصلح وإن كان فى سياسة الأيام دى مفيش صلاح... أهم بيضحكوا على الناس وبس... وإذا نجح زيد ولاّ عمرو متفرقش... كلهم حيبقوا لعبة فى إيد الحكومة واللى عايزاه حتعمله بنايب ومن غير نايب. ربنا يصلح الحال.

دخل عليه عمران فاستأذن الشيخ من الحاضرين فى أن يأخذه على انفراد ليقول له كلمة ودخل به حجرة أخرى فى المنزل:

- أنا عاوز أكلمك فى حسن.

غضب عمران فى البداية حين سمع الاسم فقد خمن بقية الحديث ورفع صوته معلنًا أنه لا يمكن أن يعطى ابنته لهذا الولد، لا يمكن لعمران أن يناسب خليفة. تمسك الشيخ بحلمه وهو يحادثه عن هذا اليوم وعن الأجداد الذين تحولوا إلى تراب ولم يبق منهم إلا العمل الصالح وأن هذه أنانية منه أن يحرم الولد من ابنته. طال الحوار والشيخ نور الدين لا يتوقف عن ذكر الله والجنة والنار والحرام ففعله هذا فعل الجاهلين وعندما ضيق الشيخ الخناق عليه، رد عمران:

- والناس تقول إيه يابا الشيخ؟!
- خبر إيه ياعمران هو انا مش ناس... منا برضه أبوها.

هزته الكلمة فهو يعلم أنه ليس هناك فى المدينة من يعترض على كلمة الشيخ فهو رجل الأصول فى عالمهم، قال بصوت منكسر مستسلم:

- اللى تؤمر بيه يا سيدنا الشيخ.
- عيال عمك جوه أنا حناديهم ونتكلم معاهم دلوقت وبعدها نقرا الفاتحة مع أبوها جوه.

وتم الأمر كما قال الشيخ وقرأت الفاتحة فى هذا اليوم المبارك وتبدى فى وجوه الجميع سلام لم تعرفه النفوس منذ زمن بعيد. قام الحاج بتقديم الطعام للضيوف ومعه أخوه الصغير عبد الرحيم بينما كان محمود يغط فى نوم عميق. لم يوقظه الحاج شفقة عليه فهو لم ينم طيلة هذه الليلة. وبعد أن أكل الجميع طعام الغداء شربوا الشاى وانصرفوا، رمى الشيخ جسده على كنبة فى الحجرة وغاب فى نومة الظهيرة.



١٢

استيقظ الشيخ على صوت ابنة عمه أم دياب:

- ازيك يا سى الشيخ.
- ازيك يا أم أحمد .

جلست أم دياب على السجادة المفروشة على الأرض وأم محمود تحاول أن تجلسها على كنبة فترفض؛ إنها تعطى لابن عمها حقه من الاحترام بجلوسها على الأرض.

- عرفت حصل إيه يا سيدنا الشيخ... دياب آخر الزمن جاى يبيع البيت... نـــروح إحـــنا نقعد فى الشارع... الواد ده لابنى ولا أعرفه... من يوم مـــتخرج لا مفرحنى بأبيض ولا اسود... وجاى دلوقت يبيع البيت. دى آخر تربيتى فيه!
- هدى يا بنت عمى.
- أهـــدى ازاى... أحمـــد ربى البنات... وهو أبوعيال يجيب لـــه فلوس منين؟! هوه مين يدى مين يا سى الشيخ؟
- المسألة دى ليها حل.
- حل إيه دياب راسه ناشفة. قال حيبيع البيت يعنى حيبيع البيت على كل أنا جبت دهبى وفضتى ودهب مرات أحمد وفضتها دول يساووا تمنميت جنـــيه وآدى أربعيـــن جنيه كان أحمد محوش متين جنيه وباع البقرة والجاموسة بمتين جنيه وده اللى حيلتنا مفضلش غير عفش البيت.
- طـــب هـــدى... ســـيبى الحاجات دى هنا إن شاء الله حترجع لك تانى وادخلى استريحى مع أم حجاج.

لا يـــدرى الشيخ نور الدين ما يصنع مع دياب فهو لم يجلس معه منذ مدة طويلة ولا يعرف ما برأسه لقد تغير كثيرًا وأكثر مما توقع... ترى هل يستمع إليه حيـــن يحضـــر... أم أن قلبه أقفل تمامًا، لا يفهم الشيخ كيف يحدث ذلك من رجل

حفظ القرآن؟ ابن الأزهر فى الماضى كان يمثل الخير فى بلده ويبدو أن الدنيا تغيرت، دخل الشيطان فى الأزهر وغير الأزهر. استعاذ بالله حين تذكر كلمة الشيطان قال لنفسه: مستحيل أن يدخل الشيطان باب الأزهر فإن ما بدياب شيطان إنجليزى دخل إليه فى بلادهم... ترى لو كان يعرف ما سيصنع دياب أكان يقوم بتحفيظه القرآن؟ أكان يرعاه ويشجعه؟ هذه إرادة الله ولا بد أن يعود دياب إلى أصله بحق بركة القرآن الكريم.

طرق الباب فقام عبد الرحيم ليفتحه، كانت الطارقة تريزا... أدخلها إلى حجرة والده الذى فوجئ بها... وحول المفاجأة إلى ابتسامة حنون:

- ازيك يا تريزا... حمد الله على السلامة.
- أهلاً بيك يا با الشيخ.

أرادت الفتاة أن تذكر شيئًا للشيخ عن هذا اليوم ولكنها لا تدرى ما تقول فآثرت الصمت.

- إزى الأستاذ فهمى... أنا مشفتهوش ليه مدة.
- هو ناوى يزورك المغربية.

نادى الشيخ ابنته منيرة التى جاءت وسلمت على تريزا ثم أخذتها إلى حجرتها. لم يخامر الشيخ أى شك فى أن تريزا قد جاءت للتحية، غير أن أم محمود أخذت تراودها الظنون أن تكون بينها وبين محمود علاقة... تبقى مشكلة... تريزا جميلة ومؤدبة... آه لو كانت مسلمة لخطبتها لمحمود. حدثت الشيخ بظنونها:

- يا شيخة حرام عليكى... محمود ده ابنى وأنا عارفه لو فيه حاجة بينهم ما كانتش تريزا جت هنا.

ضحك الشيخ وهو يتذكر اسم جدته الكبرى تريزا التى يقال إن الشيخ أبو الحجاج تزوجها.

- وايه فيه لو أحبها، مجدنا اتجوز تريزا برضه.
- يا سى الشيخ الدنيا غير الدنيا واللى يجوز لجدنا الكبير ميجوزلناش.
- ليه لأ... وكفاية ظنون.

سكتت الأم وذهبت لتوقظ ابنها:

- محمود... محمود...

- سيبونى أنام... أنا تعبان.
- تريزا جت.

قفز من فوق سريره... أخافتها لهفته:

- أنا خايفة يا محمود... تكون بتحبها.
- برضــه كده يا امه... لما أحب واحدة أجيبها البيت ليه، ده بيت الشيخ نور الدين.

هدأت الأم قليلاً واستراح قلبها:

- أصله يابنى الجواز المشترك بيسبب المشاكل بين الناس وبعضها.
- يا امه تريزا دى زى منيرة بالظبط صدقينى... وبلاش ظنون...

غسل وجهه ومسحه بجلبابه، اعترضت الأم على سلوكه الفلاحى:

- يا بنى استنى لما أجيب لك فوطة.
- معلهش يا ست الحبايب.

سرح شعره. خلع جلبابه وارتدى قميصه وبنطلونه. دخل حجرة أخته ليسلم على تريزا.

كانـــت أخته تصب الشاى من الإبريق لتريزا إلا أنه أخذ منها الكوب ورفعه إلى فمه، وأخته تعلق على تصرفه وكأنها تحدث نفسها بصوت مرتفع:

- هوه ده ذوق المدارس!!
- بطلـــى فلســـفة يا منيرة... تريزا شربت برميل شاى فى بيتهم هاتيلها حاجة ساقعة.
- بعت على كاكولا.
- طب اقعدى استريحى.

كـــان يتمـــنى أن يطلب من أخته أن تتركهما... ولكن هذا مستحيل... فهذه الفـــتاة التى لم تغادر منزلها منذ الثالثة عشرة من عمرها... هل تفهم؟ ولو صنع ذلك فأى نفاق يعيشه.

كان كثيرًا ما يتذكر منيرة فى الكلية كلما رأى زميلة من زميلاته، وكثيرًا ما قارن بينها وبينهن فكانت كفتها ترجح. لقد كانت ذكية العقل والفؤاد، رقيقة الروح

ومع ذلك فهى صارمة، لا تتوقف عن القراءة، وضعت قدراتها فى التفصيل. ليست هـناك أيـة امـرأة تـباريها فيه، وكثيرًا ما كانت تصمم تفصيلات جديدة لبنات شـارعها، كمـا كانت بارعة فى المطبخ حتى إن الشيخ لا يستمتع بطعام إلا من يدها، أعطاها الشيخ حبه وحنانه وكان يقول دائمًا:

- سجنا البنات فلا يجب أن نجعل سجنهن قاسيًا فليكن لهن جنة.

تمـنى كثـيرًا لو ترك أخته لتتعلم، إنها بلا شك كانت ستفوق معظم هؤلاء الزمـيلات وربما استطاعت أن تكون أستاذة... إنه يأسف لأنه ألح على والده أن يبقـيها فـى المـنزل بعد الانتهاء من شهادة إتمام الدراسة الابتدائية فى مدرسة المعـارف... والآن يريد أن يكلم تريزا فى أمر خطبتها من صليب. فكر كيف يبدأ الحديـث مـع تريزا أمام أخته، خطر لـه خاطر أن يشركها فى الأمر، حمل كوب الشاى وخرج، وطلب من منيرة أن تتبعه.

جلـس مـع أخته وقص عليها قصة صليب ورغبته فى خطبة تريزا وهو يسألها ماذا تقترح عليه أن يفعل؟ ردت الفتاة بحماس:

- كلمها بصراحة.
- المهم انت تاخدى صفى.
- بس فيه مشكلة إذا هى اقتنعت وأهلها مقتنعوش... حتعمل إيه؟
- ناخدها خطوة... خطوة.

وعادا سويًا إلى الحجرة ليجدا تريزا قد بدأ يساورها القلق... فقد خشيت أن تكون قد حضرت فى وقت غير مناسب.

- أسيبكم بعافية.

سكت محمود مبهوتًا من هذا القلق ولكن أخته تدخلت:

- طب استنى شوية فيه كلمة محمود عاوز يقولها لك.

شعرت تريزا بالارتياح للهجة الودودة التى كلمتها بها منيرة:

- بالمناسبة يا تريزا فيه أمر مهم عاوزك فيه.
- خير خوفتونى.
- صليب.

أدركت الفتاة أن حديثًا خاصًا بها وبصليب سيدور.

فردت بعدم اكتراث:

- ماله... حصل له حاجة... كان امبارح كويس...

سار محمود فى الخط الذى رسمه لكلماته وأخذ يتحدث بحماس عن صليب وشهامته ورجولته وذكائه ومستقبله وكيف إنه لو كان يحق لـــه أن يزوجه لأخته لصنع ولكنه يرى أن خير فتاة لـــه هى تريزا.

لم تقاطعه تريزا فى حديثه حتى انتهى منه:

- خلاص... خلصت كلامك... طب انت عاوزنى اعمل إيه؟
- ولا حاجة... أنا بس عاوز رأيك.
- الكلام ده كلام الكبار وأنا ماليش فيه دخل.

صرخ محمود:

- تريزا!!

ردت أخته:

- وطى صوتك هيه تريزا دى منيرة كل شويه تشخط أيوه وطى صوتك.

هذه الفتاة اللعينة لا تجد فرصة للسخرية إلا واقتنصتها.

- ما هى تريزا أختى برضه... وأنا أشخط فيكم كلكم.

تذكـــر كيف حادثته تريزا محاولة أن تبعده عن إلهام؛ لأنها لم تكن مقتنعة بها. والآن تصده حين يحاول أن يكلمها عن رجل هو أكثر الناس اقتناعًا بأنه خير من يصلح لها... سمعت الأم صرخة محمود فجاءت بسرعة:

- إيه فيه يابنى؟ مش تهدى صوتك قدام الضيوف.

أصـــيبت تريـــزا بالخجل. ردت منيرة بابتسامة لتخفف الموقف على تريزا وعلى أمها:

- أهو ابنك دايمًا كده... أى كلام عنده يبقى زعيق... أنا عارفة اتعلم إيه فى مصر؟

خرجت الأم وهى لا تعرف ماذا يحدث.

وجه محمود كلامه إلى تريزا بلهجة فيها رنة رضى:

- أنا آسف يا تريزا... كنت متصور انك حتدينى الشرف... إنى أساهم فى سعادتك وسعادة صليب... لكن ما باليد حيلة كنت متصورك أسلس من

كــده... أنا عارف إن صليب فقير... وإن أسرته متساويش أسرتك فى الغنى... لكن كنت عارف إنك أكبر من كده... لكن باين أنا غلطان.

- إيه لزوم الكلام ع الغنى والفقر والعائلات يا محمود.
- تريزا انت طبقية.

ألقــى محمــود جملته وسكت. أمالت تريزا رأسها لتضعها بين يديها، بينما كوعها يستند إلى المنضدة الصغيرة أمامها فانسكب الشاى على جلبابها.

ارتبك محمود ومنيرة تأخذ فوطة وتجرى لتعود بها مبلولة.

- حصل خير... حصل خير... باين اتحسدنا.

لا يــدرى محمــود ما يفعل، لقد قال أكثر مما يجب وتريزا حرة فى اختيار رفــيق حياتها لا يجب أن يغصبها إنسان على شىء فهى لم تقل شيئًا... إنها فقط تحاوره ليتها تكون صريحة... وتقول نعم... أو لا... طبيعى هذا صعب عليها فمع إنها تعلمت فما زالت تعيش قيود الصعيد التى لا فكاك منها.

والآن هل يبقى؟ هل يخرج؟ أنقذه صوت أخيه عبد الرحيم يناديه:

- محمود... محمود... كلم... صليب عاوزك.

خرج ليقابل صليب فوجده مع والده يسأله عن أبيه وأهله.

- يلا بينا يا صليب نخرج... أنا محتاج أخرج.

أمعــن الشيخ النظر فى وجه محمود فأدرك أن هناك شيئًا قد حدث... تمنى ألا يخرج ابنه فى هذه اللحظة.

- طب يا بنى استنى لما تشربوا الشاى.
- أصلى يابا عاوز صليب فى كلمة.

أخذت منيرة تمسح الفستان بالفوطة بينما تريزا تحاول أن تأخذها منها.

- متزعلــيش مــن أخويا محمود... هو دايمًا كده... عصبى... لكن قلبه طيب... وهو لولا مبيعزك... لولا مكلمك فى الموضوع ده.

قبل أن تنتهى منيرة من كلماتها أخذت الدموع تتساقط من عينى تريزا، ثم أخذت فى نشيج خافت عميق، أغلقت منيرة الباب... وعادت لتحتضنها محاولة أن تهدئها.

- حقك على يا تريزا... محمود غلطان أنا عارفة إنه غلطان وكلامه زى السم.

خرجت كلمات مخنوقة مع نشيج تريزا:

- لأ محمود مش غلطان.

لـم تـدر منيرة ماذا تقول أو ماذا تفعل؟ فكل كلمة تخرج منها لا تعبر عن الموقف إنها لا تفهم أبناء الجامعات... فقررت الصمت.

قاومـت تريـزا نشيجها ووضعت وجهها بين عينيها والأفكار تتضارب فى ذهـنها... أبوها... أمها... محمود. لو كان هناك رجل تتمناه زوجًا لكان محمود ولكنها مسيحية مؤمنة بدينها وتقاليدها وهو مسلم مؤمن بدينه وتقاليده. وهى لم تفكـر فيه كرجل لها، ولكم تمنته أن يكون أخاها ابن أبيها وأمها. تشعر فى هذه اللحظـة أنه فعلاً أخوها وأنه ابن أبيها وأمها... إنه فقط فاجأها بموضوع صليب الذى لم تنظر إليه كزوج. تعرف أن هناك فارقا اجتماعيًا بينها وبينه، وأن أهلها لن يقبلوا زواجه منها، وهى نفسها غير مستعدة للزواج.

آه مـن هـذا العـالم، فوارق دينية وقبلية وفوارق اجتماعية، إنها تعلم أن الشخص المناسب من الناحية الاجتماعية سيأتى، ولكن ربما لا يناسب قلبها، ولا روحها، ساعتها سترغم على قبوله.. تحركت صورة صليب أمام عينيها.

إنـه فعـلاً وسـيم ورجل يعتمد عليه... لماذا تقول لا؟ لماذا لا تترك أهلها يقولـون هذه الكلمة... من حق محمود أن يغضب ولكن ليس من حقه أن يتهمها بالطبقية فهى لم تصنع التقاليد... صنعها أناس قبلها بقرون. ووقف على حمايتها رجال ونساء أقوى منها وأشد... ما كان لها أن تأخذ كلمات محمود بعدم اكتراث. كـان علـيها أن تناقشـها بعمـق بدل هذه الخفة... إنها أول مرة تواجه بكلمة «طبقية». آه لو كان محمود مسيحيًا أو كانت هى مسلمة لتزوجته حتى لو رفض أهلها.

خـرج محمود غاضبًا وهى تريد أن تناقشه. هل هذا الأمر فى يدها؟ وماذا يريدها أن تصنع فعلاً؟ صليب إنسان ممتاز... ليس غنيًا ولكن لـه مستقبلاً كبيرًا فهـو أحسـن طالـب فى قسمه؛ إنه يصلح لأن يكون زوجًا رائعًا ومع ذلك فهى تتردد.

قـد يأتيها من لا تقبله ولا تحترمه ثم تتزوجه لأن أهلها يريدون ذلك. لماذا لا تحاول أن تكسر الحاجز الطبقى؟ ولكن كيف؟

رفعت رأسها لتنظر إلى منيرة ولكن منيرة كانت قد غادرت الحجرة لتتركها بمفردها لأفكارها. أحست بالخجل وبالاحترام لمنيرة التى تعلمت فى بيتها القواعد والأصول. كم هى حساسة هذه الفتاة.

حضرت منيرة ومعها زجاجة كوكاكولا مثلجة:

- اشربى...
- أنا عاوزة أسألك سؤال يا منيرة.
- اسألى...
- لو كنت مكانى تعملى إيه؟

سـؤال لم تكن الفتاة مؤهلة للإجابة عنه؛ فهى لن تكون مكانها أبدًا، ربما تواجهـه ابنتها إذا ذهبت إلى الجامعة. لقد كفاها أبوها مهمة الاختيار واختار لها خير الرجال ابن عمتها. لا تدرى ماذا تقول لهذه الفتاة المتعلمة التى لا تعرف ما تصنع؟ غير أن السؤال أرضى غرورها فاستجمعت ذهنها:

- دى مشكلة كبيرة... لكن لو كنت منك... كنت أفكر.
- فكرت.
- إذا اقتنعت أقول آه... وبعدين أقول لأمى.

تقـول منيرة لنفسها هذا كلام جرائد فلو أنها قالت هذه الكلمة لدفنتها أمها فى التراب، ولكن الكلام أصبح حلوًا على سمعها فاستمرت فى الحديث.

- وأفهـم أمى إنى لو متجوزتش الشـخص ده مش حجوز تانى أبدًا... أو حـاموت. إذا كانت أمك متفهمة حتقول لأبوك وإذا كان أبوك بيحبك حيوافق.
- بالبساطة دى.
- لأ مش بالبساطة دى... لازم تروح ناس وتكلم أبوك وتقنعه وبصراحة أخويا محمود لسه صغير وجايز لو راح لأبوك يقول لـه لأ... أصله ده مش كلام عيال.
- أحسـن حاجـة صـليب يكلم أبويا الشيخ وهو يكلم أبوك... جايز يقدر

يقنعه... أصله انت متعرفيش الشيخ إذا اقتنع... حيقنع أبوك بالتأكيد.

نظــرت تريزا إلى هذه الفتاة نظرة إعجاب... فقد كانت تتكلم كامرأة عجوز بثقة كبيرة ومع ذلك فالطفولة البريئة تبرز فى كل كلمة تقولها. وأطرقت برأسها ثم رفعتها لتقول لمنيرة:

- اسمعى يا منيرة لما ييجى محمود تقولى لــه كل الكلام ده لكن أنا مش حكلم أمى إلا بعد الشيخ ميكلم أبويا وأسيبك بعافية.
- مـــتقعدى شوية... ونستينا... طب استنى لما هدومك تنشف... وكمان لازم تغسلى وشك... شكلك باين عليه العياط.
- لازم أمشـــى... أنا اتأخرت لامى تقلق على. بس إذا سمحت إبعتى عبد الرحيم يجيب لى عربية حنتور توصلنى.
- حاضر.

قامت منيرة لتنادى عبد الرحيم ليحضر عربة حنتور وشعور غارق يملؤها أن هذه الفتاة خير من تصلح لأخيها محمود ولكن...

١٣

انـــتهى الشيخ نور الدين من كتابة عقد قران واحد من أهالى الأقصر حين دخلـــت عليه أم فريد بائعة العيش بابنها الصغير فريد. وقد أصابته حالة هستيرية وهو يصرخ ولا يكف عن الصراخ:

- شفت الميت بيمشى فى الجبانة... شفت ميت بيمشى فى الجبانة.

كـــان فريد قرب الجبانة حين شعر برغبة أن يقضى حاجته فدخلها، وحاول أن يجـــد مكانًـــا لا يـــراه فيه أحد، وبعد أن جلس جلسته رأى شبحًا جالسًا فوق صـــخرة... لـــم يصدق عينيه أن يكون هناك إنسان يجلس هذه الجلسة حتى رأى الشبح يتحرك، عندها قفز فريد جاريًا:

- الشبح... العفريت... الصل... ميت بيمشى فى الجبانة القديمة.

حتى وصل لأمه التى حاولت أن تهدئه فلم تفلح، فأحضرته للشيخ نور الدين الذى أخذ يقرأ لـــه آيات من القرآن الكريم، ثم صب عليه الماء، والطفل لم يسكت عن صرخاته.

رفع الشيخ صوته:

- انت أكلت يا فريد؟
- لا يابا الشيخ.
- طب قوم جوه كل وتعال تانى.

دخل فريد ليأكل وقد سكت صراخه، ولم يعد ثانية إلى الشيخ فقد أخذ يقص على عبد الرحيم قصة الشبح.

قال عبد الرحيم:

- مكلمتهوش ليه يا جبان؟

اســـترد فـــريد شجاعته، وأخذ يتحدث عن قصته على أنها مغامرة ثم خرج ليقص على الأطفال قصته مع الشبح.

* * *

كان الشيخ يتمتم حين طرق الباب «الميت الوحيد فوق جبانة الأقصر القديمة».

رفع الشيخ صوته:

– زق الباب... وادخل.

ثم اعتدل الشيخ من جلسته ليقوم ليفتح الباب، ولكنه سمع الباب يفتح وما إن عاد إلى جلسته حتى رأى دياب يدخل عليه حجرته، حاول أن يعتدل ثانية:

– أهلاً أستاذ دياب.

– استريح يابا الشيخ... استريح.

أعاده دياب إلى جلسته وهو ينحنى ليقبل يده. كانت قبلة حارة تذكر الشيخ بدياب حين كان يأتى إلى هذه الحجرة ليسمع جزءًا من القرآن. ترى أما زال دياب يحفظ القرآن أم أنه ضاع من قلبه؟

جلـــس ديـــاب صـــامتًا على كنبة فى مواجهة الشيخ. لقد كان يومًا عصيبًا عليه، وضع حياته كلها تحت حساب عسير. استيقظ فى الصباح وخرج من الفندق دون أن يتـــناول طعـــام إفطاره. خرج يلف المدينة على غير هدى... شعر بضيق شـــديد يكاد يخنقه... لأول مرة ترفع أمه صوتها عليه وتهدده، لقد كان دائمًا فى محاوراتـــه لأخيه يتصور أنه يكلم أخاه الأصغر. أما الآن فهو يواجه أمه الطيبة، ولكـــنها عنيدة، وقد تحرك عنادها. كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة حين وصل إلـــى الأرض المجـــاورة للجبانة القديمة فوجد أهل الأقصر والقرى المجاورة فى حالـــة حركة شديدة كأنهم فى مولد... الحمير تملأ التراب من الجبانة ثم يعود بها أصـــحابها إلـــى قـــراهم فيرى على وجوههم السلام كأنما يحملون كنزًا من كنوز الفراعـــنة... ورأى الشـــيخ نور الدين ملتفًا بطبقة من الغبار وقد اسمر كل شىء علـــيه، يحرك من يحفرون ويجمعون رفات أجداده. رأى رجالاً يمسكون الفئوس ويـــزيلون الـــتراب بشـــىء من الحرص كأنهم يبحثون عن خبيئة قديمة. لم يكن يتصور قط أن يحمل هؤلاء الرجال فئوسًا أو أن يمدوا أيديهم إلى تراب.

كـــان يذهـــب إلـــى هذه الجبانة وهو طفل صغير مع أمه أيام الأعياد وهى محملـــة بالعـــيش والكعـــك لتفرقه على الفقراء والمساكين رحمة عن أجداده، ثم تتحول بعدها إلى الجبانة القديمة، داس على قدمه غلام صغير.

- آسف يا عم.

تجـــاهل الغـــلام... توقف بجواره غلام آخر ليعطيه منشورًا من منشورات المرشحين. لقد اقتنصها فرصة أتباع المرشحين ليوزعوا منشوراتهم على الناس المتجمعيـــن فـــى هذا اليوم، أمسك المنشور دون أن ينظر إليه وأخذ يتابع الغلام وهـــو يـــوزع منشـــوراته على الفلاحين الأميين. ابتسم حين رأى معظمهم يلقى المنشـــورات على الأرض، شاهد شابًا يجر حماره نحو الجبانة ومعه فأسه يمسح العـــرق بالمنشـــور. اهـــتزت نفسه وشعر بأنها تدخل عالمًا من الفراغ. أراد أن يتحرك ليبتعد عن الجبانة حين شاهد يونس عمه، وقد جاوز التسعين وقد ضعف بصره، وهو يسير نحو الجبانة يقوده حفيد من أحفاده وهو ينادى:

- يا نور الدين.

تقـــدم إليه الشيخ مسرعًا وانحنى على يد ابن عمه الكبير ليقبلها كأنه طفل صغير وكأنه ليس الرجل الذى تقبل المدينة كلها يده.

- برضه متجيش تخدنى معاك.

رد الشيخ بحنان بالغ:

- محبتش أتعبك يا ابن عمى والأولاد كلهم هنا قاموا بالواجب.
- واجب إيه يا نور الدين... ده واجبى أنا قبلك وقبل أى واحد.

الشيخ يونس هو الوحيد الذى ينادى الشيخ نور الدين دون لقب، وهو يحب أن يســـتمع إلـــى اسمه منه خاليًا من أى لقب. أمسك بيد ابن عمه وقد أخذ غبار الحفر يرتفع ليغطيهما ودياب ينظر فيرى الغبار يتحول إلى هالة من نور.

هذا هو الشيخ نور الدين الذى كان يصفه دياب بأنه متقوقع، سجن مواهبه، ولم يرد أن يصنع مثلما صنع ليكرس حياته للمدينة وأهلها. إنه لا يدرك أنه ليس من بين أساتذته ولا من عرف من كبار العلماء رجل حقق نفسه مثلما حقق الشيخ نفسه، وليس هناك رجل استطاع أن يحصل على السلام النفسى والسعادة الحقيقية كمـــا حصـــل عليها الشيخ نور الدين. ازداد ضيقًا وهو يصل إلى هذه الحقيقة فقد

ردته إلى نفسه، فتنبه إلى الضياع والوحدة اللذين عاش فيهما طيلة عمره منذ أن غـادر المدينة. ليته ما غادرها. حياة كلوح الثلج مع زوج تذكره الآن بالصحراء الموحشـة. إنها لم تشعر قط به. ولم تحاول أن تهتم ببيئته وعالمه. ولم تعرهما انتـباهًا ولقـد ساعدها على ذلك. فلقد كان أرضًا صالحة ليتقبل غرورها وغرور أسرتها ليواجه به أهله... فلم يكترثوا به... نظر إلى حلقة الذكر المجاورة لـه... نقـل قدميه ليبتعد عن هذا العالم فهو ليس عالمه. تذكر أمه وأخاه، وزوجته التى تريد أن تغير الأثاث الذى لم يمض عليه أربع سنوات إلى أثاث جديد وعليه هو أن يحارب أهله جميعًا من أجل هذا الأثاث. وجد نفسه أمام مسجد السيد يوسف، فكر فـى أن يدخل ويزور قبر جده. التفت إلى الباب فوجد السيد أحمد النجم بن السيد يوسف، استحى منه. شعر برهبة، فلم يتوقف ليسلم عليه... استدار ليدخل أرض الكـرنك القديمـة... وجـد نفسه أمام منزل أخته، إنه يعرف بيتها فهو بيت ابن خالته. لم يزر أخته قط منذ أن تزوجت كما أنه لم يرها قبل أن تتزوج ولم يساهم فى تجهيزها.

طـرق الباب، فتح لـه غلام فى السابعة عشرة من عمره سأل عن حسين زوج أخته. رد عليه الولد:

- مش موجود... اتفضل تلزم أى خدمة؟
- انت مين يا بنى.
- أنا مرعى ابنه.

نظـر إلـى الغلام... احتقر نفسه... ابن أخته فى السابعة عشرة من عمره وهو لم يره... لم يعرفه... لم يتبينه...

الولد ينظر إليه فى دهشة:

- أى خدمة يا عمى... تيجى الديوان، عمامى هناك.

لم يستطع دياب أن يقول لـه كلمة سلام... توقف واستطاع أخيرًا أن ينتزع بعض الكلمات خرجت مبحوحة.

- أمك موجودة... نادى أمك.

اسـتغرب الولـد أن يطلب رجل الحديث إلى أمه، وهو ليس من أهل الحى، وهندامه الأنيق، وإن تغبر، يشير إلى أنه ليس من أهل الأقصر، نظر الولد بإمعان ثم خرج.

- يامه فيه واحد عاوزك.
- كانت الأم تخبز حين نظرت إلى الباب، وارتفع صوتها فى دهشة وفرح:
- مين أخويا؟
- دخل ياواد خالك.

شـــىء غريب أن يلتقى الخال بابن أخته لأول مرة فلا يكون بينهما ترحاب؛ فالابن لا يعرف ما يصنع والخال فى حالة من الصمت والوجوم.

حضرت أخته بعد أن غسلت يديها ومسحتها لتحتضن أخاها.

- ازيك يا أخوى.

وانفجرت فى البكاء.

- متعيطيش... بلاش تعيطى... ليه تعيطى.
- لم يجد ما يقوله أكثر من ذلك.
- أنـــا بعيط من الفرح... قوم ياواد يامرعى بوس إيد خالك وانده اخواتك ييجوا يسلموا على خالهم، ده يوم عيد.

«هكذا تدخل على أختك بعد هذا العمر بيد خاوية» حدث نفسه بأسى.

حضـــر الأولاد كانوا خمسة وثلاث بنات. أخته لم تبلغ الأربعين ومعها هذا العــدد الكبـــير من العيال. ذكرت لـــه أسماءهم لم يستطع اسم واحد أن يبقى فى ذاكرته، غير اسم ابنها الصغير دياب لقد أسمته على اسمه آه ابتعد كثيرًا عنهم.

أخـــذت أخته تحادثه عن زوجها وأولادها والروماتيزم الذى بدأ يتسلل إلى ظهرها ثم قطعت شكواها لتسأل:

- وانت ازيك وازى الولاد وأمهم... ده يوم عيد؟

لـــم توجه لـــه كلمة عتاب واحدة. تمنى لو تلومه على عدم زيارتها، وعدم السؤال عنها. إنها تمامًا كأمه تتكلم فى كل شىء إلا ما يجرح وما يرهق داخلها. إن نساء أهله متشابهات كالشجر... كل شجرة تمنح فرعها نفس خصائصها وهى خصائص لا تختفى، تمتد جذورها عبر آلاف السنين من النمو والخصب.

شـــرب الشـــاى. شعر بأنه يريد أن يمضى بعيدًا، وأخته تصر على بقائه،

فابنـــتها لـــيلى ذبحت ذكرًا من البط، ولا بد أن يبقى ليأكل من طبيخ أخته، ولكنه اعتذر ووعد أن يعود ثانية وهو لا يعرف إن كان صادقا فى وعده أم لا.

خـــرج من المنزل بصحبة مرعى ثم طلب منه أن يعود إلى أمه، وسار فى طـــريقه كأنه يجرى فوجد نفسه بجوار الجبانة الجديدة فدخلها، وسار حيث وصل إلـــى قـــبر أبيه. لم يزر قبر والده غير مرة واحدة حين عاد من لندن... أخذ يقرأ الفاتحـــة ولم يكملها حتى انفجر فى بكاء مختلط بنحيب لم يوقفه إلا أصوات زوار قادميـــن. مسح عينيه وانسحب عائدًا إلى الطريق، وجد عربة حنطور ركبها إلى الأقصر هوتيل، وهناك حاول أن ينام.

لـــم يستطع النوم فإن حملاً ثقيلاً لا يتبين ثقله يجثم على نفسه، طلب طعامًا ولكـــن رغـــبة الأكل ضاعت تمامًا، سمع آذان المغرب قادمًا من مسجد الشيخ أبو الحجـــاج. لـــبس ملابســـه وسار فى طريقه فوجد نفسه أمام الجبانة القديمة كان الظـــلام قـــد بـــدأ يحل ويخفى معالم الأشياء حين دخلها. لم تعد جبانة فغدًا يأتى مفتشـــو الآثار ليعمقوا الحفر بحثًا عن آثار جديدة ويفتحوا طريق الكباش... وجد صـــخرة لعلهـــا رأس كـــبش مـــن هذه الكباش جلس عليها... لم يعد قادرًا على التفكـــير، ولا يعرف ما يصنع، وما إن وقف ليترك المكان حتى سمع صوت طفل يصرخ:

- الشبح... العفريت... الصل... ميت بيمشى فى الجبانة القديمة.

أفـــزعه صـــوت الطفل فهو فعلاً شبح... ميت يمشى فى الجبانة القديمة... اخـــترق الجانب المقابل للنيل من الجبانة ووصل إلى أقرب كازينو مطل على باب معـــبد الأقصـــر، دخله، وجلس ثم طلب من الجرسون فنجانًا من القهوة السادة، شـــرب القهـــوة وهو يتأمل ماء النيل يلمع على ضوء الهلال الخافت. منظر رآه آلاف المـــرات ولكـــنه يشعر أنه يراه لأول مرة. فقد غاب عنه أكثر من عشرين عامًـــا. تـــرك الكازينو بعد أن دفع الحساب للجرسون. وقرر أن يتوجه إلى منزل عمه الشيخ نور الدين، قد يواجهه الشيخ بغضب، وقد يواجهه بهدوء، وهو يرجو أن يغضب الشيخ، أن يضربه كما كان يفعل عندما كان يقصر فى حفظه للقرآن.

وها هو الآن يجلس بجوار الشيخ صامتًا والشيخ يتمتم بقراءة ورده وكأنه حـــريص ألا يسمع أحد حديثه لربه. توقف الشيخ ليقول بحنان وهو يشعر بضيق دياب:

- تعشيت يا دياب؟
- لأ يابا.
- أجيب لك عشا؟
- أنا شبعان.
- حتتعشى معايا... بعد صلاة العشا... انت متوضى... أدخل اتوضا أنا كنت حصلى فى الشيخ لكن أنا تعبان نصلى هنا جماعة.

* * *

فرغ الشيخ من صلاته وحضرت منيرة بصينية الطعام، وصفقت خارج الحجرة لتعلن أباها أنها أعدت الطعام. فجاوبها والدها:

- ادخلى يا منيرة مفيش حد غريب ده ابن عمك الأستاذ دياب... تعالى سلمى عليه.

دخلت بصينية الطعام ووضعتها على منضدة فى الحجرة وسلمت على ابن عمها فى استحياء وخرجت.

صب دياب ماء الإبريق على يدى الشيخ ليغتسل ثم صب لنفسه الماء، وجلس ليأكل ولكنه لم يستطع أن يبتلع الطعام.

- سامحنى يابا مش قادر آكل.

وجلس بعيدًا عن المائدة.

شعر الشيخ أنه لا بد أن يصنع شيئًا.

- أنا مش عارف إن كان مناسب أكلمك دلوقت ولاّ لأ. لكن الرسالة أمانة يا بنى... افتح يا دياب درج المكتب فيه صرة هاتها.

أحضر دياب الصرة كما قال لـه.

- افتح الصرة.

فتح دياب الصرة وأخذ ينظر فيها فإذا هى مصوغات من الفضة والذهب. أمعن النظر فيها فعرفها إنها مصوغات أمه وحزمة جنيهات.

- عد يابنى الجنيهات دى.

لم يعدّها دياب.

- أنـــا مـــش عاوز أقول كلام كتير... لكن إذا كنت عاوز نقول كلام كتير نقـــول... فـــى الـــنهاية انت فى رأيى من معدن طيب... ولازم المعدن الطيب يرجع لأصله... ودى فرصتك.

لم يرد الشيخ أن يكسب معه حوارًا بالمنطق والعقل فشكله يدل على أنه فى حيرة ويريد أن يساعده على اكتشاف نفسه.

- طلب منى خير الدين باشا أنى أشتغل قاضى رفضت علشان مبعدش عن أهلى. مش عيب الواحد يبعد إنما ميبعدش روحه.

دياب صامت، يتمنى أن يصمت الشيخ أو يقول شيئًا آخر.

- أنـــا لو منك آخذ الصيغة دى والفلوس وأروح لأمى... روح لها يا بنى محـــدش عارف الدنيا... لو ماتت أمك حتندم طول عمرك... ولو كنت فعلاً عاوز...

ما إن نطق الشيخ نور الدين بكلمة «عاوز» حتى وقف دياب.

- أستاذن يابا.

نظر إليه الشيخ، لا يدل شكله على أنه غاضب ولا يبدو أنه استأذن احتجاجًا على كلماته... صحيح أن قلقه قد ازداد أكثر من ذى قبل لكن هذا مفيد لـــه.

لـــم يتوقف الشيخ عن الطعام حين لمَّ دياب المصوغات والنقود وربطها فى المـــنديل كمـــا كانـــت ثـــم قام ليقبل يد الشيخ فى حرارة... رفع الشيخ يده وقام ليحتضن دياب فهو يعرف أى عذاب يعيش ويعرف الطريق التى سيذهب إليها.

خرج دياب وتوقف الشيخ عن الطعام وهو يتمتم الحمد لله... لك الحمد يارب.

* * *

أخـــذ ديـــاب طـــريقه إلى منزل أخيه شرق البلد، كان متعجلاً، ركب عربة حنطور حتى وصل إلى المزلفان وجده مغلقًا. لم يرد أن ينتظر مرور القطار. نزل من العربة بعد أن دفع النقود للعربجى.

- متخللى يابيه... انت مركبتش حاجة.

لم يقل لـــه كلمة.

تخطى باب المزلقان عابرًا شريط السكة الحديد ليأخذ طريقه وسط المزارع حتى يصل إلى الجسر، ينظر إلى الترعة التى كثيرًا ما استحم فيها هو وجاموسته.

يقـترب دياب من البيت ليجد أخاه جالسًا خارجه على كنبة فيناديه يا أحمد فيسرع إليه ويصيح بفرح:

- يامه دياب جه.

تجرى الأم لتصل إلى الباب وما إن تظهر من الباب حتى يجرى نحوها دياب ليحتضـنها. يدخـل بأمـه البيت ويلقى بالصرة فوق فروة مفروشة على الأرض ويأخذ فى البكاء.

يتعجـب أحمد أن يبكى أخوه فهو لم يره إلا صلبًا قويًا لا تعرف العواطف إلـيه سبيلاً... إن أخاه يبكى. يطلب الأخ من زوجته وأولاده أن يتركوه مع أخيه فهـو لا يريد أحدًا أن يرى أخاه فى هذه الحالة. لا تعرف الأم ماذا تصنع فانطلقت فى البكاء.

- هدى نفسك ياولدى... هدى نفسك...

يقبل دياب أمه:

- سامحينى يا امه...
- مسمحاك يابنى من بحر محيط.

كلمـة أمـه الخالدة السماح من البحر المحيط... لم يعرف أبدًا معنى كلمة الـبحر المحـيط ولكـنه يفهمهـا الآن، إنه يريد أن يغتسل ولن يصلح إلا البحر المحيط. لقد عاش فتوته فى عزلة عن أمه وعن أرضه وعن هذا العالم.

هدأ دياب قليلاً وأعطى لأمه الصرة فردت عليه:

- لأ دى ليك يابنى... أنا عارفة انك عاوز فلوس ومصاريف مصر كتيرة خليها ليك يا دياب.

رد أحمد إليه النقود:

- دى فلوسك ياخويا... ده إحنا عايشين من خيرك.
- شـيلوا الحاجـات دى... أنـا عـاوز أدخل... أنام... أنام... أنام سنة لقدام...

- سلامتك يا حبيبى... لما تاكل الأول.
- أيوه أكل أنا جعان قوى يا امه...
- الـــبطة محدش مد إيده عليها... ولا لينا نفس ناكل من امبارح... ربنا يطرح فيك البركة ويحفظك ببركة النبى وآل بيته وجدودك.

١٤

دخــل محمــود علــى والــده ومعه صليب فوجد بقية الطعام ما زالت على المنضدة... جلس ليأكل.

- تعال كل يا صليب.
- لأ شبعان.

نظر الشيخ إلى صليب:

- متاكل يا بنى... ده بيتك.
- ماليش نفس يابا الشيخ.

مــد محمــود يده إلى الطعام وقبل أن يضع لقمة فى فمه سمع صوت أخته منيرة تناديه. خرج ليعرف سبب ندائها، أبلغته بالحوار الذى دار بينها وتريزا.

لقد قضى طيلة هذا الوقت مع صليب، لم يقل لــه كلمة عما دار بينه وتريزا فقــد هيأ لــه أنها ترفض. وظل منقبضًا طيلة هذا الوقت... ذهب مع صليب إلى المقهــى... حــاول أصــدقاؤه أن يخــرجوه من انقباضه فلم يفلحوا. دعوه للعب الطاولة فهو محترف فى هذه اللعبة، رد عليهم:

- حرام... دى تلاهى.

كلمة جديدة يدخلها محمود إلى قاموسهم... رد عليه حسيب:

- ما القهوة تلاهى.
- مش حقعد عليها تانى... تحب أمش.
- لأ أحسن اقعد... نحتفى بقعادك.

نظر إليه أبو العلا وقال:

- بالمناسبة يا محمود الانتخابات سخنة... والنواب سخنين... تيجى نتلم ونشوف مين يدفع أكثر.
- أهو انت كده دايمًا يا أبو العلا.

- ياخى بهزر.
- هزارك دايمًا جد وسخيف... ياعم السلام عليكم.

تصــور أصدقاؤه أنه حزين لهدم الساحة وإزالة الجبانة فلم يتكلموا وتركوه ينصرف.

قال حسيب:

- محمود انهارده أعصابه تعبانة.

ســار محمــود ومعــه صــليب يقطعان شارع البحر فى صمت، فجأة تكلم محمود:

- انت بتحب تريزا قد إيه؟
- قد السما والأرض وأكثر.
- يعنى لو قالت لأ... يحصل إيه؟

شك صليب فى الأمر... هل حادثها؟ وهل قالت لأ؟

- محمود قول الحقيقة... انت فاتحتها... أنا عارف إنها كانت عندكم.
- البيت زحمة ومليان ناس انهارده ياصليب.

توقف عن الكلام فهو لا يريد أن يكذب كما أنه لا يريد أن يقول الحقيقة...

استمر الصمت بينهما حتى اقتربا من المنزل. حاول صليب أن يستأذن ولكن محمــود أصر على أن يأتى معه للمنزل. قبل صليب الدعوة فصحبة محمود على قسوتها اليوم أخف قسوة عليه من جلسته مع نفسه.

لــم يكن محمود يتصور ما حدث بين أخته وتريزا، كان يبحث فى ذهنه عن مخــرج يخرج به من موضوع صليب، كما كان يبحث عن وسيلة ليهدئه بها وأن يخــرج تريزا من رأسه... أعادته كلمات أخته إلى حالة من المرح، فدخل الحجرة مبتسمًا، وجلس ليأكل بينما والده يقول لصليب:

- ما تاكل يا بنى.

اغتنم محمود الفرصة ليحادث أباه فى الموضوع.

- أصله صليب يابا بيحب.

ارتعش الشيخ نور الدين حين سمع كلمة ابنه، صمت الشيخ، ثم قال بصوت ريان حنون وحزين، كأنه قادم من بعيد:

- اهــو انتوا كده جيل الأيام دى معندكمش إلا الحب، على كلٍّ الحب مش عيب.

وعاد الشيخ إلى الصمت، قطع محمود الصمت محادثًا صليب:

- كل يا صليب علشان أنا حكلم أبويا فى الموضوع ده.

اقــترب صــليب من المائدة، وقد عاد إليه الانشراح والأمل أن يحدث شىء يقــربه من تريزا... ذكر محمود لوالده رغبة صليب فى أن يخطب تريزا وخوفه من رفض أهلها، وبعد أن انتهى من عرض الموضوع أخذ الشيخ يسأل:

- أبوك قابل أبوها؟
- لأ...
- أصلو احنا عاوزينك انت تكلم أبوها.

يعــرف الشيخ أن هناك عوائق كثيرة ستقف بين صليب حسبو وبين تريزا فهمى... فقال بعد لحظة صمت:

- يابــنى أنــا شــايف إنه من الصعب على إنى أدخل إلا بعد ميكلم أبوك أبوها... ساعتها يبقى الكلام لــه معنى.

انقــبض صليب لهذا الرأى فهو المدخل الطبيعى لإتمام الزيجات فى الأقصر ولا يظــن أنه قادر على أن يدخل فى مناقشة مع الشيخ نور الدين فكلامه منطقى تحدد فيه الأصول وتقاليد المدينة. ولكنه لا يريد أن يصد أبوها والده.

توقف عن الأكل حين سمع طرقا على الباب.

قال محمود:

- ادخل.

ولمــا لم يدخل أحد قام ليفتح الباب ثم عاد إلى الحجرة ومعه فهمى والأب مكارى. لم تكن مفاجأة للشيخ أن يراهما هنا. فلقد كان يتوقع حضور الأب مكارى مــنذ العصر فهو يزوره فى كل مناسبة تستحق الزيارة، كما أن تريزا أبلغته بأن والدها سيحضر.

- أهلاً بيكم... أهلاً.

وضــع محمــود الأطــباق على الصينية وحملها، خرج معه صليب ليدخلا الحوش ويكملا طعامهما.

يضحك محمود واللقمة فى فمه:

- جالك الفرج يا صليب... أبوها ومعاه أبونا مكارى... محظوظ.
- كل وانت ساكت... احترم آداب المائدة.

قـرر فهمى منذ الصباح أن يزور الشيخ نور الدين بعد غروب الشمس، إلا أنـه لـم يستطع أن يغلق مكتبه فقد كان عليه أن يشترى كمية جديدة من القطن، وقـد أثـار أحـد عملائه ما أشيع من أن الدولة ستؤمم هذه التجارة. أصابه هذا العميل بصداع، لم يشعر بأنه فى حالة تسمح لـه بزيارة الشيخ فاتجه إلى منزله. وهـناك وجد زوجته تبدو بشكل غير طبيعى... لم يتعودها على هذه الصورة من القلق، حاول أن يعرف سبب قلقها فلم تخبره المرأة بشىء، قال لنفسه إن هذا يوم القلـق لكل الناس... للمسلمين والمسيحيين على حد سواء... لم تكن لـه رغبة الطعام ولكنه طلبه. ذهبت المرأة إلى المطبخ مهمومة لتسخنه وهى لا تدرى كيف تفاتح زوجها فى أمر زواج ابنتها، فقد وصلت تريزا إلى المنزل متغيرة، ما زالت آثـار الدموع فى عينيها، وقد ابتلت ملابسها. نظرت إليها أمها فأدركت أن هناك شيئًا قد حدث لها.

- إيه فيه يا بنتى... مالك... حصل إيه؟
- أبدًا مفيش حاجة.
- بتخبى على يابنتى!

خافت أن تقول لأمها الحقيقة كاملة فتسيىء الظن بها فأمها لن تفهم أن دار بينها ومحمود من حوار وهى لم تكلمها عنه من قبل وإن جاء اسمه على لسانها فـى حديـث عابـر. ألحت الأم فى أن تعرف السبب فقد ظهر قلقها واضحًا على ابنتها.

- إيه فيه ياتريزا؟

ليس أمام تريزا غير أن تلوى الحقيقة دون أن تغير منها.

- أم حجاج كلمتنى عن صليب.
- ماله صليب؟
- عاوز يخطبنى؟
- وتكلمك انت ليه... ليه متجيش هنا وتكلمنى؟

- انت عارفة انهم مهمومين وهيه مبتقدرش تخرج وتسيب الشيخ.
- ده كلام غريب يابنتى.
- هـيه ماقلـتش حاجة كبيرة... كانت بتقول إنها عاوزة تزورك علشان تكلمك فى صليب.
- وتكلمنى ليه هيه فى صليب... ليه أمه متتكلمش؟
- ويعنى انتو حترضوا... ليه تيجى أمه وييجى أبوه نقول لأ وخلاص...

انفعلـت تريزا وأخذت فى البكاء... لم تكن تبكى من أجل صليب كانت تبكى من أجل نفسها، فهى تعرف أنه ليس لها دور فى اختيار عريسها وماذا يجدى أن تقـول لا أو نعم فى أمر زواجها من صليب... إن أمها لم تتحمل أن تسمع أن أم حجاجى كلمتها فى الزواج فماذا يحدث لو قالت الحقيقة...؟ إنها ترغم نفسها على الكذب لماذا تكذب؟ إنها ترضيهم... وهى لا ترضى نفسها بهذا.

ازدادت عصبيتها فى بكائها وأمها تمسك بها محاولة أن تهدئها وقد فوجئت بتصرف ابنتها.

- اهدى يا بنتى وبعدين نتكلم فى الموضوع ده.

شـعرت الأم أن ابنـتها غريبة عنها... هناك أشياء تحدث فى حياة ابنتها وهـى لا تعـرف عـنها شـيئًا كما أنها متأكدة أن أم حجاجى لم تحدثها فى هذا الموضوع. شعرت بالخوف من إحساسها بأن ابنتها تكذب عليها. ما هى الحقيقة؟ هل تحب ابنتها صليب؟ عندما وصلت بتفكيرها إلى كلمة الحب شعرت بقشعريرة. إن ابنـتها تطعـنها بسكين. فإن أحدًا من أسرتها لا يعرف هذه الكلمة، إنها تذكر عـندما تقـدم المقـدس عبد المسيح لخطبتها لابنه فهمى، وافق أبوها دون أن يسألها، ودون أن ترى فهمى إلا فى الكنيسة ساعة الإكليل. وها هى ابنتها تحدثها عن صليب... وهى فى هذه الحالة من البكاء.

هدأت الأم ابنتها وأخذتها إلى حجرة نومها...

- استريحى شويه... ياحبيبتى.

إنهـا تحـب ابنتها حبًا شديدًا وعلى استعداد أن تصنع أى شىء لها، لكن زواجهـا مـن صليب ولد حسبو أمر صعب على نفسها، حسبو عامل فى السكة

الحديـــد كانت ترى أسرته تكدح وتتعب. كيف تزف ابنتها إلى عالم غير عالمها؟ وحاولت الأم أن تهدئ نفسها وحين هدأت ابنتها سألتها:

- وإذا قلنا لأ؟
- أنا عارفة إنكم حتقولوا لأ...
- أصله يا بنتى دول مقامهم مش من مقامنا.
- لـــيه يامه...؟ عم حسبو راجل شريف مكافح وابنه راجل لـــه مستقبل أحسن من كتير من شبان الأيام دى. أنا متأكدة إنه حيكون دكتور كبير.

أحست الابنة أنها تقول الكثير، فأرادت أن تسحب كلامها:

- وعلى كل أنا مش مستعدة للزواج.

أجابت الأم بحزم:

- ومقلتيش لأم حجاج ليه كده؟ وقفلت الموضوع؟

لم تجد ما تقوله، فتذكرت نصيحة منيرة.

- أنا مش حجوز خالص... حبقى عانس.

صرخت الأم:

- بتقولى إيه؟

شعرت تريزا برغبة فى الاستمرار فى هذا الدور:

- أنا بفكر أروح الدير.
- دير... دير إيه يابنتى؟!

تضـــايقت الأم مـــن هـــذه الفكرة... لن يحدث هذا... لن ترى ابنتها راهبة أبدًا... يهيأ لها أن ابنتها تخيرها بين صليب أو الدير. ليتها ما تعلمت، هذه نهاية التعليم... إنها لا تستطيع أن تقول لها هذا الكلام، فقد زادها التعليم حساسية، وأى كلمة منها معناها انفجار تريزا فى البكاء...

أنهت الأم الحديث:

- الأمر بيد الرب وأبوك لما ييجى نشوف رأيه.

لم تخرج تريزا من حجرتها حتى حين عاد أبوها.

سأل الأم وهى فى المطبخ:

- أمال فين تريزا؟
- نايمة.
- الحمد لله اللى الدراسة انتهت علشان متسافرش تانى... البنت دى بتملا على حياتى.
- ادعيلها بابن الحلال.

لم يفكر فى زواج تريزا، ويضايقه أن تلوح هذه الفكرة فى ذهنه... وضعت الأم الطعام على المائدة أمامه... وأخذ يأكل بتثاقل...

- صحى تريزا تاكل معايا.
- سيبها هيه تعبانة.

حاولت المرأة أن تدخل الموضوع فى الحديث، فانتزعت الكلمات وهى أيضًا تحاول أن تلوى الحقيقة.

- أم حجاج... بتقول إن صليب عاوز يخطب تريزا.

ارتعش الرجل وتوقف عن الطعام:

- صديتى نفسى يا شيخة.
- ياراجل كل... البنت بيجيلها الوحش والكويس.

ارتفع صوته:

- إزاى الولد ده وأبوه وأى حد من أهله يجرؤ يجيب سيرة بنتى... وإيه دخل أم حجاج فى الكلام ده؟
- أهى كلمة يابو جورج... ومترفعش صوتك البنت مش لازم تسمع.

سـمعت تريـزا كلام أبيها... وهى تحب أباها، وعلى استعداد أن تصنع أى شـىء فى سبيله، وأن تتزوج أى رجل يقبله زوجًا لها ولكن هذا الموقف ساءها، وحرك رغبة العناد فيها.

إنها لن تتزوج صليب على الرغم منهما، فهذا لا تقبله، ولا تظن أن صليب يقبله أيضًا... ارتاحت لفكرة الدير...

وتعجبت من نفسها كيف تستريح لهذه الفكرة التى لم تخطر على بالها قط.

وصلها صراخ والدها:

- لأ تسمع... والعالم كله يسمع.

وجدت المرأة صراخه بلا مبرر:

- يا أبو جورج... هو صليب ماله... حرامى؟ وأبوه ماله قتال قتلة؟ دول ناس مسيحيين زينا.
- ده مش كفاية.

تضايق من تعليقه، ونظر إلى زوجته. هذه أول مرة ترد عليه منذ أن تزوجها... ماذا حدث فى العالم...؟ تذكر تأميم القطن، شعر أنه وحسبو سيتساويان... وكره الفكرة.

- كفاية كده دلوقتى.

وضع جلبابه الصوفى على كتفه وخرج... جلس على قهوة «كرنك بار»... وشرب القهوة... حيا بعض أصدقائه ثم وقف آخذًا طريقه إلى بيت الشيخ نور الدين... لم يكن يريد أن يزوره الآن... ولكنه الواجب... الشيخ نور الدين أحب الناس إلى قلب أبيه عبد المسيح.

التقى فى الطريق بالأب مكارى متجهًا إلى نفس المنزل، وبعد تبادل التحية المعتادة سارا صامتين... كان الأب مكارى مهمومًا. قضى طيلة هذا اليوم فى الزنية قبلى، فقد عاد بعض الطلبة من القاهرة وأخذوا يبشرون بين الأهالى بمذهب جديد. الزنية فى نظره قلعة الأرثوذكسية فى مديرية قنا، حافظ مسيحيوها على تراثهم، حتى إن بعض شيوخها يجيدون القبطية، حركة تبشير الكنيسة الغربية تهدد وحدتهم... عندما كانت الأقصر قرية صغيرة لم يكن بها سوى كنيسة قبطية واحدة صغيرة وقديمة ولكنها قوية... والآن الأقصر بها ثلاث كنائس أرثوذكسية، وعشر لأصحاب المذاهب الأخرى... ومشكلات الطلاق التى بدأت تقتحم عليه بيته كل يوم، وجد الشبان لها حلاً باعتناق مذهب مسيحى آخر، والمبشرون الغربيون لهم أتباعهم، ومعهم القوة والمال وما يغرون به الشباب... الحضارة.

وصلا إلى منزل الشيخ نور الدين... انقبض فهمى عندما رأى صليب، خاف أن يتطرق الحديث إلى موضوعه... قرر ألا يخوض فى أى حديث عنه.

- أهلاً بنيامين.

يحب الشيخ أن ينادى مكارى باسمه قبل التعميد عندما كان طالبًا فى مدرسة الأقباط.

- أهلاً شيخ نور الدين... أنا آسف للتأخير... مريت عليك الصبح قلت يمكن تكون محتاج حاجة فى اليوم العصيب ده... لقيتك خرجت، وبعدين رحت الزنية، مشغوليات كتيرة علينا...
- ربنا يكون فى العون.
- افتكرت انهارده أيام لقصر القديمة... كانت أيام متتعوضش.
- انت شفت منها حاجة.
- أنا شفت آخرها.
- الحمد لله... لكل زمان دولة... ورجال... الواحد حياخد زمانه وزمان غيره... هوه بس صعبان عليا أشوف نهايتها... كان نفسى جنازتى تكون فى الساحة... لكن إرادة الله، ولا راد لقضائه.

توجه الشيخ إلى فهمى:

- وانت ازيك يافهمى.
- نحمد الرب على كل شىء.

دخل محمود بصينية الشاى، وصب كوبًا للأب مكارى، وآخر لفهمى ثم خرج. قال الأب مكارى:

- محمود إنسان طيب... الرب يبارك فيه... نعم الخلف.

رد الشيخ:

- الواحد زعلان على الساحة وزمانها، مين عارف يمكن دول يكونوا أحسن منينا... أنا لما بشوف زمايله بفرح... شوف صليب مثلاً ابن حلال... أبوه لازم يفتخر بيه.

ابتسم الأب مكارى وهو يعلق على كلام الشيخ:

- ده قريبنا.
- منا عارف ولاد لقصر القديمة كلهم عيلة واحدة إن شاء الله نفرح بيه.

شعر فهمى أن ما كان يخشاه سيحدث، ولن يستطيع إيقافه والشيخ يكمل كلامه وهو يبتسم:

- متشوفوا لـــه يا بنيامين عروسة.

رد الأب وهو خالى الذهن عما يدور فى رأس الشيخ:

- العرايس كتير بس هوه يؤمر... مين تقول لأ على صليب؟

توقفـــت الابتسامة فى وجه الشيخ واكتسى جديته المعهودة التى عرفه بها فهمى منذ أن كان معلمه فى المدرسة، ووجه كلامه لفهمى:

- شـــوف يـــا فهمى أنا جايز مليش حق أتكلم فى الموضوع ده لكن انت ابنى...

واستمر الشيخ يحادثه عن صليب وعن الغنى وعن الفقر وإن أهم شىء هو غـــنى الـــنفس، وإنـــه يرى صليب خير من يصلح لابنته ويحذره أن يتخذ المال مقياسًـــا لاختيار زوج ابنته... أمن مكارى على كلام الشيخ وقد أدرك أنه لا يتكلم من فراغ.

- هيه يا سيدنا إنسانة ممتازة وصليب إنسان ممتاز كمان... وربنا يوفق.

رد فهمى:

- لكن محدش كلمنى فى الموضوع ده.

لم يمهله الشيخ ليكمل كلامه:

- أبوه خايف انك مترضاش.

أسقط فى يده. وحاول أن يتخلص من الموقف:

- طب امهلنى شوية لحد مشاور عمامها.

خلصته هذه الكلمة من الحوار الطويل فى الموضوع، إلا أنه ازداد انقباضًا فقـــد شـــعر أن المشكلة تتعقد، لو قال لا بعد ذلك فسيبدو أمام أهل الأقصر رافضًا لكلام الأب مكارى وكلام الشيخ نور الدين، أى أنه يرفض كلام كل أهل الأقصر.

شـــعر برغبة فى الانصراف، ولكنه لا يستطيع قبل أن يبدأ الأب مكارى فى الاستئذان، خاف أن يطيل الأب جلسته... وقف بعصبية وهو يقول:

- استأذن أنا.

رد الأب مكارى:

- أنا خارج معاك.

لـــم تغب عن الشيخ نور الدين حالته، فوجد أن عليه أن يخفف عنه توتره وضيقه:

- شـــوف يـــا فهمـــى... الولد مفهوش عيب ومتعقدش المسألة... خدها ببســـاطة... بكـــره صـــليب حيكون لك أغلى من كل الأولاد وفكر على مهلـــك... بس متطولشى... بعد أسبوع إذا ما وصلنيش خبر منك والد صليب حيكون عندكم فى البيت.

ثـــم وقف الشيخ ليسير معهما إلى الباب وهما يلحان عليه فى البقاء ولكنه رفض.

مـــا إن ســـمع محمـــود وصليب صوت غلق الباب حتى أسرعا إلى حجرة الشيخ. يقول محمود بلهفة:

- هيه حصل إيه يابا... إن شاء الله خير.
- خـــير يابنى... شوف يا صليب إحساسى إنه حيوافق... أنا اتفقت معاه زى انهارده إذا مبعتليش تبعت أبوك لـــه... لكن اعرف إذا ما وافقشى تبقى إرادة ربنا وملكشى نصيب فيها... وتنسى الموضوع ده تمامًا.

اســـتمع صليب للشيخ بصمت المترقب للنتيجة، وقفت فى أذنه كلمة الشيخ «إذا ماوافقشـــى» وسرح ذهنه فى تريزا، شعر بألم شديد فى فكرة فقدها. لم يطل فـــى ســـرحانه حـــتى طرق الباب طرقا عنيفًا... استعاذ الشيخ بالله من الشيطان الرجيم:

- يا ساتر... يارب.

قام محمود ليفتح الباب... نظر الشيخ فإذا به أمام ريا يغطيها السواد وهى تصرخ والدموع تتساقط من عينيها.

- الحقنا يا سيدنا الشيخ... الحقنا... الخراب حيحل بينا.

قام صليب وخرج معه محمود ليوصله إلى بيته.



١٥

جلســت ريا تحكى للشيخ والدموع فى عينيها قصة ابنتها الصغيرة عزيزة وكــيف أن والدهــا وأخوتها قرروا قتلها مع الفجر. فقد حملت الفتاة وتبين الأب ذلــك. وهو الآن يحاول أن يعرف الفاعل، وفى نيته ونية أخوتها أن يقتلوها فى الفجر.

اهــتز الشيخ وأخذ يستعيذ بالله ويدعوه الستر على ولايا المسلمين والناس أجمعين.

- والبنت قالت اسم الراجل؟
- لأ... وانا خايفة بنتى تموت وجوزى وولادى يروحوا السجن.
- وانت عارفه الشخص؟
- عارفاه كويس يونس ود مصيلحى صاحب المطعم.

كانــت عزيــزة أصغر من يونس بسنتين. مطعم والده بجوار بيتها، لم تكن تســتتر مــنه. تكونــت بينهما علاقة، لم يكن أحد يعلم أن تصل إلى هذا الحد. لم يتصــور أحــد أن يقوم يونس بهذا الفعل حتى أهلها، فهو مثل ابنهم، ولكن الفعل حدث فللشيطان مليون عين، ومليون مدخل يدخل به على البشر.

أخذ الشيخ فى لبس قفطانه وهو يقول لريا:

- روحى انت يا ريا واقعدى ساكتة لحد ما اجى.
- روح يــا شيخ نور الدين الله يحفظك ويحفظ ولادك وبناتك ويزيدك من نعــيمه دنيا وآخره مين غيرك نأمنه فى الدنيا دى... روح إلهى يزيدك من نوره.

خرجــت ريــا وخرج وراءها، فوجد محمود مع صليب يقفان بجوار عامود النور فى الشارع، نادى الشيخ ابنه:

- محمود روح بسرعة هات لى عربية.

اقترب محمود من والده وقال وهو فى خشية عليه:

- الدنيا ليل يابا... ممكن تنتظر للصبح.
- صبح إيه يابنى... روح هات عربية وانت ساكت.

عاد محمود سريعًا بالعربة، ركب الشيخ وهو يقول للعربجى بيت مصيلحى، أوقف الشيخ العربجى بعيدًا عن منزل مصيلحى، وسار بقدميه داخل الحارة الضيقة... رائحة روث البهائم المختلط بغائط البشر تزكم الأنوف، ولكن أنف الشيخ قررت ألا تشم شيئًا. كان أهالى الحارة قد فرشوا للنوم فى طرقاتها. ارتفع صوت الشيخ:

- يا مصيلحى... يا مصيلحى.

ردت زوجته وهى لا تستطيع أن تتبين القادم ولا يساعدها عشى عينيها الدائم ولا الظلام على الرؤية.

- مين؟
- نور الدين.
- نور الدين مين؟
- الشيخ نور الدين... نادى مصيلحى...

دخلت المرأة حاصلها المبنى الطين. خرج مصيلحى وهو يزعق:

- مين؟

وبعد أن تف ونف خرج متثاقلاً فوجد نفسه أمام الشيخ:

- مين الشيخ نور الدين... زارتنا البركة... اتفضل.
- لأ هات ابنك يونس وتعال معاى عاوزك فى البيت... أنا مستنيك فى العربية بره.

لم يتكلم الشيخ بكلمة واحدة إلى مصيلحى وابنه فى العربة وهو يستغرب من زيارته له ويحاول أن يخمن سبب استدعاء الشيخ لهما. فخرجت كلماته معبرة عن قلقه:

- الحكاية... لازم كبيرة يا سيدنا الشيخ؟

لم يرد عليه الشيخ وعندما وصل إلى منزله طلب من العربجى أن يرحل ودخل المنزل مع مصيلحى الذى كان يصرخ دون أن يخرج عن حد الأدب:

- إيه فيه يا شيخ نور الدين؟
- فيه جريمة منوفى حيقتل بنته فى الفجر.
- يقتلها ليه...؟ واحنا مالنا؟

نظـر الشـيخ إلى ابن مصيلحى الصامت... وقص الشيخ عليه القصة التى روتها المرأة لـه، فعاد إلى صراخه:

- ده مش ممكن... مش ممكن ابنى يعمل كده.

ظـن مصيلحى أن امرأة منوفى تريد أن ترغم ابنه على الزواج من ابنتها، وأنهم يزجون بالشيخ فى الموضوع حتى يرغمه على ذلك، وهو لا يوافق على أن يـزوج ابنه من ابنة منوفى فهو يراه نصابًا ويرى زوجته ريا نصابة؛ تدخل على الحـريم فى البيوت لتبيع لهم الملابس المستوردة وتسرق ما شاء لها أن تسرق، ومنوفى يخرج ليبيع المأكولات فى القطارات وعينه على شنط المسافرين وصبيانه يسرقونها ويقفزون من القطار وهو فى أقصى سرعة.

- ده مـش ممكـن يا شيخ نور الدين... دول ناس بطالين وانا لا يمكن أجوز ابنى لبتهم... يروحوا يدوروا على حد غيرنا.

نظر الشيخ إليه فى صرامة:

- مصيلحى هدى... البنت حتتقتل وانت عارف لو حصل ده أنا حعمل فيك إيه، وبدل متقول عليهم ناس بطالين... اسأل ابنك.

نظر نور الدين إلى يونس وصرخ فيه:

- يا ولد... ده صحيح؟

أخـذ الولـد يجهش بالبكاء فهو لم يكن يتصور أن يصل الأمر إلى أن تقتل عزيـزة الجميلة... لقد أحبها... طلب من والده أن يزوجها لـه فرفض بحجة أن أهلهـا من الحلب سراق الحمير... نهر ابنه، وهدده بالطرد من البيت ولكن الحب غلب عليه فلم يستطع أن يمتنع عن لقائها.

دخل عليها ذات يوم... فوجدها وحيدة، فار جسده وجسدها. اغتنم الشيطان الفرصة، اقتحم الصدور والأجساد.

اسـتمرأ الولـد هـذا الحس الجسدى، عزيزة جميلة وطرية وناعمة... لم يـتوقف... حملت عزيزة، وعرف الولد، كلم والده فى أمر زواجها... نهره الأب

بقسوة فهو يرفض أن يزوج ابنه من ابنة الحلبى... أخذت الولد الأفكار... ضاق بنفســـه أنه لا يستطيع أن يتزوجها بمفرده فهو لا يعمل عملاً مستقلاً عن والده، كلمـــته البنـــت فى الزواج والهرب من البلد... وهو لا يدرى كيف؟... فليس معه نقود، فكر أن يسرق والده ولكنه لا يجد فرصة لذلك. صرخ مصيلحى:

- ياواد اتكلم...

رفع الولد صوته من بين نحيبه:

- أيوه.

أمســـك مصيلحى بيونس وحمله بين يديه، رفعه ورماه على الأرض، وأخذ يضربه بقسوة:

- فضحتنا ياابن الكلب... ياواطى... يادون... يامخول واطى.

طلـــب الشيخ من مصيلحى أن يرفع يده عن ابنه، أمسكه من ذراعه، أحس مصـــيلحى بـــالألم، لـــم يكـــن يعرف أن هذا الشيخ يحوى هذه القوة، جلس على الكنبة... وقال بصوت هادئ مهزوم:

- أعمل اللى ترضاه يابا الشيخ...

نظر إلى ابنه:

- ياواد دى عملة تعملها... انت اللى عاوز القتل.

غـــاب بعـــد ذلك فى الصمت... إنه يعرف الأصول... لم يكن يريد لابنه أن يتزوج من بنت الحلبية... ولكنه هزم، قطع عليه تفكيره صوت الشيخ ينادى ابنه:

- محمود... تعال.

أراد الشيخ أن يحضر محمود ليبقى معهما حتى يمتنع الأب عن ضرب ابنه، ثـــم توجـــه الشـــيخ إلـــى بيت منوفى وحين خرج من الشارع ووصل إلى ميدان الحـــوض، كـــان المـــيدان خاليًا، وفجأة ظهرت عربة، وقفت بجوار الشيخ. كانت تحمل أحد المرشحين ومعه جماعة من أنصاره قادمين من الريف فيوم الانتخابات بعد غد... والمرشحون لا ينامون هذه الأيام... قبل المرشح يد الشيخ:

- ادعيلنا يابا الشيخ... الواحد عاوز يخدم البلد. ماهو زى ما انت عارف البلد الأيام دى مفهاش حد يخدمها.

لم يسأل المرشح نفسه أين سيذهب الشيخ؟ ولم يعطه الشيخ اهتمامًا كبيرًا فقد كان متعجلاً الوصول إلى بيت منوفى.

* * *

الليل طويل على منوفى... فهو لم ينم... يعرف أنه سيقتل ابنته فى الصباح ستحمل جرتها لتملأها من ماء النهر وسيلقى بها هناك... إنه يريد أن يعرف منها المجرم الذى لوث شرفه.

الشرف هو الشىء الوحيد الذى يحرص عليه منوفى... والشرف عنده ليس إلا العــرض... لقد سرق... ونهب هذه شطارة... ولكنه لم يدنس عرضًا لأحد... ضاقت نفسه... صرخ:

- يارب ليه ده...؟

ســمع صوت الشيخ نور الدين هب واقفًا، لا يعرف لماذا يحضر الشيخ فى هذا الوقت من الليل؟ هل عرف الناس بالفضيحة قال لنفسه «فضيحتك بجلاجل يا منوفى».

- اتفضل يا شيخ نور الدين.

لــم يكن يتصور أن يدخل الشيخ حاصله، ولكنه دخل وأخذ يلف نظراته فى الحاصل، سأل الشيخ:

- فين عزيزة؟

كانــت عزيــزة فى حجرة صغيرة داخل حجرة أخرى فى الحاصل قد أحكم أبوها وأخوتها قيدها.

رد منوفى:

- نايمة.
- فك البنت يا منوفى.
- يا شيخ نور الدين...
- فك البنت يا منوفى... البنت متتعذبش يوم فرحها.
- بتقول إيه ياشيخنا؟
- بقول فك البنت ولبسها وتعالى معايا...

- أنا حكتب كتابها النهارده... دلوقت.
- مش أعرف على مين...؟
- يونس ود مصيلحى.

«عملها الكلب» حدث منوفى نفسه بذلك، وضع رأسهم فى الوحل وأرغمهم ابـن مصـيلحى علـى أن يزوجوه البنت، إنه يستحق القتل لا الزواج من ابنته. كلاهما يستحقه... لم يتركه الشيخ لأفكاره:

- عجل... الفجر قرب... اليوم ده طويل... وأنا عاوز أنام شوية.
- متخليها الصبح يا شيخنا.
- صبح فى عينك قليل أدب... انت متصور إن قتل البنت أو الواد حيحمى عـارك... دى فـيها شـنق يـا منوفى... ومفيش حاجة تريحك غير زواجهم... دول عيال... يللا بينا.

رفعت الأم صوتها بالدعاء للشيخ:

- ربنا يستر عليك وعلى ولاياك... يا ربيع الغلابة.

لا يدرى منوفى كيف عرف الشيخ حكاية ابنته ولكن الشيخ لا يخفى عليه خافية، إنه يعرف كل شىء فى المدينة.

وضـع منوفى طاقيته الأسيوطى على رأسه وحمل شومته بيده ومشى مع الشيخ فى صمت تتبعهما ريا وابنتها عزيزة.

* * *

دخل الشيخ الحجرة وتبعه منوفى الذى سلم على مصيلحى سلامًا فاترًا دون أن يمد إليه أو إلى ابنه يدًا، جلس على الكنبة المواجهة لمنوفى بينما جلس الشيخ علـى كرسى أمام مكتبه وأخرج دفتر العقود. فى هذه اللحظة دخلت ريا وعزيزة وجلستا فى الصالة.

رفع الشيخ صوته:

- يا عزيزة تعالى...

دخلت الفتاة الحجرة. وقبل أن ينظر إليها محمود بهت فقد رأى وجه والده يتغـير تمامًا وهو يرفع عينيه إلى وجهها، عيونه تتسع فوق اتساعها تتمركز فى

وجــه الفتاة مشدودة إليها شدًا... ارتعشت عيونه... محمود يرى ارتعاشة يده... جسده كله يرتعش...

وقف الشيخ كمن يريد أن يستقبل قادمًا عزيزًا افترق عنه منذ مدة...

- مين... عطيات.

ردت الفتاة:

- أنا عزيزة يا سيدنا الشيخ.

جلس الشيخ على كرسيه وقد أدار وجهه، وظهر أنه يحاول بجهد أن يعود إلى توازنه. فتح الدفتر وقال دون أن يرفع وجهه إلى عينيها:

- أهلاً عزيزة.

تمتم بصوت مسموع «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»... ثم رفع نظره إلى ابنه محمود الذى كانت عيناه تتفرسان فيه...

- يا محمود نادى جارنا صديق... علشان يشهد العقد.

ثم وجه كلامه إلى منوفى ومصيلحى:

- وانت يا منوفى حتكون وكيل بنتك وانت يا مصيلحى وكيل ابنك ومحمود وصديق حيكونوا شهود العقد.
- وانـــت يا بنتى أول ما ييجى صديق تقولى وكلت عنى والدى منوفى فى عقد زواجى، وانت يا يونس حتقول وكلت عنى والدى مصيلحى فى عقد زواجى... مفهوم.

رد يونس وعزيزة معًا:

- مفهوم يا سيدنا الشيخ.

خرج محمود لينادى صديق... وهو يعلم أنه سيوقظه فليس فى الشارع أحد مســتيقظ ســوى محمود وأبيه. حاول أن ينادى صديق ولكن الكلمة لم تخرج من فمـــه فإن عقله مع الشيخ نور الدين... ما الذى حدث لـــه؟... وأى ألم يخفيه... عطــيات... عزيــزة... هــل هى زلة لسان؟ لا يمكن أن تكون عطيات... عزيزة شخصًــا واحــدًا... لا... وجــه الشيخ وصوته والطريقة التى ارتعش بها جسده كلـــه... لا تجعل من عطيات غير شخص آخر ليست زلة لسان إنها شىء عميق

قـوى دفيـن ساكن داخل الشيخ... هل هى ظنون منه؟ هل يمكن أن يكون لهذا الـرجل العملاق...؟ لم يكمل السؤال... طرده من ذهنه... امرأة... حب... أوقف تفكيره... نادى صديق وعاد به إلى المنزل.

دخـل صـديق الحجرة... لم يدخل معه توقف فى الصالة لينظر إلى عزيزة فإنه لم يكن قد وجه إليها نظره لقد شغله الشيخ عنها.

التقـت نظـراته بضفائرها التى خرجت من طرحتها لتنزل على الكنبة التى تجلـس عليها وعندما وقع بصره على وجهها تسمر... حبس صيحة كادت تخرج منه. كتمها على الرغم منه. حمدًا لله أن لم يخرج صوته ليسمعه والده... يا الله لكـم هـى جميلة عزيزة... عيونها الواسعة ذات الرموش الطويلة وكأنها رسم، عليها حاجب دقيق ليس فيه شعرة زائدة وقد تحرك مع العين... إنه يعلم أن هذه الفـتاة ضُربت ضربًا مبرحًا هذا المساء، ومع هذا فلا يبدو من عينيها غير الكحل الـربانى، أنفهـا الدقـيق يشكل مع شفتيها الورديتين تناسقًا منحته الطبيعة لهذا الوجـه، غمازة صغيرة فى ذقنها تجعل هذا الوجه فريدًا فى جماله من بين جميع الوجوه التى رآها طيلة حياته... تحركت عيناه لتنظر إلى بقية جسدها...

سمع صوت والده:

- محمود... تعال.

دخل محمود فنادى الشيخ عزيزة، طلب إليها أن ترفع صوتها لتوكل والدها فـى عقـد زواجهـا... صوتها يخرج من الصالة دافئًا يهزه... الشيخ نور الدين يجـرى شـعيرة الزواج... محمود لا يسمع منها كلمة... يفكر فى عزيزة... كان هـذا الجمال سيقتل اليوم... مصيلحى يرفض زواج عزيزة من ابنه... يا الله أى تناقض فى هذا العالم إنهم يقتلون الجمال... يعبثون به... أو لا يفهمونه.

وقـف فجـأة وخرج لينظر إلى عزيزة، تذكر أغنية شائعة فى المدينة عن عزيـزة ويونـس تحـدث فيها عزيزة يونس عن جمالها ترى هل تصف الأغنية عزيـزة بنـت مـنوفى ولكن الأغنية أقدم من ميلادها وميلاده... ترى هل كانت الأغنـية تمثل حلمًا بجمال قديم... وهو الآن يراه ماثلاً أمامه... خجل من نفسه ووقفـته فعاد إلى الحجرة ليجد والده قد انتهى من كتابة العقد وأخذ يوجه كلامه لمنوفى:

- بنتك يا منوفى جهزها... بكره الحنة وبعده الدخلة... وانت يا مصيلحى بكره تدور لولدك على حاصل وتأسسه وتعمل للولد عربية يبيع فيها فول وطعمية، وجه الشيخ نظره إلى يونس:
- مبروك يايونس... ابق افرش فى حتة الحوض... دى حتة كويسة... وراعى مراتك وإذا نقصك شىء تعال.

توقف الشيخ لحظة. ظهر واضحًا أنه يفكر. عاد السلام إلى وجهه. ابتسم ثم مد يده إلى دولاب مكتبه فتحه، وأخرج حافظة قديمة لم يرها محمود من قبل. قلب الشيخ فى جيوب الحافظة، ثم رفع صوته بحنان...
- عزيزة... يا عزيزة... تعالى...

حضرت عزيزة ووقفت أمامه:
- أيوه يابا الشيخ.

نظر إليها الشيخ وابتسامة تضىء وجهه وقد أخرج جنيهًا ذهبيًا من الحافظة. نظر محمود إلى أبيه إنه لم ير هذه الحافظة قط من قبل، ولا يعرف أن والده يملك نقودًا ذهبية، ولم يسمع بذلك من والدته أو أى واحد من أخوته. يقدم الشيخ الجنيه الذهب إلى عزيزة وعيون الموجودين جميعًا تنظر إليه.
- خدى يا عزيزة الجنيه ده نقطة زواجك.
- ده كتير يابا الشيخ... انت عملت كتير لينا انهارده ربنا ميحرمنا منك.

أمسكت عزيزة بيد الشيخ وأخذت تنهال عليها تقبيلاً. سحب الشيخ يده:
- أستغفر الله يا عزيزة... أستغفر الله...

كانت الدموع تتساقط من عينيها وهى ترى هذا الرجل الكبير الذى تحلف المدينة بحياته يقف بجوارها ويمنحها كل هذا العطف.
- هدى يا عزيزة... انت حتروحى دلوقت وحتخلى بالك من يونس... متسيبيهوش أبدًا... روحى يا بنتى الله يكرمك ويحفظك ويحفظ ذريتك. روحى يا بنتى مع السلامة.

لم تتوقف الدموع من عينيها حين قام مصيلحى ويونس يستعدون للخروج.

طلب الشيخ من منوفى أن يبقى وقال لمحمود:
- روح نام لك شوية.

خـــرج مصـــيلحى وابنه ومعهما ريا وابنتها عزيزة ولم يذهب محمود إلى الحوش لينام فى الظل وإنما خرج معهما ليوصلهما إلى آخر الشارع لم يتمكن من رؤيـــة عزيـــزة فهى تسير خلفهم. وحين وصل إلى آخر الشارع أحس محمود أن علـــيه أن يعـــود، فقد خجل من نفسه. سلم عليهم وأخذ يتابع عزيزة وهى تسير وتبتعد عن ناظريه لتختفى فى الظلام.

عـــاد محمود إلى منزله. سمع صوت والده يستتيب منوفى. دخل الحوش، وجـــد والدته نائمة، استيقظت على صوت خطواته... لو لم تستيقظ لأيقظها فهو يـــريد أن يتكلم معها عن عطيات... عن عزيزة... عن الجنيه الذهب، وجد أمه لا تعرف شيئًا، لا عن عزيزة، ولا عن عطيات، ولا عن الجنيه الذهب.

ســـمع صوت الباب يُفتح ثم يُقفل. إنه منوفى خارج ولا بد أن الشيخ سينام بعد هذا اليوم الطويل.

١٦

لم ينم الشيخ بعد خروج منوفى فقد استلقى على الكنبة، ثم رفع رأسه وأخذ يتمتم:

- يارب لماذا تفتننى وتفتن ابنى...
- يـــارب أتجربـــنى؟ حمـــدًا لك وشكرًا لحسن ظنك بى... ولكنى يا إلهى لا أحـــتمل تجربة أخرى... أكمل طريقى بالخير حتى ألقاك... ولا تفتنى ياإلهى عن حبك... هذا صعب...

توقف... شدته الذكرى... عقله يعدو بعيدًا إلى سنوات طويلة. لا يريده أن يعود... تمتم... أستغفر الله... أستغفر الله، ثم قام ليصلى لله.

استغرق فى صلاته زمنًا، ثم سلم، وعاد إلى الكنبة فاسترخى محاولاً أن ينام قليلاً قبل أن يستيقظ لصلاة الفجر. ولكن الصور القديمة استعادت قوتها. فتحركت فى ذاكرته حية لم يضيِّع منها الزمن شيئًا.

إنه يتذكر عندما رآها لأول مرة. كان ذلك فى عامه الخامس فى القاهرة لقد انـــتقل إلـــى بيـــت جديد فى حى الحسين. ذهب أول الشهر إلى منزل الحاج عبد الرحـــيم العطـــار صاحب البيت فى حى بركة الفيل ليدفع لـــه الإيجار. طرق بابه، فتحـــت لـــه الباب فتاة وعندما وقع بصره عليها تسمرت عيناه، هى، هى بلحمها ودمهـــا صاحبة الصورة التى كانت تصلى معه فى البربة وهى تحمل طفلها الوليد بيـــن ذراعيها. لقد رآها هناك أكثر من مرة، يعرفها معرفة وثيقة، تمتم يا سبحان الله.. هـــى.. هى.. عيونها الواسعة المكحلة بالكحل الربانى ذات الرموش الطويلة عليها حاجب دقيق ليس فيه شعرة زائدة وقد تحرك مع العين، أنفها الدقيق يشكل مع شفتيها الورديتين تناسقًا منحته الطبيعة لهذا الوجه، وغمازة فى ذقنها تجعله فـــريدًا فـــى جمالـــه. تقـــف فى جلال ملكى. جسدها يحمل الأنوثة التى رعتها يد مقدســـة. يـــا الله... ألقـــى بنظره إلى الأرض فقد بادلته الفتاة النظرة المندهشة

المتطلعة إلى وجه مألوف عاش معها دائمًا وتريد أن تسحبه من ذهنها لتتأكد من حقيقة وجوده، لم يعرف أن عينيه قد استطاعتا أن تتحكما فى قلب الفتاة.

سأل نور الدين عن الحاج عبد الرحيم العطار فردت عليه بصوت حنون:

- أنا عطيات بنته.
- إذا سمحت إديله الفلوس ديه.

سلمها الإيجار دون أن يرفع عينيه إلى وجهها، وحين خرج من المنزل أطلق ساقيه للريح حتى وصل إلى منزله وقد ابتل عرقا. ارتمى على فراشه صارخًا: يارب...

لم يكن يعرف الحقيقة... لقد غابت عنه عطيات... صاحبته فى الصلاة فى البربة...

هل هى تجربة يختبره بها الله...!!

قضى فى البيت يومين... يريد أن يعرف هل ما حدث حلال أم حرام؟ وقف ليصلى، فطرق الباب، أكمل صلاته وبعد أن انتهى قام ليفتح الباب فإذا به صديق طفولته بصيرى، احتضنه بحرارة، فيه الخير فهو لا يفتأ يزوره كلما عاد من السودان. غريب بصيرى هذا... هو ابن الحياة... لا يحده شىء عن التمتع بها، تزوج أربع مرات وهو لم يتعد الثالثة والعشرين من عمره، يضحك من كل شىء وعلى كل شىء حتى على الجمع بين زوجتين يراه حرامًا لا يليق بالرجل، كلام يقوله وهو لابس لباس الجد ثم يطلق ضحكته عالية يرفع بعدها صوته: الخامسة يارب بكر.

ولكن بصيرى يدخل عليه بوجه حزين متألم، سأله عن سبب حزنه، لم يجبه إجابة واضحة:

- أصلى تعبان.

هناك مشكلة يعانى منها بصيرى ولا يريد أن يقولها. هذا العبادى يخفى أمرًا لحكمة خاصة به.

- إيه فيه يا بصيرى؟
- فيه تلتميه وخمسين جمل مستنيين فى «أم باد» ومش لاقى واحد أمين يصاحبنى فى جيبتهم لمصر.

- لا حتلاقى إن شاء الله.
- منا ملاقيه بس يرضى يروح معايا.

فهم نور الدين غرض بصيرى فهو لا يريد أن يفهم أن هذا ليس عمله.

قال بصيرى:

- خمســـين جنيه دهب أجر الرحلة ديه يعنى أكتر من اللى حتاخده جرايه من الأزهر فى أكتر من خمس سنين.
- يا بصيرى مش رايح... أنا راجل علم.
- راجل علم... راجل علم.

صمت بصيرى وقرر أن يعود لحالته العادية حتى لا يعرف نور الدين حقيقة مشكلته. على كل حال لن يفقد الأمل فى أخذه معه.

ومع أن بصيرى كان مهمومًا إلا أنه استطاع أن يدرك أن نور الدين مهموم أيضًا.

اقترب بصيرى من نور الدين وحاول أن يتعرف منه على سبب همه. لم يقل له نور الدين شيئًا. صرخ بصيرى:

- يا أخى حرام عليك نفسك قل لى إيه إللى تاعبك... مش جايز أريحك.
- متقدرش.
- مقدرش على إيه؟... أنا بصيرى ابن الحياة. معرفش أقرأ ولا أكتب لكن أعرف أقرأ الحياة كويس قوى.

أطرق نور الدين طويلاً وشعر بالرغبة فى أن يقول لبصيرى الحقيقة. خرج صوته ضعيفًا خجلاً:

- أنا بحب يا بصيرى وخايف أكون غلطت.

حكى نور الدين لبصيرى عن عطيات. وما إن انتهى من حكايته حتى ضحك بصيرى ضحكًا عاليًا مما أغضب نور الدين منه.

- إيه فيه يا بصيرى... بتضحك ليه.
- يـــا أخى هو الضحك حرام؟ هو ده إللى تاعبك... يا أخى كنت تقول... تعــرف بس أنت لو تغير من شدة طباعك دى وعنفك كانت الدنيا كلها

تجـيلك. ضيعت على ميت جنيه كانت رفيقة حتدهملى لو وافقت تخليها تشوفك... تشوف عينيك.

- يا بصيرى كفاية كده... إن مسكتش حرميك بره.
- ارم.. يا أخى المسألة بسيطة... هو الحب حرام؟ أبدًا ده أحل الحلال... يا نور الدين اسمع كلامى مرة فى العمر. إلبس ويلا بينا.
- على فين.
- بس إلبس.

وجد نور الدين نفسه منساقا لما يقول بصيرى ولم يعارضه وهو يأخذه إلى مـنزل الحـاج عبد الرحيم العطار، وقرب البيت طلب منه بصيرى أن يذهب إلى هناك ويسأل عن الحاج ليتأكد من تسلمه النقود.

تـرك بصيرى وذهب إلى المنزل. فتحت لـه عطيات، فى هذه المرة لم يلق بـنظرة عينـيه إلـى الأرض وإنما ركزهما على وجهها...هناك شىء يدفعه إلى الالتصاق بها. يقاوم.. يجرى من أمام المنزل فيجرى بصيرى وراءه.

- وقف يا نور الدين.

يقـف نور الدين فيرى بصيرى عينيه قد احمرتا فيصاب بالخشية منه. لقد ألبس وجهه صورة الأسد المخيف.

- أنت شيطان يا بصيرى.

لـم يـرد علـيه بصيرى فقد خاف أن يخرج نور الدين عن طوره. وسارا صامتين حتى وصلا إلى البيت.

لـم يمكث فيه نور الدين بل خرج إلى الشارع، وجد نفسه يعود إلى شارع بيت عطيات. يلقاها مطلة من الشباك فيتسمر. ينظر إليها وتنظر إليه. أشارت إليه بـيدها أن ينـتظر ثم اختفت من الشباك. قلق نور الدين فهو لا يعرف ما تعنى لم يطل انتظاره فقد رآها تخرج من منزلها لابسة ملايتها السوداء وقد غطت وجهها باليشـمك. تقدمـته وهى تسير مسرعة. لا يدرى ما يصنع؟ إلا أنه أطلق رجليه ليسـير خلفها. ترك مسافة بينهما حتى هدأت من مشيتها وهنا سارا متجاورين. لم يقل لها كلمة واحدة حتى بدأته بالحديث:

- إزيك يا سى نور الدين.

- الحمد لله إزيك انت.
- أنا مش عارفه مالى انهارده ازاى خرجت م البيت بالشكل ده.

لـم يـرد عليها نور الدين فقد وجه نظره إلى تياترو على يمينه، تطلع إلى إعلانات التياترو الجوق العربى يقدم سلامة حجازى فى شهداء الغرام الليلة وكل لـيلة، تمنى لو يأخذها لمشاهدة سلامة حجازى والاستماع إليه.. صوت قادم من الجنة. نظر إليها وأمعن النظر فى وجهها. قال لنفسه الياشمك يزيدها جمالاً.

قالت له:

- أنا اتأخرت ياسى نور الدين.

عـاد بهـا إلى نفس الطريق، وقبل أن يصل إلى بيتها توقف ليودعها قالت لـه وهى تسرع:

- تعال بكرة الساعة حداشر فى البيت.

عـاد إلى بصيرى فوجده متوترًا من الانتظار. يريد بصيرى أن تحدد علاقة حب نور الدين بعطيات.

- يـا أخـى خمسين جنيه دهب لرحلة فى السودان مش حتغرم فيها مليم واحد.
- ولا مليون يا بصيرى.

غير بصيرى موضوع الحديث، إنه لم ييأس بعد من نور الدين:

- شكلك متغير.. سعيد.. أصله أنت شكلك ميتغيرشى إلا لما تكون سعيد... يا ناوى تمد إيدك.
- لأ سعيد..

تغير وجهه ثانية وهو يقول له:

- لكن يا بصيرى أنا خايف أكون بغضب ربنا.
- بتغضب إيه يا بنى آدم.. أنت حجر والا صخرة.
- جايز لتنين.. أنا الأيام دى مش عارف حاجة.
- يا أخى متفكر، خمسين جنيه دهب يجوزوك أربع نسوان... يا أخى بدل متتعذب متتجوز وتخلص.
- أجوز ازاى لازم أبعت البلد والبلد ترد وتوافق.. وفلوس.

- ياخى آدى خمسين جنيه دهب.
- يا بصيرى خلى فلوسك. مش رايح السودان.

انتهى الحوار بينهما وجلس نور الدين ليقرأ. وقف طويلاً أمام الكتاب. لم يفتح منه غير صفحة واحدة. لم يكن قادرًا على التركيز ومتابعة الكلمات فقد كان ذهنه غائبًا مع عطيات.. طالت جلسته.. أرهق.. توقف للصلاة.. جلس بعد الصلاة متألما فقد اقتحمت عليه عطيات صلاته. أخذ يستغفر الله. هل دخل الشيطان قلبه؟ فهذه أول مرة تقتحم ذهنه ساعة الصلاة أفكار بعيدة عن الله. إنها تجربة. دعا الله ألا يجعل للشيطان على قلبه سبيلاً.

طلب نور الدين من بصيرى أن يلبس فقد قرر أن يخرج لزيارة الحسين.

- أنا قاعد فى البيت.. روح لوحدك.

بصيرى يفكر فى السودان.. الجمال هناك فى انتظاره وهو فى حاجة إلى نور الدين ليساعده على إحضارها، كيف السبيل إلى إقناع هذا الرجل ذى الرأس الحجرية؟ ليس أمام بصيرى إلا الصبر، لن يغادر مصر دون نور الدين ولكن كيف؟ أصاب بصيرى الضيق. لبس جلبابه الأبيض وخرج مع نور الدين لزيارة الحسين. سارا صامتين حتى دخلا المقام. أخذ نور الدين فى صلاة لم يقطعها غير آذان العصر.

تصور بصيرى أنهما سيخرجان بعد الصلاة إلا أن نور الدين استمر يقطع الصلاة بالتسبيح ويقطع التسبيح بالصلاة.

- إيه فيه إيه يا نور الدين.. استشيخت قوى كده. يلا بينا.
- روح أنت يا بصيرى أنا جاى بعدك.

تركه بصيرى وأخذ يلف حى الحسين يخرج منه إلى دروب الأزهر وخان الخليلى يتابع الفتيات بنظراته. نساء القاهرة ليس كمثلهن نساء، كورود الصحراء فى الشتاء قوية الرائحة عظيمة الجمال.. إنه ينقل عينيه فما أن يتركا واحدة حتى يلتقيا بأخرى تفوقها جمالاً.

غربت الشمس وغربت معها الفتيات فعاد إلى المنزل، ولم يجد نور الدين. أخذ الظلام يلف المنزل فأشعل ضوء مصباح غازى. ألقى بجسده على سرير جريدى فى انتظار نور الدين الذى لم يعد إلا منتصف الليل. كان أسيان حزينًا.

- يا نور الدين عامل فى نفسك كده ليه.. علشان بنت.. القاهرة فيها آلاف البنات كلهم حلوين.

لـــم يرد عليه فهو يعلم أن بصيرى لا يفهم أحاسيسه. خلع جلبابه، وارتمى علـــى سرير مجاور لسرير بصيرى، نظر إليه، شعر باعزاز شديد لـــه، فهو ابن الصحراء يطلق لنزواته العنان فلا يحدها شىء، الحرام عنده ما يؤذى أحدًا أما ما يخصـــه فـــلا حرام فيه ولا حلال. لا يعقد أمرًا. الحياة عنده طريق مفتوح له ألف بـــاب... لا يكره منه شيئًا غير علاقته بالمرأة فهو لا يراها إلا أداة للمتعة يحبها كما يحب الشمس والقمر والنجوم إلا أنه يملها وينتقل من واحدة إلى أخرى كأنما هـــى طريق صحراوى يعبره إلى طريق آخر. ولايهمه أى طريق يسلك طالما أنه سيصل إلى النهاية.

- بتكلم نفسك يا نور الدين.
- لا يأخى نام.
- أنت مش هتروح السودان... أنا محتاجلك.
- بقول لك نام.
- تعرف أنت ياللى عاملّى شيخ وولى إنت عاوز لك واحدة كده زى رفيقة علـــيها غـــنج يـــا نور الدين... إنما غنج... تعرفك إن الله حق... أى والله... الله حق.
- اتق الله يا بصيرى... واسكت.
- أنـــت بتتقـــيه لينا احنا لتنين... والله مرضى أكون زيك ولو تضمن لى الجنة... حابس لى نفسك زى ما تكون سجن وسجان.

رفع نور الدين صوته...

- نام يا شيطان... نام... بقول لك نام.

ونـــام بصيرى واستغرق فى النوم بينما لم تغفل عين نور الدين حتى سمع صـــوت آذان الفجـــر. قـــام وخرج ليصلى الفجر فى المسجد. وعندما أقفل الباب اســـتيقظ بصـــيرى وبقـــى علـــى فراشه يحلم بعالم الجمال... السودان... المرأة القاهـــرية ثـــم سأل نفسه أيهما أجمل المرأة الكردفانية أم القاهرية؟ وجد السؤال سخيفًا فليس هناك أجمل من القاهرية. تأسف لأنه ليس لديه وقت لمعرفة الإجابة الحقيقية على هذا السؤال فهو لابد أن يرحل إلى السودان ومعه نور الدين. ولكن كيف يقنعه؟ لن يعدم وسيلة لإقناعه.

توقــف بصيرى عن التفكير فى هذا الموضوع حين سمع صوت الباب يفتح ويرى نور الدين داخلاً إلى الحجرة:

- صليت يا خوى... صلى خلى ربنا يفتح علينا.
- إيه يا بصيرى متنام.
- فيه مشكلة شاغلانى.. أنهى أحلى المرأة الكردفانية ولا القاهرية.
- يا شيطان نام.
- أنام إيه؟ الشمس طلعت.

قام بصيرى ليعد طعام الإفطار. وجلسا معًا يأكلان ونور الدين صامت. وبعد أن انتهى من طعامه لبس جلبابه ولف عمته على رأسه وخرج. بصيرى يقول فى نفسه غريب نور الدين يعذب نفسه دون مبرر.

* * *

قضى نور الدين وقته، منذ أن ترك عطيات، فى صراع شديد بينه ونفسه.. أيذهب إليها أم لا؟ فقرر ألا يذهب إليها فى موعدها وألا يراها ثانية. أحزنه قراره ولكــنه صــمم عليه. ضاق بنفسه فخرج من المنزل، وأخذ يسير فى حى الحسين دون هدف واضح توقف عند مقهى الفيشاوى. جلس على كرسى وطلب كوبًا من الشــاى الأخضــر. جــاءت إلــى ذهنه عطيات حلوة جميلة رائعة الفتنة استسلم للصــورة التى يراها ولم يحاول أن يبعدها.. جاءته فكرة لماذا لا يراها ثانية؟ هذا غــير مبرر. سيتزوجها سيكتب لوالده خطابًا يبلغه بقراره ليرى رأيه ورأى عمه وأهله. والده وعمه لن يعترضا على قراره فهما يحبانه وسيسعدان بهذا، المهم ألا يعــترض أحد من المشايخ الكبار فى العائلة وبالذات عم أبيه السيد يوسف. ولكن لمــاذا يعــترض؟ فهــو شيخ كبير مرفوع عنه الحجاب وسيرى عذابه وسيعرف ويوافق.

قام واشترى بربع مليم ورقًا وظروفًا وعاد إلى المقهى ليجد الشاى الأخضر علــى الطاولــة. وقبل أن يمد يديه إليه أخذ فى كتابة خطاب مختصر لوالده يبلغه بعــزمه علــى الــزواج ويسأله رأيه ورأى عمه الشيخ أحمد أبو الدقون. وضع الخطاب فى مظروف ثم شرب الشاى وسار نحو البوسته بشارع الأزهر.

وضــع الخطــاب فى الصندوق. توقف لحظة لا يدرى ما يصنع. أيذهب إلى

جـــامع الأزهـــر؟ معظـــم المشـــايخ قد ذهبوا إلى بلادهم وليس هنا إلا القليل من زملائـــه؟ لـــم يتحمس لفكرة الذهاب إلى المسجد. احتار، أيذهب إلى البيت؟ فكرة معقولة ولكنه بدلاً من أن يتجه إليه سار فى الطريق المؤدى إلى بركة الفيل، حتى وصل إلى بيت عطيات. طرق الباب وهو مسلوب الإرادة لا يفكر فى غير رؤيتها. فتحت له عطيات، نظر إليها لا يعرف ما يقول:

- ادخـــل مفـــيش حد فى البيت أمى راحت القرافة تزور أخوها وأبويا فى المحل.

دخل دون تردد. أجلسته فى حجرة الجلوس. تحركت برشاقة الغزال، آه ما أجملها..

- تفطر يا نور الدين.
- اقعدى.
- لأ حعمل شاى الأول.

يذكر نور الدين أنه لم يتردد لحظة، لم يشعر بخوف من مفاجأة عودة أمها أو أبيها، لم ينتبه شعور اللص الذى يسرق ولا الإحساس بأنه يقدم على عمل غير شـــرعى لا يلـــيق بـــه. إنـــه لم يهتم بأى شىء... سيحارب الدنيا من أجلها... سيأخذها.

- عادت بالشاى وجلست على الكنبة أمامه.
- إزيك يا نور الدين...

يـــبدو أن الفتاة لم تجد ما تقوله فهو لم يشجعها على الكلام، ولم يحاول أن يخلق حوارًا.

- أبويا بيشكر فيك كتير وفى عيلتكم.

ماله الآن وكلام العائلات، ليتها تقف ليراها كلها.. جسدها مع وجهها.

- عطيات.
- أيوه يا سى نور...
- ممكن أشرب...
- عينى...

آه... الصوت وطريقة الكلام... لم يتعود نور الدين ذلك فهو لم يعرف غير تلك الأصوات الخشنة التى تخرج حروفـــًا قاسية بلا لين.

عـادت إليه ممسكة كوب ماء... اقتربت منه. نظر إليها وهى تقدم الكوب أمسـكه دون أن يسـحبه مـن بين يديها. لمس يدها... اهتز، واهتزت... وضع الكـوب علـى منضـدة مجـاورة وبسرعة رفع يده اليمنى لتمسك بيدها وعيناه تتركزان على عينيها.

نظـرت إلـيه، سبحت فى عينيه آه.. إنهما ساحرتان تضيعان قدرتها على التفكير. تفقد التوازن، هل يدرى ما صنعت عيناه بها منذ أن رأته أول مرة يحادث والدهـا فـى تأجير منزلهم فى الحسين. جعلتاها لا تنام الليل وهو لا يعرف أنها موجودة.

نظر إليها... غرق فى عينيها... آه منهما.

هل تعرف ماذا صنعت عيناها فيه منذ أن رآهما.

سحب يدها فتجاوب جسدها مع حركته. وقف... أمسك بشعرها... قربها... لـم تقل شيئًا... تشجع... ضمها إلى صدره، رمى بها فى حنان بالغ إلى الكنبة. وضـعت يديهـا على خديه ثم أخذت تنظر إليه فى حب عميق... ضمته إليها... لمس شفتيها بيديه... قبلها... تحركت يده على جسدها... عراها... أخذ ينظر إلى الجسد. ويدها اليمنى ممسكة بيده... يا إلهى هذا أول جسد عار لامرأة ينعم النظر إلـيه. خطوطه مثل خطوط جسد صاحبته التى كانت تصلى معه فى البرية... لون البشـرة صاف صفاء ماء النيل وضوء الشمس ينعكس على صفحته. سحب يده اليسرى وانطلقت يداه تلمسان الجسد وهما يتحركان حركة غير منتظمة فوقه. مد يديه إلى صدرها... عراه... توقف. اتسعت حدقة عينيه. رفعت وجهه أخذت تنظر إليه. شعر بالرغبة فى ضمها... تحركت يداه على جسدها. شعر بدفء فى داخله أحـس بأنـه يـريد أن يشـبع ظمأه بحرارتها شد نفسه من بين يديها... لمس شـعرها... أخذ يغطى به الجسد... انتفضت عروقه، أحس بالرغبة فى الالتصاق بالجسـد... يصدر منها أنين الرغبة. يدفعه نحوها وتتصاعد الرغبة فى احتوائها فـيقف ليرفع جلبابه ويخلعه أعاده ثانية... نظر إليها نظرة المشدوه التائه. اتجه نحو الباب وصوت الفتاة ينطلق حنونًا إلى سمعه:

- أنا بحبك يا نور.

لـم يـنظر خلفه.. فتح الباب وأخذ يسرع هاربًا إلى منزله.. ارتاع بصيرى

عــندما رآه.. كــان يــبدو كمن خرج من الجحيم.. احمرت عيناه..برزت عروق وجهه.. التوت شفتاه.

صرخ بصيرى:

- إيه فيه يانور...؟ إيه فيه؟

نســى بصــيرى السودان والجمال، ولم يعد يهمه شىء إلا نور؛ إذ لابد أن شــيئًا قد حدث لــه فهو لم يرد عليه. دخل حجرته وأقفل بابها على نفسه. طرق الباب عليه كثيرًا. حاول أن يكسر الباب صرخ نور...

- يا بصيرى سيبنى فى حالى. واسكت.
- يا نور إيه فيه؟
- مافيش حاجة.. سيبنى فى حالى.

توقف بصيرى فقد أصابته الحيرة ولم يدر ما يصنع؟ فقرر أن يلزم الصمت فهو يعرفه جيدًا، لن يقول لــه شيئًا إلا حين يرغب من ذات نفسه أن يقوله، يعلم أنــه تعود أن يعيش همومه بمفرده. ولقد أدرك أن هذا همُ فريد فى حياة نور همُ من نوع آخر.. سرح بصيرى، ربما يكون الحب، فهو لا خبرة لــه بعالم النساء.. ليته يقول له مشكلته فهو خبير بهن عليم.

لم يكن بصيرى يعرف أن نور يسكب الدموع ألمًا لما صنع اليوم، لقد أحس أن إبليس نفسه هو الذى وقف وراءه، أفقده البصر والبصيرة، وضعه أمام نزواته الــتى لــم يتصور يومًا أنه يملكها، لقد تعود كبح جماح نفسه حتى انقادت لــه. قســى علــى الخاطئين.. آه يا نور طردت صديقًا من البيت؛ لأنه نظر خلسة إلى جسد امرأة.. وها أنت تقتحم بيتًا دون إذن من صاحبه لتعبث بحرماته. يؤلمه أنه صــنع كل ما صنع بعطيات دون تردد، لم يكن يشعر بأنه يفعل حرامًا. كانت نفسه مطمئــنة إلــى فعله، إنه يكتشف فى نفسه القدرة على فعل أشياء لم يكن يتصور نفسه بقادر حتى على التفكير فيها.

لمــس وضم وقبل ورأى جسد الفتاة، ملأ يديه وجسده وعينيه بشظايا من نــار جهنم بل بنار جهنم السابعة. ولا غفران لك يا نور. أنت لا تستحق حتى هذا الاسم نور، والدين أيضًا، هذا كثير عليك فلتمسى من الآن ظلامًا، هذا حسبك وهذا حقك. رفع يديه إلى السماء:

- يا رب إنى أحترق.. كيف أصل إلى الغفران.؟ يا رب إنى عاص.. كيف السبيل إلى عفوك؟

يستمع بصيرى إلى أنين نور ولا يعرف ما يصنع.. لم يخرج يومًا كاملاً من حجرته، لم يأكل، لم يشرب، لم يتوضأ ليصلى ماذا حدث له، ما يرهق بصيرى أنه لا يعرف؟ ولا يستطيع المساعدة.

صرخ بصيرى:

- يـــا نور خمسين جنيه دهب تزوجك عطيات.. أزودهم عشرين مقدرشى أدفع أكتر من كده.

يـــبكى نـــور حين يسمع بصيرى. كان يمكن أن يكون ذلك قبل أن يصنع ما صـــنع، أمـــا الآن فلن يزيل خطيئته كل ماء بحار الدنيا آه يا إلهى، واستغرق فى البكاء.

يعود بصيرى ثانية إلى قلقه فقد مر يومان ونور لم يشرب ولم يأكل شيئًا.

- يا نور حرام عليك نفسك.. أنت بتنتحر كده.. ده حرام.

ليـــته يموت ليرتاح من هذا الإحساس المروع بالخطأ.. لم يحدث هذا لأحد من أهله. لقد قاومهم ليذهب إلى الأزهر ليكون شيخًا عظيمًا وقبل أن يحقق شيئًا من أحلامه يسقط فى الخطيئة، إنه لم يحقق علمًا ولا فضلاً.

يومـــان لم ينم فيهما لم يأكل ولم يشرب. لا يشعر بحاجة إلى الطعام. قتلت فـــيه الرغـــبة فـــى الحـــياة فلا يريد أن يرى أحدًا ولا يراه أحد، إنه مدنس بفعل الشيطان. الظلام يلف جسده وقلبه وروحه.

تعب فأقفل عينيه وقبل أن يستغرق فى النوم سمع صوت بصيرى يناديه:

- يا نور افتح.. كل لك لقمة واحدة..

بصـــيرى خير منه يعيش حياته دون ادعاء، يصنع ما يريد، لا يخفى شيئًا من حياته.

لا تتبدى بصورة القديس وتصنع صنيع الشيطان.. أنت منافق يانور.. ارتفع صوته:

- يارب.. كيف السماح؟

الساعات تمر على بصيرى مرهقة. صديقه فى محنة لا يستطيع لها دفعًا. واليوم الثالث فى طريقه للانتهاء ونور لا بد أن يقتله العطش والجوع. لن يستسلم بصيرى لنور ولن يتركه لنفسه. أخذ يدفع الباب بقوة حتى كسره، فوجده راقدًا منهوك القوى ضعيف الحركة، لم يستطع حتى أن يصرخ فى بصيرى كعادته حين يصنع شيئًا لا يرضيه. أجلسه بصيرى وهو يسنده على صدره ووضع كوز ماء فى فمه. يمج نور الماء يسيل على ملابسه.

- اشرب يانور... اشرب يا أخويا.
- ابعد يا بصيرى... ابعد عنى.

لماذا يشرب؟ أليعيش؟ وهل يستحق الحياة؟ وقد خان كل ما كان يؤمن به؟

ولكن بصيرى لم يبتعد، أصر على أن يشرب ولم يتركه إلا بعد أن شرب. قدم له طعامًا. لم ينجح بصيرى فى أن يجعله يأكل. فكر أن يذهب لعميه أبو الحجاج وحسين علهما يساعدانه فى إقناع نور بأن يأكل. تردد بصيرى فهو لا يريد من أحد أن يرى نور فى هذه الحالة فهو يخفى سرًا. ومن الخير ألا يقحم أحدًا فى هذا الموقف، لكن اليوم الرابع انتهى ونور يأخذ فى الضعف.

- إيه فيه؟ قل لى.. أنا أخوك.

أخرج نور كلماته ضعيفة خجلة:

- خنت الله يا بصيرى.
- يا أخى الله غفور رحيم.

لا شك أن إيمان بصيرى بالله أقوى منه، فهو يراه غفورًا رحيمًا، أما هو فيراه جبارًا منتقمًا. بصيرى لم ينافق أما هو فنافق ربه. ادعى لنفسه مالا يمثل حقيقته، لقد تكشف على الحرام، وهمَّ بالزنا لولا أنين المتعة الذى تعالى من فتاته والذى أخذ يحركه نحوها ويذكره أيضًا بأنه يفعل المنكر لتم كل ما أراد الشيطان.

أخذ يتمتم بالآية الكريمة فراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله ثم رفع صوته، قلبت الآية يا نور.. قلبت الآية.

بصيرى يرجوه أن يأكل فلا يسمع منه إجابة غير دموع يسفحها.

مــر الــيوم الخــامس جلد نور يدهش بصيرى. إصراره على ألا يأكل غير مفهــوم لـــه. جسده يزداد ضعفًا ليس الطعام وحده مصدر تعبه فهو يعذب نفسه مــن الداخل، قال بصيرى لنفسه لا بد أن أصنع شيئًا. ذهب إلى منزل عبد الرحيم العطار. وجده حزينًا فابنته أيضًا مريضة. تركه وانصرف فعالم نور كله مريض.

عاد إلى نور فى المساء.

- يا نور عطيات عيانه وباين عليكم حتموتوا سوا.. ياخى كل...

قوم.. اصح..

وضـــع له ملحًا فى الماء وأسقاه إياه، عينا نور تتمركزان فى السقف تائهة بعيدة عنه.

- يا نور قوم صلى.

كيف يواجه الله فى صلاته وقد خانه.

نـــام بصــــيرى فقـــد أجهـــده نور. الحياة معه أصعب بكثير من الرحلة فى الصحراء ومفاجآتها.

استيقظ بصيرى على آذان الفجر.

- قوم يا نور صلى.. يا أخى رد.

جلس بصيرى على الأرض وقد شعر بالعجز عن صنع شىء لنور، ولو أنه استمر على ذلك أيامًا فلابد أنه ميت، لن يجلس هكذا مترقبًا هذه اللحظة، سيصنع أى شـــىء حـــتى يأكل ولو اختطف عطيات وجاء بها إلى هنا. آه يا نور لماذا لا تأخذ الحياة ببساطة؟

لـــم يكـــن بصيرى قد استقر على شىء محدد يصنعه حين فتح الباب ورأى الشيخ الطيب يسير فى الصالة ويدخل على نور حجرته.

انخلـــع قلب بصيرى من المفاجأة، واسترد أنفاسه ليحمد الله على حضوره، فقد أدرك أن مشكلة نور قد حلت، فوقف مكانه لا يستطيع حراكًا.

رفع الشيخ الطيب صوته بحنان الأب:

- يا نور الدين... يا نور الدين.

رآه نـــور... عرفه... تمنى لو مات قبل أن يولد على أن يراه الشيخ الطيب ملوثـــا بالخطيئة... التف حول ذاته... تداخل... أغمض عينيه حتى لا تريا الشيخ وكأنمـــا يخفـــف بذلـــك من حدة إحساسه بالخجل منه. فلقد افتضح مع الله ومع الناس.

عـــاد الشيخ الطيب إلى ندائه وقد رق صوته رقة صوت الطائر المتفانى فى عالم الحب:

- يا نور الدين... يا نور الدين.

افتح عينيك يا نور الدين لترى الحقيقة... لترى النور... لترى الحب.

فتح نور عينيه:

- شيخنا...

خرجت كلمته مبحوحة حزينة.

- يا نور الدين أتقتل نفسك؟

أخذت الدموع تتساقط من عينيه واستمر الشيخ فى قوله:

- يـــا نور الدين قرأت آية وتركت آية... نسيت همت به وهم بها لولا أن رأى بـــرهان ربه. ولقد رأيت برهان ربك... يا نور الدين إن الله جميل يحب الجمال فأراك الجمال لا ليفتنك وإنما ليثبتك ولقد ثبتك الله.

يـــا نـــور الديـــن الحـــب طريق محفوف بالمخاطر ومن أرادنا فلابد أن يخاطـــر. وطريقنا طريق الحب... فهو نور السماء وروح الأرض وقلب الإنســـان... مـــن لا يعـــرف الحب لا يدخل طريقنا... من لا يعرف حب الناس لا يعرف حب الله.

يا نور الدين إن الله حبيب محب يحب الأحباء... وسيلته حب واستغفاره حب ورحمته حب...

يـــا نـــور الديـــن لا تفسد الحب بالقنوط من حب الله، فحب الله رحمته وسعت كل شىء.

اختـــبرك الله بالحـــب لـــيعلمك الرحمة ويملأ قلبك بنور الحب فهو نور الإيمـــان. إنما يملأ الله قلب عبده بالإيمان حين يملؤه بالحب فلا إيمان بغير حب ولا حب بغير إيمان.

فالله لم يعط الإنسان اسمًا من أسمائه غير اسم واحد هو: الحبيب.
فاسـكن أيها الحبيب للحبيب ولا تفسد الحب بالقنوط. ستتزوجها يا نور الدين...

اسـترد نور الدين قوته. قفز نحو الشيخ وأخذ يقبل يده. سحب الشيخ يده وقبل رأس نور الدين وأجلسه. وغاب عنه من حيث أتى.

انتعشـت روح نور الدين كما انتعش جسده وعادت إليه الحياة ثانية وأكل كثيرًا وقبل أن ينتهى من طعامه نظر إلى بصيرى الذى اكتسى وجهه صورة الأبله من الدهشة. فهو لم يستوعب ما حدث.

- أنت قلت سبعين جنيه دهب.

رد بصيرى وهو مازال فى ذهوله:

- أيوه قلت.
- وأنـا حـروح أجيب الجمال معاك من أى حته إن شاء الله تكون النوق العصافير من أرض النعمان.

عاد بصيرى إلى نفسه وهو يرد على نور الدين:

- يـا سـلام يا نور الدين... دى حتبقى رحلة العمر بعديها مش حتسلى السفر.
- مش لازم تفكر فى بعديها... أنت معاك كام منهم دلوقت.
- عشرين وبعد منرجع تاخد الخمسين.
- طب هات العشرين.
- بعد الضهر.
- لا... دلوقت.

أخذ نور الدين النقود ثم لبس ملابسه.

- زينة الرجال يا نور الدين

لـم يـرد على بصيرى... تركه وخرج متوجهًا إلى بيت عميه أبو الحجاج وحسين.

كـان الصباح فى أوله فوجدهما يستعدان لتناول الإفطار. يتعجب لنفسه لقد شاركهما الطعام وكأنه لم يأكل منذ ساعة واحدة.

كلم عميه عن رغبته فى الزواج، عارض حسين فى أن يتم الزواج قبل أن يصل رأى العائلة فهذا أمر خطير لا يجب أن يتقرر فى مجلس العائلة الصغير فى القاهرة. كان رأى أبو الحجاج أن يتم الزواج فهذا شرع الله يمكن أن يتخطى فيه موقف الأسرة.

رفع حسين صوته:

- ده ميجوزش.

أبو الحجاج:

- ليه ميجوزش؟

تكلم نور الدين:

- الشيخ الطيب جانى انهارده وادانى الإذن بالزواج.

تعجب حسين من قولـــه:

- الشيخ الطيب مش فى القاهرة!
- لكن جانى!

ابتسم الشيخ أبو الحجاج:

- هو من أهل الخطوة.

رد حسين:

- أنا مآمنشى بالحاجات دى.

قال نور الدين:

- أنا متأكد أنه حيصلى المغرب فى الحسين.

تصاعد الجدال بينهما حول أحقية نور الدين فى الزواج ولم يرد أبو الحجاج أن يطيل الجدل فى الموضوع:

- إذا كان الشيخ الطيب هنا ناخده معانا ده أبونا كلنا... مش كده والا إيه؟

كـــان صمتهما يعنى الموافقة. وتركهم نور الدين على موعد أن يلقاهما فى صلاة المغرب فى الحسين.

مـــرت الساعات بطيئة حاول أن يقطعها بشراء حاجيات لعروسه من سوق الموســكى، اشترى لها ذهبًا وقماشًا حتى انتهت نقوده قرر أن يذهب إلى المنزل

لـــيأخذ نقـــودًا من بصيرى فلم يجده. لقد غاب بصيرى ولم يعد إلا قبيل الغروب. ليخبره أنه لم يعد يملك غير مصاريف الرحلة.

أخـــذ نـــور الدين بصيرى إلى مسجد سيدنا الحسين ليلتقى بعميه. ويصلوا جمـــيعًا صـــلاة المغرب فى المقام. وبعد الصلاة طافوا حول المقام فوجدوا الشيخ الطيب جالسًا يتمتم بورده.

وعـــندما أحـــس بـــنور الديـــن أمسك بيده وأجلسه بجواره وسلم على أبو الحجاج وحسين وبصيرى وقد التفوا فى نصف حلقة حوله.

وجه الشيخ الطيب كلامه إلى أبو الحجاج وحسين وقال:

- اتفقتم يا مشايخ... يلا بينا على بركة الله.

توجهوا إلى بيت الحاج عبد الرحيم فسر بزيارتهم سرورًا عظيمًا.

فاتحـــه الشيخ الطيب فى رغبة نور الدين فى الزواج بابنته رحب الرجل إلا أن غمامة حزن طافت على وجهه.

- بس يا سيدنا الشيخ هيه عيانة. رد عليه الشيخ الطيب:
- إن شـــاء الله تشفى... بس انت قل لها الشيخ نور الدين والمشايخ هنا عاوزينك.

ذهب الرجل وعاد فرحًا:

- هيه جايه يا سيدنا الشيخ.

كان من رأى الشيخ الطيب أن يكتبوا عقدها الليلة وأن الهدايا التى أحضرها نور الدين هى شبكتها أما الدخلة فتؤجل.

صمت الشيخ قليلاً ثم قال:

- سيدبر نور الدين المهر... وما يصنعه الله بعد ذلك فهو أمره.

لم يعلق نور الدين على كلامه فهو متأكد أنه يعلم بأمر رحلته وإلا لما ذكر العقد وتأجيل المهر.

رحب الحاج عبد الرحيم بالفكرة.

- ده شـــرف كبير إن إحنا نناسب المشايخ الأشراف... والله عطيات دى

غالـــية عليه قوى... وتسفيرها الصعيد شىء صعب على نفسى لكن أنا موافق علشان خاطركم. ونور الدين أصله غالى على كمان. وهيه هدية مننا ليه.

قاطعه نور الدين:

- المهر خمسين جنيه دهب حدفعهم بعد مرجع م السودان.

فوجـــئ أبو الحجاج وحسين بخبر رحلته إلى السودان ولم يعلقا على ذلك. فقد حضرت عطيات. نظر الرجال الثلاثة بصيرى وأبو الحجاج وحسين إليها.

أقســـم بصيرى أن هذا الجمال لا تعرفه الملائكة والجن والإنس. هذا شىء مختلف عن كل جمال رآه أو تصوره. قال فى نفسه وقعت يا نور الدين وقعه.

قال أبو الحجاج لنور الدين بعد وقت طويل من هذا التاريخ قضيت أسبوعًا أستغفر الله من نظرتى لها فقد كانت فتنة تمشى على الأرض. ذكرها حسين بشكل عابـــر لامـــرأته بأنهـــا كانـــت تشبه المساخيط وقد حدد حسين لزوجته صورتها بأنهـــا تشـــبه بـــالذات أجملهم وكأنها صورة الملكة المرسومة على جدران معبد الأقصر التى تحمل طفلها بين يديها. لكم هى فاتنة!

تمتم حسين الملك لله.

لـــم تـــتوقف أحاسيس الإعجاب بالفتاة بعد أن خرجت، وحتى بعد أن انتهت مراسيم الزواج الشرعية.

كتـــب عقـــد الزواج، كان وكيله الشيخ أبو الحجاج كما كان وكيلها والدها وشـــهد العقـــد حســـين وبصيرى بينما كان الشيخ الطيب يلقى الصيغة الشرعية للزواج.

خرج نور الدين مع صحبه وهو أسعد الناس جميعًا.

لـــيلة لم تتكرر فى حياته لم يصنع فيها شيئًا مختلفًا، ولكن أحاسيسه كانت مختلفة تمامًا عن ذى قبل.

لقـــد تـــركهم الشـــيخ الطيب ومضى بصحبة نور الدين رافضًا أن يصحبه شخص آخر.

قال بصيرى لنفسه: هذا سر.

مشى أبو الحجاج وحسين إلى منزلهما واتجه نور الدين ومعه بصيرى إلى زميل سكنه القديم الذى طرده من البيت ليعتذر له، بصيرى يتعجب من نور الدين فهو يعتذر ويعترف بأنه أخطأ. إنه يتغير لم يعد الشخص القديم. ما أجمل صحبتك!!

أخذ بصيرى ونور الدين بعد ذلك يستعدان للرحيل فقد قررا أن يسافرا الأسبوع القادم صباح الخميس، ذهب ليلة السفر إلى بيت عطيات، جلست معه فى صحبة أبيها وأمها ثم تركاه معها. كان الأب يأمنه ويثق فيه ويأمن ابنته ويثق فيها وعلى كل فهى حلاله.

كانت ليلة. ضمها قبلها... رأى جسدها دون أن يشعر بتأنيب الضمير ودون أن يمزقه الشعور بالإثم.

طلبت منه أن يأخذها معه إلى السودان. قال لنفسه، إنها لا تعرف المشاق التى سيواجهها. وقالت لنفسها لماذا يذهب نور الدين الحبيب إلى السودان ويتركها وحيدة هنا؟ لقد مرضت حين تركها، وغاب عنها والآن يتركها ليغيب مدة طويلة. طلبت منه أن يدخل عليها. قال لها:

- بعد مرجع... جايز أموت هناك.

صرخت الفتاة وبكت.

- بعد الشر.. لازم ترجع يا نور الدين وإذا كنت مسافر علشان تجيب المهر بلاش منه.. أبويا بيحبك وهو مش عاوز منك مهر.
- مش لازم هو يعوز أنا لازم أجيبه ليكى... دى الدنيا كلها أقل من مهرك لو عاوزه نوق النعمان وقميص بنته أجيبهم لتنين.. وده مش كفايه..

ولم يدعها تحاوره إذ جذبها إلى صدره ثم عاد ليقبلها قبلة لا تنقطع إلا ليستردا أنفاسهما. لم يتوقفا إلا حين سمعا صوت آذان الفجر فودعها ومضى إلى المسجد ليتوضأ، ويصلى الفجر وهو أكثر الناس إحساسًا بالسلام.

عاد إلى المنزل فوجد بصيرى فى انتظاره وقد أعد حاجيات السفر. حملاها وركبا عربة حنطور واتجها إلى محطة مصر.

ركب القطار مع بصيرى وتوقفا فى أسوان ليركبا الباخرة حتى وادى حلفا، ومنه أخذا مركبًا بخاريًا يتجه بهما إلى دنقلة.

مــرت أكــثر مــن ثلاثة أشهر قبل أن يصل نور الدين وبصيرى إلى سوق الجمال بفرشوط.

بقــيا يومًا واحدًا فيها ثم ودعا خبراء الجمال ورعاتها، الذين ركبوا القطار إلـــى أسوان ومنها إلى السودان ثم ركب بصيرى ونور الدين القطار متجهين إلى القاهرة.

أخــذ القطار فى رحلته يومين قبل أن يصل إليها، قلق الانتظار أشق عليه مــن رحلـــة درب الأربعين. إنه يريد أن يصل إليها، يراها وتراه محملاً بمهرها. انطلق إلى بيته، وجد خطابًا من والده فى انتظاره، سعد بالخطاب فقد كان يتضمن موافقته وموافقة أهله، استحم ولبس ملابس نظيفة ومضى وهو مملوء شوقا إلى عطيات.

تــرى مــاذا تقول حين تراه؟ هل تعرف مدى الجهد الذى بذله ليحصل على مهــرها؟ هل تدرك صعوبة المخاطرة؟ إنها تستحقها وهو على استعداد لأن يأتى بالجمال من بلاد واق الواق.

وصـــل إلـــى بيــت عطــيات وقلـــبه يخفق وجسده يرتعش. سيتزوج هذا الأسبوع.. بل الليلة.. إنه لا يحتمل تأخير الزواج أكثر من ذلك.

طرق الباب فتحت له الأم، وجهها مصفر ممتعض، نظر إليها، دهش للتغيير الذى حدث على وجهها، ارتعشت شفتاها، اهتزت عيناها تقلصت عضلات وجهها وهى تنظر إليه ثم أخذت تصرخ فى هيستيرية...

- ماتت... ماتت عطيات... ماتت... ماتت يا نور الدين... آه... آه... آه يا بنتى.

اهتزت الأرض تحت قدميه.. احتبس الكلام فى حلقه ضربت منطقة الشعور فيه. وقف صامتًا لحظة، والمرأة مازالت تصرخ:

- ماتت يا نور الدين ماتت بنتى الوحيدة... ماتت...

تسمرت عينا نور الدين فى الفراغ. توقفت المرأة عن الصراخ. أخذت تنظر إلـــى وجهــه الذى تحول إلى صورة مخيفة. احمرت عيناه الواسعتان وقد ازدادتا سعة. فتح فمه لحظة قبل أن تخرج صرخة حارقة..

- ما... ما... ماما... تت.

يبدو وكأن فمه أصيب بشلل، ثم خرجت الصرخة واضحة.

- ماتت... ماتت.

رد فعـل نور الدين جعل المرأة تتحول من الألم على ابنتها إلى الألم عليه.
قالت والدموع تخرج من عينيها:

- أيوه ماتت... ماتت يابنى.

وامبارح كان الأربعين... اتفضل يا بنى ادخل.

لم يدخل نور الدين... وقف أمام الباب مشلولاً. المرأة تنظر إليه وقد توقفت دموعهـا وفجـأة جلس على العتبة فقد عجزت قدماه أن تحملاه وضع يديه على وجهه وأخذ فى بكاء عميق.

ربتت المرأة على كتفه:

- هدى يا بنى... كلنا لها... دى كانت بتحبك أوى يا بنى.

عـادت المـرأة إلى البكاء. صمتت دموع نور الدين كما صمت صوته فقد أخـذت النـيران تحـرق قلـبه. تذكر عطيات... السودان... طريق الأربعين... اللصوص... الجوع... العطش... المهر... تموت عطيات... رفع رأسه، نظر إلى السماء.

- يا ربى هذا كثير... كثير... أستغفر الله... فهذا قدرنا.

وقـف، وسأل المرأة عن عنوان مقبرتها... أخبرته المرأة بصوت مرتعش، ثـم أخذ طريقه إلى المدافن... وقف أمام قبرها... لم يبك وإنما أخذ يقرأ القرآن. استغرق فيه... ثم توقف. أخذ صوته يرتفع بنحيب مر.

يا إلهى... يا إلهى... يا إلهى.

تـرك القـبر ومضـى نحو البيت، وما إن دخل حجرته حتى أخذ فى نشيج محموم.

كـان بصيرى نائمًا فاستيقظ مذعورًا على صوت نشيجه لقد انتظره طويلاً لـيعرف مـنه ما حدث مع عطيات وأهلها. لم يكن يتصور أن يعود نور الدين فى هذه الحالة الدامية. أدرك بصيرى أن هناك شيئًا قد حدث عرفه فيما بعد، وتألم له لقد ماتت عطيات بحمى أصابت المخ... قالت له أمها إنها كانت تهذى فى مرضها باسـم نـور الدين... كانت تريد أن تراه وتخشى أن تموت قبل أن يعود، وماتت وآخر كلماتها نور الدين.

توقف نور الدين عن البكاء، ومن يومها لم يبك إلا هذا اليوم. قضى أسبوعًا فى حجرته يخلو إلى نفسه ليعبد الله. يحاول أن يستمد من الإيمان عونًا على مصيبته الكبرى. ولكن الخلوة والعبادة والإيمان لم تنفعه فالألم يضرب فى النخاع.

وعندما سمع آذان الفجر هتف:

يارب عونك... صبر الصابرين... صبر المؤمنين... صبر أولى العزم صبر موسى وعيسى ومحمد. مكروب.. مهدود... مهدود يا إلهى.

قام ليصلى، وقبل أن ينوى الصلاة فتح الباب ودخل الشيخ الطيب إليه فى حجرته.

يقسم بصيرى أنه رأى عينى الشيخ الطيب وقد اختفى بياضهما وبدا سوادهما واضحًا قويًا.. خرج منهما ضوء تركز على وجه نور الدين وهو ينادى:

- يا نور الدين... فتنت فلم تفتن، ستراها يا نور الدين فلا تفتن.

لقد عبرت... لقد عبرت... آن الأوان أن تأخذ الطريق يا نور الدين، الناس تبحث عنا ترحل الأميال لتأتينا ونحن نبحث عنك الأميال لنلقاك، امدد يدك.

مد يده إلى يد شيخه وأخذ عنه العهد وسمع نصائحه بالواجبات والفروض الجديدة عليه، ثم سحب الشيخ الطيب يده ومدها إلى صدره فى الناحية اليسرى مجاورًا للقلب وأخذ يدعو الله:

اللهم امنحه يقينًا بك... ويقينًا بالناس.

وسلامًا يدوم معه فى الحياة والموت.

خرج الشيخ وقد شعر نور الدين بعد خروجه بأن سحبًا تغطى هذه اللحظة من حياته. قليلاً ما تذهب السحب عنها غير أنه لم ينسها قط. كان يحس بأنه يعيش معها عالمًا واحدًا يفصلهما حاجز ما أسهل اجتيازه يفصل ما بين الحياة والموت. وها هى اليوم تعود إليه قبل أن ينكسر ما بين الحاجزين ليعطيها آخر جنيه ذهبى من مهرها.

لقد قال شيخى ستراها فلا تفتن.

- اللهم شكرًا.. اللهم شكرًا.. اللهم شكرًا.

قام ليصلى، وبعد أن انتهى من الصلاة أخذ فى التسبيح فبدأ صوته يهمهم.

- هو... هو... هو...

ثم انتقل منها إلى لفظ الجلالة.

- حق... حق... حق...

وتوقــف لــيرتفع صــوته بالتسبيح يا حبيب يا الله... يا حبيب يا محمد... يــا حبيــب... يــا حبيــب... يا حبيب لم يكن لفظ الحبيب جزءًا من ورده ولكنه استمر يردده فى خشوع حتى مطلع الفجر ثم ذهب إلى المسجد.

١٧

ارتمى محمود على سريره فى الحوش... الحرارة لم تهدأ... الريح متوقفة... اليوم يوم طويل وغريب... لقد مضى على وصوله إلى منزله أربع وعشرون ساعة... يوم كامل لا يستطيع أن يعد ساعاته ودقائقه وثوانيه فى حياة رجل هذا الرجل هو أبوه... هل ترك له شيئًا ليصنعه...؟ هل ترك شيئًا لأحد... هل يمكن أن تعطى الحياة رجلاً مثل نور الدين... إنه كشجرة الجميز الكبيرة تظلل الناس جميعًا، ولن يستطيع فرع أن يحمل مكانها... إنها قوية وعاقلة حكيمة... شىء واحد يريد أن يعرفه.

عزيزة... عطيات... الجنيه الذهب... حدث نفسه بصوت مرتفع آه لو عرف، ثم نظر إلى السماء فى اتجاه الغرب ليرى النجم ذا الذنب، تأمله، إنه الآن يبدو مختلفًا ولكنه جميل وعظيم ورائع... ولكن لماذا غير مكانه..؟ قلق محمود... واعتدل من نومته... هذا الرجل أى نوع من الرجال هو؟

بدأ الدجاج يتحرك حركة بطيئة ثم أخذت الحركة ترتفع تبعتها أصوات بقية الطيور... صاح ديك... وقفزت دجاجة إلى الحائط؛ إنه الفجر فقرر أن يترك والده نائمًا ويذهب إلى مسجد الشيخ أبو الحجاج ليصلى هناك. خطر له أن يوقظ والده ولكنه أشفق عليه، أراده اليوم أن ينام ويستريح من الجهد الذى بذله طيلة يوم أمس.

سار نحو المسجد وقد اختلطت الأفكار فى ذهنه، حاول أن يوقفها لم يستطع.

دخل المسجد ألقى نظرة إلى صحنه فوجد والده يصلى السنة وبجواره منوفى وقد أخذ وحيد الحفنى خادم المقام طريقه إلى المئذنة ليبدأ فى الدعاء السابق للآذان.

وبعد أن انتهى محمود من صلاة الفجر انطلق مسرعًا إلى النهر قبل أن

يــراه والـــده، نظر إلى الجميزة ثم نزل المنحدر المؤدى إلى مياه النهر، قرر أن يخلع ملابسه وينزل الماء.

لم تكن لـــه خبرة طويلة بالعوم، كانت خبرته بالسباحة محدودة بالترعة، لم يـــنزل ماء النهر إلا مرات قليلة لم يخرج بعيدًا إلى مناطق الخطر كما أنه لم ينزل هـــذه الـــبقعة أبدًا. إن حركة الماء التى تلف لفات حلزونية تخيفه، ويخيفه أكثر القصص التى تروى عمن غرق فى هذا المكان فالنهر يأخذ أضحياته هنا.

ألقى بمخاوفه بعيدًا، وشعر أن قوة خفية تدعوه لأن يلقى بنفسه فى الماء.

رمـــى بنفســـه فـــى النهر، وجد الماء ثقيلاً فى البداية وعندما اقترب من منتصـــف الـــنهر استهواه الماء واستهوته حركته، وجده يخف وكأنه يحرك بيده خيوطًا قطنية.

وصـــل والده إلى النهر فهاله أن يرى شخصًا يعوم حتى منتصفه. نظر إلى الملابـــس الملقاة على الشط فأدرك أنه ابنه. أصابه الخوف عليه فى البداية فهو ليس متأكدًا من معرفته بالعوم. أزال الخوف عنه بقراءة القرآن والدعاء لربه أن يحفظ ابنه... وأخذ ينظر إليه. إنه يغوص فى الماء، ولا يخرج إلا عندما يصل إلى الشط الآخر ثم يعود إلى سطح الماء ليغوص ثانية ويظهر فى منتصف النهر.

بـــدأت الحركة سريعة هذا الصباح على النهر فالقوارب تتحرك شرقًا وغربًا وابنه يقف فى منتصف النهر يقفز ويقفز، تستهويه الحركة فيستمر فى القفز.

شـــعر محمـــود أنه يتواءم مع الماء ويصبح جزءًا منه. إنه لا يتابع الماء ولكن الماء يتابعه وكأنه حين يرمى بجسده فإنما يرمى به فوق حاجز من المطاط يعيده ثانية إلى الهواء.

أخـــذ محمود يضرب الماء بيديه وهو يراه يزداد حمرة وارتفاعًا. نظر إلى السماء يدعو الله بدعوة أبيه أن يجعل الفيضان هذا العام رخيًا مباركًا على الناس أجمعين.

المـــاء يعلـــو... ويعلو... يعلو مع قفزات محمود والأب يتابعه ويتابع علو الماء. أحس بالراحة، فقد اطمأن أن الفيضان قد بدأ... ألقى بآخر نظرة على ابنه وهـــو يسحب نفسه نحو الشط الشرقى للنيل. أخذ طريقه إلى منزله وقد بدأ يحس بالتعب والجهد.

١٨

مر الصيف هادئًا على محمود. أصدقاؤه يظنون أنه تغير... أصبح صامتًا لم يعـد يدخـل فى أية مهاترة من مهاتراتهم أو عبث ولو كان بريئًا. كانت الأشياء تـتحرك داخله.. غطت مياه النيل الأراضى الظمأى... نقل الفلاحون ثمار الأرض إلـى الأقصر. كانت هذه الثمار سمكًا طريًا، لم تشهد مدينة الأقصر فى موسم من مواسـمها هذا الكم الكبير من السمك حتى وصل سعر أجود أنواعه إلى قرشين. وفى المساء كان الباعة يتركون بقية السمك فى السوق ليحمله من يريد حمله. لم يكـن أحد يهتم أن يشترى ثلجًا ليحتفظ به لليوم التالى. فثمن لوح الثلج أغلى من ثمـن السـمك وغدًا سيأتى الفلاحون والصيادون بسمكهم طازجًا... جمع الفقراء السمك وملحوه فى جرار... موسم غريب هذا العام لم يأكل أحد اللحم هذا الصيف. ولـم يشـتق إليه... الناس يقولون إن طعم السمك هذا الفيضان مختلف فهو ألذ سـمك أكلوه فى حياتهم. أهل الأقصر ميالون للمبالغة ولكن فى قولهم هذا شىء من الحقيقة...

انحسـر المـاء علـى الأرض وأخذ الفلاحون يسوون الأرض ويحرثونها اسـتعدادًا لزرع جديد. أخذت بشائر الزرع تظهر، وأخذت الحرارة تخف قليلاً عن المدينة. الناس جميعًا متفائلون هذا العام.

الانـتخابات ظهرت نتيجتها الأولية. إعادة بين محمد عياد والعديسى. وقف أهـل الأقصر مع محمد عياد، ووقف محمود مع أهل بلدته. أداروا معركة ساخنة تحـت شـعار الحرية والتقدم وضرب الإقطاع. نجح محمد عياد وهدأت الضجة، لـتظهر ضجة أخرى: التكوينات الجديدة للاتحاد القومى. عناصر انتهازية قديمة يلجـأ إلـيها محمد عياد. كل واحد يريد مكانًا فى الاتحاد القومى. بقية الناس لا يعـبأون بشىء، يحبون عبد الناصر ويكرهون الاتحاد القومى، أشياء لا يعرفون لهـا تفسيرًا، والأهم من ذلك نجحت شلة القطار جميعًا. وتزوجت أخته منيرة من ابن عمتها.

التغـيرات تحـدث فى حياة الناس حتى الشيخ نور الدين شملته التغيرات؛ بـدأت حركته تضعف وأخذ يشكو من تنميل فى يده. لم يعد يخرج كثيرًا، محمود يراقب والده فى قلق... الخوف ينتابه، يحاول أن يطرده، فأبوه بخير، فهو مازال قـادرًا أن يمـنع حالات الطلاق. لم يطلق أحد زوجته هذا الصيف، كثرت حفلات الـزواج. حـدد زواج حسن من ليلى يوم الخميس وصليب من تريزا يوم السبت كتـب الشـيخ عقد زواج حسن من ليلى... عاد الشيخ من منزل حسن ليجد عمه الشيخ الشافعى أمام مسجد محسب فى انتظاره يسأله أن يصلى بالناس الجمعة فى المسـجد، فالشـيخ الشافعى سيذهب إلى المطاعنة لزيارة الأحباب والمريدين... خطب الشيخ الجمعة. يذكر الناس أنها لم تكن خطبة تقليدية، لم يحدثهم عن الجنة والـنار وإنمـا حدثهم عن الحب والعطاء وعمل الخير والنية الحسنة. عاد الشيخ إلى منزله ليجد يده اليمنى ثقيلة الحركة. كان ابنه محمود بجواره وهو يحاول أن يحرك يده.

- بابا متسكتش على كده... لازم أجيب لك دكتور.
- مفيش داعى...

ولكن محمود خرج مسرعًا يستدعى أحد الأطباء، كان تشخيص الطبيب أن الشيخ مجهد يحتاج إلى الراحة... الحالة تزداد سوءًا.

حضر صليب ليدعو الشيخ إلى حفل زواجه... ابتسم الشيخ:

- مبروك يا بنى... يا ريت أقدر.

كـان صـليب يعرف أن الشيخ لا يذهب إلى حفلات الزواج، هو فقط يقوم بكـتابة العقـد ثـم يرحل، لذا لم يلح. سأله الدعاء لـه. قام صليب فقد شعر أن الشـيخ فـى حاجـة إلى أن يكون بمفرده. قبل أن يخرج صليب دخل دياب ومعه زوجـته؟ هـذه أول مرة تحضر زوجته إلى المدينة، سلمت على الشيخ ثم دخلت لتكون مع أسرته.

- إزيك يا دياب.

ظهرت على الشيخ الفرحة بحضور دياب كان يتوقع مجيئه.

سأله الشيخ:

- خير... مأمورية ولا زيارة.

- أنا اتنقلت ناظر لمدرسة الأقصر الثانوية ومراتى جايه هنا رئيسة قسم فى تفتيش الأقصر.
- عال... الحمد لله... والأولاد.
- واحد حيدخل الجامعة فى مصر والبنتين حيدخلوا المدارس هنا.

قرر دياب بعد سفره ألا يبقى فى غربته فى القاهرة وأن يعود إلى مدينته... لم يستغرقه ذلك وقتًا فى إقناع زوجته فقد بدا واضحًا عليه منذ عودته من الأقصر أنه دياب آخر غير الذى تعرفه حتى إنها خافت أن تسأله عن ثمن الأرض أو عن سـبب تغيره. كان حازمًا وجافًا، ابتعد عنها بقلبه وروحه وجسده. هجر فراشها دون سـبب واضح... إنها تعرف دياب ولا تظن أن هناك امرأة فى حياته، حاولت أن تسأله فلم تستطع، كانت عينه تبرق وكأنها قادمة من الجحيم.

انـتظرت... تألمت أن تكون صاحبة السطوة فى المنزل وعاجزة حتى عن سؤاله.

جاءها مرة بعد عودته من عمله ليعلن لها خبر قراره أنه سيسعى لينقل إلى الأقصر.

صرخت:
- إزاى متقليش؟
- أقولـك إيه...؟ أنا تعبت من مصر وعاوز أقضى بقية حياتى فى بلدى عاوزه تروحى معايا تروحى مش عاوزه أنت حره.

ردت المرأة بعنف:
- لأ مـش عاوزه أسافر من مصر بعد الأولاد ما كبروا... كنت تقول كده من زمان.
- إنت حرة.

راقبت المرأة زوجها وهو يسعى لإتمام نقله. لم يفاتحها بشىء. عرفت عن طـريق الصـدفة من وكيل وزارة التربية أن زوجها قد تم نقله، شعرت بالضيق. ذهبـت إلـى المـنزل لم تجده، أخذت تتخيل المنزل دونه. كانت قوية تشعر بأنها أقوى منه، لم يقل لها قط كلمة لا، كانت تقوده، توجهه، كانت تريد أن تصنع منه

رجــلاً آخــر. حاولت أن تقطعه عن ذلك الجذر الصعيدى غير المتحضر، تصورت أنهــا أفلحت حتى ذهب إلى الأقصر، فإذا به يعود بعيدًا عنها مستردًا كل الجذور التى حاولت أن تحرقها. ماذا حدث هناك؟ ليتها تعرف. فكرت طويلاً... لقد منحها عمــره. حــاول أن يتغير، فلماذا تتركه الآن؟ ولماذا لا ترد له ذلك الحب وتعطى للصــعيد فرصـــة؟ لقــد كبرت وربما يكون الصعيد مكانًا مناسبًا لتقضى فيه بقية حــياتها. ذهبــت فـــى الــيوم التالى إلى وكيل الوزارة وفاتحته فى أمر نقلها إلى الأقصر، رحب الرجل فليس هناك امرأة واحدة تقبل أن تذهب إلى هناك. أبلغها أنه سينقلها إلى التفتيش لحين إخلاء مكان فى مدرسة الأقصر الثانوية للبنات.

أخــذت تعد العدة للسفر إلى الأقصر دون أن يعرف زوجها خبر نقلها. عاد ذات مرة وهو يحمل نفس التقطيبة القاسية.

- يا أخى افرد وشك.

لم يرد عليها.

- أنا حقلك خبر.

لم ينظر إليها.

- أنا انتقلت الأقصر.
- صحيح.

قام دياب من على كرسيه ليحتضن زوجته فى سعادة غامرة.

* * *

دخل الشيخ الشافعى ليجد دياب:

- أهلاً دياب.

أحمد قابلنى وقال لى إنك وصلت إنهارده الصبح.

- أيوه.
- مبروك يا بنى الحمد لله بلدنا محتاجلكم.

نظر الشيخ الشافعى إلى الشيخ نور الدين:

- سلامتك يا شيخنا!

- الله يسلمك... دى باينها النهاية يا عمى.
- لا... متقولش كده... ربنا يديلك طولة العمر.

انتقل خبر مرض الشيخ إلى الأهالى بسرعة وكأن الريح نقلته إليهم فأخذوا يتوافدون على منزله... والجميع فى حيرة هل هى وعكة... أم هى مرض خطير؟ إنهـم لا يتصورونها النهاية. حل المساء وذهب محمود إلى فراشه، رأى النجم ذا الذنب مازال مضيئًا ولكن ضوءه خافت. نظر إليه طويلاً وقد أصابه الخوف ثم قام وقـد ازداد قلقـه على والده وأمه جالسة بجوار قدمى الشيخ والدموع تسيل فى صمت من عينيها. عاد إلى سريره فى الحوش، أخذ ينظر إلى النجم حتى غاب فى النوم.

اسـتيقظ محمود ليجد إخوته جميعًا قد حضروا... فقد وصل الحاج حجاجى مـن أسـوان، كما حضر سعد من نجع حمادى، وأنور من قوص، وحضر أخوه الشـيخ كمال من القاهرة مع أخته الكبرى وزوجها الحاج يوسف، وحضرت أخته الوسطى من قوص مع زوجها الشيخ حسين، كما حضر المدنى زوج منيرة.

لـم يحضر أى واحد منهم وهو على علم بمرض الشيخ ولم يكن حضورهم علـى اتفـاق. شيء ما جذبهم نحو الحضور. قلق خفى عرفوه بالشوق، أرادوا إسكاته بالحضور.

أخذت يد الشيخ تتثاقل. ظهر الجهد عليه وكان واضحًا أن المرض قد احتل مكانًـا فـى جسد الشيخ. ذهب الحاج حجاجى ليحضر طبيبًا آخر غير الذى حضر أمس قرر الطبيب أنه إجهاد.

حضـرت منـيرة وزوجها لتجد الازدحام فى بيت أبيها، حاولت أن تصرخ مـنعها زوجها. اليوم يمر بطيئًا وقاسيًا والشيخ يعانى وهو يحاول الوضوء. أخذ يصلى وهو يشير بيده إلى القبلة.

حل الليل ولم ينم الشيخ، ولم ينم أبناؤه. وقفوا بجواره، كل يريد أن يصنع شيئًا، جاء اليوم الثالث وقد أنهك الجميع وكان واضحًا أن المرض ليس إجهادًا... أحضـروا أكـثر من طبيب، ظهرت الشكوك، ربما يكون القلب. لكن الحالة ليست خطرة، والشيخ لا يشكو ولا يظهر عليه أنه يتألم، ولكن حركته تزداد بطئًا، وجهه متجه إلى القبلة. يتمتم بآيات من القرآن الكريم.

حضـــر فـــى هذا اليوم الأعمام وأبناء الأعمام، وامتلأ البيت والشارع بأهل الشيخ وأحبابه. كانت الساعة التاسعة عندما نام الشيخ. سكت الجميع سأل الحاج حجاجى إخوته أن يناموا على أن يبقى محمود مع الشيخ هذه الليلة ويوقظهم قبل أن يـــنام. كـــان من المعروف لدى إخوته إنه سهار لا ينام إلا عند الفجر وهو لم يكـــن يشعر هذه الليلة بالرغبة فى النعاس، كيف ينام وأبوه على فراش المرض؟ ولكـــن الغريـــب أن عينيه أغمضتا وغاب فى النوم ورأى نفسه فى أرض أجداده بجوار مشايخ عطية وقد تحول إلى جنة يبحث فيها لأبيه عن قصر يسكنه.

اســـتيقظ محمود فى الفجر. صوت أبيه يطلب منه كوب ماء. سأل والده إن كان قد نام جيدًا فعرف أنه نام نومًا عميقًا. أحضر محمود لوالده الماء ليشرب كما أحضـــر الطشـــت والأبـــريق ليتوضأ. صلى الشيخ الفجر جالسًا فأدرك محمود أن رؤياه تحققت وأن والده يعود الآن للشفاء.

استيقظ الأخوة جميعًا ليجدوا أباهم وقد بدا وكأنه يسترد عافيته تحسنت يده وقد أخذ يحركها حركة عادية... مرت حالة الخطر، أحس الجميع بسعادة كبرى.

كـــان محمـــود متأكدًا أنها وعكة نتيجة الإجهاد وأن والده لن يصاب بسوء وحين خطر لـــه خاطر الموت أبعده سريعًا وهو على يقين أن والده لن يموت... مستحيل أن يموت الشيخ نور الدين مستحيل، مستحيل أن يموت رجل مثله.

فى الساعة الواحدة طلب الشيخ نور الدين الحلاق. حلق شعره وشذب ذقنه البيضاء الملتفة حول وجهه... صلى الظهر جالسًا.

قال أبو المجد يونس:

- إنت بخير يا شيخ نور الدين... الحمد لله على سلامتك.

قص محمود على والده الرؤية وبعد أن انتهى منها سأل الشيخ:

- خلاص؟
- خلاص!

رد الشيخ:

- خلاص.

ثم أخذ الشيخ يداعب أحفاده من أبنائه وأبناء عائلته.

وفجـــأة طلب منهم جميعًا أن يغادروا الحجرة ويتركوه مع ابنه الأكبر الحاج حجـــاجى. اســتغرب الجميع من تصرف الشيخ فى هذه اللحظة إلا أبو المجد فهو يعرف أن الحاج حجاجى موضع سره. كان واضحًا فى هذه اللحظة على أبو المجد القلق فهذا التصرف يعنى شيئًا... حاول أن يطرد الأفكار من ذهنه حتى فتح الباب وخرج الحاج ومعه صندوق أعطاه لأمه حتى تضمه فى خزانة حوائجها.

دخل الجميع لرؤيته. كان وجهه الأسمر محمرًا، سأل الشيخ:

- بصيرى جه؟

رد الحاج:

- لا يابا...

بعدهــا أخــذ يتمتم بآيات من القرآن الكريم، أخذت التمتمة تعلو وتعلو وقد قـــوى صـــوت الشيخ وهو يردد لا إله إلا الله محمد رسول الله... الموت حق... والبعـــث حـــق... اللهم غفرانك. شعر محمود أن هذا الصوت ليس صوت والده، كأنـــه قـــادم مـــن عليين، ارتفع، ارتفع، ثم توقف، وسقط الشيخ على فراشه فى إغماءة طويلة...

حضر معظم أطباء الأقصر... وأجمعوا على أنهم لا يستطيعون شيئًا للشيخ فقـــد أصيب بجلطة فى المخ... إنه يقضى لحظاته النهائية ليرحل بعيدًا إلى حيث أجـــداده. كان يبدو على الوجه المعاناة، ظهرت التجاعيد وبرزت عظام الوجه ثم خفـــت الصوت تمامًا فى الساعة التاسعة والنصف مساء لتظهر ابتسامة واضحة على الوجه ولتختفى التجاعيد ويكتسى الوجه بلحم الشباب، ويبدو الشيخ فى قمة وسامته جميلاً وحيًّا يعيش سلام صاحب اليقين.

صرخ أبو المجد مات الشيخ نور الدين... الأمر لله... لم يصدق محمود أن يموت والده... مستحيل حرّكه وحرّكه وحرّكه... أخوه الحاج فى قمة تماسكه يبعد الناس عن والده محاولاً أن يخرجهم من الحجرة وصوته الجهورى يهتف: لا إله إلا الله... بلغـــت الرسالة وأديت الأمانة يا أبى، سمعت منيرة بكلمة الموت فجرت نحو الحجرة:

- يابا... يابا...

فوجـــدت أخاها محمود قد ارتمى على الأرض فاقد الوعى. أدرك من سمع

الصـــرخة الأولى من بيت الشيخ نور الدين أنه قد مات. أخذ الخبر يتناقل من فم إلى فم حتى عم المدينة كلها.

بدأ الناس يتقاطرون على منزله، ما إن يلتقى فرد ذاهب إلى المنزل بشخص آخر حتى يسأله سمعت الخبر وقبل أن يستمع إجابته يكمل الآخر الشيخ نور الدين مات.

تقبلـــت المدينة وفاته على أنها حقيقة ولكنها حقيقة كانت غائبة عنهم فإن أحدًا لم يفكر فى وفاة الشيخ نور الدين، الكبار والصغار على حد سواء. لقد رأوه – مـــنذ أن وجدوا – يسير فى المدينة ويدخل بيوتهم، يحل أزماتهم ويرفع عنهم أثقـــال الزمـــن بصوته الحنون المتسامح، وروحه التى تتغلغل فى نفوسهم وعقله الذى يجد لكل مشكلة حلاً.

كان روحًا من الحب والحنان والدفء حلت بعالمهم، لم يسألوا أنفسهم متى ولـــد الشـــيخ؟ فهو قد ولد منذ زمن بعيد ولم يتصوروا أن يغيب عنهم فهو معهم بالأمس واليوم وسيكون غدًا معهم عونهم على أشواك الحياة. عطاء من الله لهذه المدينة التى لا تعرف الراحة.

لقـــد تصوروه ولد مع المدينة، بدأ بها وسينتهى معها، ولكنهم يفاجأون به الآن ميتًا، مثل أى حى فى هذا الوجود.

امـــتلأ البيـــت والشارع بالناس حتى الشوارع المجاورة غصت بالقادمين لا أحد يعزى أحدًا، فهم قادمون ليعزوا أنفسهم فيه. صرخات ترتفع من منزل الشيخ. وصـــرخات ترتفع خارج المنزل ونداء لصامت تخرج من أعماقه صيحة لا إله إلا الله – الموت حق.

اللـــيلة مظلمـــة تمامًا... أضاءوا أنوار الكلوبات ولكنها مظلمة فى داخلهم، نسائم الخريف تلفح الوجوه ولا تخفف من الحر. العرق الغزير يخرج من المسام كأنه خارج من قلوبهم الحزينة.

وصـــل الشـــيخ الشـــافعى وأخوه الشيخ الحفنى، وانطلقت صرخات الرجال الكبار... ابن عمه يونس مهدم سقط أخوه وحبيبه... بموت نور الدين ضاع الأخ والحبيب.

صرخ الشيخ يونس أخرجوا الأولاد من المنزل وهو يعنى بهم أبناء الشيخ. تعالــت صــرخات النســوة وهى ترى الأولاد يغادرون جثمان أبيهم ليخرجوا مع الرجال. الأبناء كلهم انهاروا إلا الحاج حجاجى بقى واقفًا تسيل الدموع من عينيه دون صــوت. تظهر الحيرة على وجهه. يؤمن أن والده مات، يريد أن يصدق أن هــذا حقــيقة يكره الكفر بها. محمود وأنور فى صرخات هستيرية. الشيخ كمال أقعده الحزن. وسعد يرفع الصوت الحزين فى سبيل الله يا أبى.

اللــيل الطويــل... والشيخ يونس مهدود ولكنه قادر على التفكير... ينادى على الرجال فى الشارع أن يذهبوا إلى بيوتهم فالجنازة فى الصباح.

ذهــب بعــض الناس وحضر آخرون... لم تنقطع الحركة حتى الفجر موعد الشيخ للذهاب إلى مسجد جده... محمود يأكل قلبه الألم... لا يمكن أن يكون والده قــد مــات... كــيف...؟ لقد رآه يرفع ماء النيل.. يحرك الحياة فى الجماد يوقف الموت... يبعث الحب. هل يمكن أن يموت الشيخ نور الدين... مستحيل... لكنهم يقولــون إنــه مات... رآه بنفسه صامتًا لا يتحرك ولكن هل يبتسم الموتى... إن والــده يبتســم، يكلــم الملائكة... آه ما أقسى الموت... ما أقساه... تجمع حوله أصــدقاء القطــار... حســن وصليب وحسبو وعلى وأبو العلا وأصدقاء آخرون يهدئــون منه ولكن صراخه لم يهدأ وبكاءه لم ينقطع، وانفجر معه حسن وصليب فى بكاء مر.

وصــل رجــال على حميرهم من القرى، كثير منهم كان حاضرًا يوم إزالة الجبانة.

قدم أيضًا رجال على جيادهم ليودعوا الشيخ، يعرف محمود منهم القليل وإن كان مشغولاً عن تبين أحد.

تعالــت أصوات النساء عندما دخل أعمام الشيخ ليغسلوه، تبين صوت أخته يرتفع رثاءً لأبيها:

- إياك أبونا، وإياك والى الكل
- متقوللى على كام يوم تيجى تطل
- كان معاى دركة بجوز سلام
- كان أبويا سبع الرجال وراح

- أيا بوى عوامد بيتنا مالت
- أيا بوى عوامد بيتنا وقعت

اهتز مع صوت أخته وازداد نحيبه، تعالى صراخ النسوة، أخذ الشيخ يونس يشـــتم النساء ويطالبهن بالصمت، والدموع لا تتوقف عن الانهمار من عينيه. لم تسكت الأصوات. تبين صوت ريا وهى ترد على أخته...

- يا بنيتو هِدّى الجرد كله
- أبوك حلف ما عاد يدخل له
- يا بت أبوك تحت والأ فوق
- ده أنا معايا وجيعة من عديم الذوق
- يا بت أبوك فين أنا قل له
- حطى العمامة فى طاقة الديوان
- ما تشكى الولية كل ما تنضام
- ترد عليها منيرة ابنة الشيخ:
- قولوا لنا شيخ العرب ماله
- إللّى هجر بيته وديوانه

وارتفع صوت يخرج كأنه الغناء الحزين:

- من يوم ما غابوا حتى المواوى غاب
- ولا عمرت الجلسات خشم الباب
- ما للمصلى اليوم ما صلى
- ولا سمع الجارة ولا على
- طريق الجوامع تبكى عليك تبكى
- تبكى على من كان يروح وييجى
- طلعت نجوم الليل من غربه
- مالقيوا المصلى عاقل على الركبة

دغدغـــت المـــرأة حواسه بصوتها، هزت روحه، عرف فيما بعد أنها رفيقة أخت الحاج ركابى. تعالت أصوات النسوة بالصراخ، فقد وضع الشيخ فى المحفة. فوجـــئ محمود بمحفة الشيخ يحملها الرجال، ليتجهوا به إلى مسجد جده ليصلوا عليه هناك.

تقدمـــت المحفـــة صفوف من الرفاعية وأهل الطريق ينادون لا إله إلا الله. وصـــفوف من أبناء أسرته وأهل مدينته تقرأ القرآن. وأصوات تعلو بالنحيب. كل يبكى شيئًا عزيزًا على نفسه يغيب عنه إلى الأبد.

تمت الصلاة عليه فى جامع جده أبو الحجاج، فى المكان الذى أمَّ فيه كثيرًا من الناس ثم خرجوا لتبدأ رحلة الجماعة بالمحفة نحو مقبرة الأقصر الجديدة فى الكـــرنك، ليدفـــن مـــع أبيه وعمه وأهل أسرته، وليهيلوا عليه التراب الذى كان يحرص عليه بالأمس.

عاد الرجال إلى المنزل ليجدوا النسوة فى صراخهن متجددًا قويًا. قال الشيخ يونس:

- لقـــد هدّت الساحة، كان يتمنى أن تكون جنازته فيها، ولكن الأمر لله.. فقدنا الساحة والشيخ نور الدين فى صيف واحد... الجنازة فى بيتى.

لـــم يعـــترض أحد من أبناء الشيخ نور الدين، فالكبير كبير، والشيخ يونس والدهم.

صـــفت الدكـــك فى الشارع وامتدت إلى الشارع المجاور. رأى أبناء الشيخ نور الدين رجالاً لم يعرفوا من أين أتوا، حتى الكبار من رجال الأسرة لم يتعرفوا علـــى الـــناس جميعًا، ولكنهم يعرفون أنهم من أحباب الشيخ، وما أكثر أحبابه!! رجـــال فقراء وأغنياء، صغار وكبار، فلاحون وعمال من المدينة ومن أهل القرى المجاورة.

مر اليوم الأول ثقيلاً بطيئًا، محمود يريد أن يخلو لنفسه فلا يستطيع، لا أحد يـــتركه. يـــريد أن يـــبكى أباه بمفرده.. لقد دفنه.. رآه بعينى رأسه يدخل المقبرة ويهال عليه بالتراب.. مات الشيخ نور الدين ولن يراه.. سيبقى بينهما حاجز كبير حـــتى يذهـــب إلـــيه.. أصدقاء محمود بجواره.. لماذا لا يذهبون؟! والناس تأتى للعـــزاء.. لماذا لا يذهبون ؟! حتى يبكى والده بمفرده. إنه يريد أن يخلو لأحزانه ولا أحد يتركه.

طلـــب الشـــيخ الشـــافعى من محمود ألا يجلس مكانه فهو رجل، وعليه أن يستقبل المعزين، كانت كلمته أمرًا.

أخذ يتحرك بين الناس يقدم لهم السجائر.. ولكن أحدًا لم يأخذ منه سيجارة، فانعزل فى ركن وأخذ يدخن سيجارته الأولى.. قد تنسيه آلامه.. وقد تنسيه غيبة الأب.. إنه يعلم أنها لن تستطيع وهى ليست بقادرة حتى أن تمنحه الصبر.

مـــر الـــيوم الـــثانى ثقيلاً.. بدأ محمود يدرك أن فى كل فراق أملاً فى جمع الشـــمل إلا هـــذا الفـــراق.. مد يده إلى سيجارته الثانية لم تساعده، جعلت رأسه يدور، ليته يفقد الوعى. نظر إليه أخوه الأكبر فرمى السيجارة من يده.

الأعمـــام وأبـــناء الأعمـــام وأبناء أبنائهم وأصدقاؤه حوله.. الناس جميعًا حولــــه.. ولكن ليس بينهم الشيخ نور الدين.. ترى هل تمضى الحياة دونه، ألا يمكن أن يتوقف الكون. نسمات الخريف تزداد برودة.. يشعر أن كل شىء يتحرك فى موعده لا يتوقف.

* * *

تعجـــب محمود كيف استطاع أن ينام.. كيف تغلب عليه النوم وعلى ألمه؟ إنه فعلاً نام ساعات.. شعر بالذنب، كيف ينام وقد مات والده!!!

صلى الفجر ومعه جماعة من أهله وراء عمه يونس.

بـــدأت الحركة تدب قوية، فاليوم هو الثالث. ذبحت الذبائح أخذوا فى قراءة الصـــلوات، وقراءة القرآن الكريم على روح الشيخ. أخذت الوفود تكثر قادمة من الأرياف للعزاء.

قدم الطعام للفقراء والمساكين. وضع محمود وجهه بين يديه وبكى كثيرًا.

اقترب منه رجل ورفع صوته:

– بتبكى ليه يا محمود.. خلفكم رجال، واللى خلف ما متشى.

قال محمود لنفسه ليته ما خلفنى.. كيف أعيش عمرى فى شوق إليه..؟!!

عـــرف محمـــود صـــاحب الصوت دون أن يرفع يديه من بين عينيه.. إنه يوسف الطاهر مفتاح، زميل أخيه الأكبر، وفى الوقت نفسه صديقه: لقد كان يعجب بالـــرجل، كـــان كاتـــبًا وخطيـــبًا من رجال حزب مصر الفتاة. فرح بالثورة ونقل أحاسيســـه إلـــى عبد الناصر، ولكن خيبة أمل كبيرة أصابته فى هيئة التحرير ثم

الاتحـــاد القومـــى، كان قويًا وصادقا، لـــه أصدقاء يحبونه وأعداء يخشون لسانه الحارق.

هز يوسف كتف محمود بيده:

- عيب كده.. عيب.. أقف قابل الناس.

رفع محمود عينيه.. سلم على يوسف دون أن يقف.. دخل محمد عياد نائب الأقصـــر الجديـــد وحوله حاشيته، أكثر من عشرين رجلاً، هم رجال العهد الجديد رجال الاتحاد القومى.

جلس محمد عياد عن يمين محمود بعد أن سلم عليه وعلى يوسف.

قال محمد عياد:

- أنا جيت من مصر مخصوص.. الشيخ نور الدين أبونا كلنا.. الأمر لله.

ساد الصمت لحظة.. كسره يوسف الطاهر وهو يحادث بكير المحامى:

- إيه الأخبار؟
- الحمد لله عال..

لـــم يـــتوقف بكير عن الكلام، وقد أخذ يقحم السياسة فى حديثه محاولاً أن يؤكـــد أنهـــم الآن يحـــاولون أن يقطعوا دابر الانتهازيين والرجعيين. أخذ يقص القصص عنهم، ثم أضاف:

- كله إلا السلبيين أعداء الثورة.

قاطعه يوسف ساخرًا:

- ومين همن...

أخـــذ بكير يتكلم بحماس عن السلبيين أعداء الثورة الذين لا يعجبهم شىء يقدمونه سوى النقد، أوقفه يوسف الطاهر:

- أنت حتخطب.. مين هم السلبيين.
- فلول الوفد.
- يبقى لازم بتهاجموا الشيخ نور الدين، انته عارف إنه مؤسس الجماعة الوفدية هنا.

تضايق محمود من ملحوظة يوسف الطاهر، فهو لا يريد أن يقحم والده فى

عبـث شـخص انتهازى مثل بكير المحامى. لقد عرفه عندما كان فى القاهرة فى السنة الثانية، وكان بكير يدرس دراسات عليا فى كلية الحقوق، لم يدخلها حبًا فى الدراسة العليا، وإنما لأنه كان من زعماء اتحاد طلاب أبناء الصعيد وكانوا مكلفين بضـرب أى صوت مخالف للحكومة فى هذه الأيام.. كانوا يعملون تحت اسم عبد الناصـر ويشـوهونه ويشوهون الثورة. عرفه أبناء الأقصر فى القاهرة بتقاريره للمخابرات العامة.

حاول البعض أن يبتعد عنه حرصًا على نفسه، كما حاول البعض أن يتقرب مـنه طمعًـا فى مكسب يجمعهم. وعندما قامت حرب سنة ١٩٥٦ كان بكير أول شخص يركب القطار عائدًا إلى الأقصر.

وفـى هذه الانتخابات عمل بكير مع العديسى وبعد سقوطه أخذ يتقرب من منافسه محمد عياد ليصبح مسئولاً مهمًا فى الاتحاد القومى.

قـام محمـود ليستقبل المعزين القادمين محاولاً أن يبتعد عنه بينما يستمع محمـد عـياد لما يقوله بكير دون اكتراث فإنه لن يكون زعيمًا للأقصر ولن يهز مكانه، ووجوده بجواره أمان له.

إنـه يفكـر جيدًا فى الحفاظ على مكانته فى الأقصر بألا يأخذ شخص منهم مكانة قوية فى الاتحاد القومى.. إن أحدًا لن يزحزحه عن دائرته. نظر إلى محمود الواقـف عن بعد، لو كان هناك شخص سيأخذ منه هذا المكان، أو يزحزحه عنه فهو محمود.

قال لنفسه: فى الحقيقة هو الشيخ نور الدين.

يـريد محمـد عـياد أن يغـادر الجنازة قبل أن يحول يوسف الطاهر بكير المحامى إلى سخرية الجالسين، فقد استهوته كلمة السلبيين فرفع صوته:

- نعم على الاتحاد القومى أن يقاوم فلول الأحزاب والإخوان والشيوعيين.

أوقفه يوسف الطاهر:

- وليه متقولشى والاشتراكيين والبلد كلها.

اتكأ يوسف على كلماته وهو يقول:

- يا ولدى اعقل.

رفع بكير صوته:

- خبر إيه يا يوسف.. إنت ضد الثورة والا إيه؟
- لأ أنا ضدك.

تراجع بكير وهو يبتسم ليوسف:

- يا أخى دانا حبيبك.

قام محمد عياد فقام أتباعه جميعًا، وتحرك يوسف ليجلس بجوار محمود ثم وضع يده على كتفه:

- يـا أخى اتحرك.. يا أخى كفاية عبوس.. ده بكير المحامى ممكن يودينا كلـنا فـى داهـية علشـان عبوسـك ده... لأنك سلبى... الأمر لله يا محمود... كم علمنا الشيخ الكثير.

صمت يوسف فى حزن، لقد علمه فعلاً الشيخ الكثير، كان صديقًا لوالده منذ تكويـن الجماعة الوفدية التى قادت مظاهرات مديرية قنا. وحركت الإضراب العام ومقاطعة البضائع الإنجليزية والحرب ضد المستعمر.

لـم تـنقطع زيارة الشيخ نور الدين لبيتهم بعد وفاة أبيه إذ كان يقوم لـه مقام الأب. دمعت عينا يوسف، فترك الجنازة دون أن يسلم على أحد.

الحركة مستمرة فى الجنازة لم تنقطع حتى منتصف الليل. وبعد خروج آخر زائـر جلس محمود بمفرده بعيدًا عن أخوته يفكر فى الشيخ نور الدين، وكأنه لم يمت، وكأن هذه ليست جنازته. ارتمى على دكة يلقى عليها جسده. أخذ ينظر إلى السـماء فارتـاع... لقد اختفى النجم ذو الذنب... أخذ يبحث عنه بعينيه، لم يجد لـه أثرًا. وقف وسار إلى ميدان الحوض دون أن يلقى نظرة على السماء.

الـنجم القطبى فى مكانه... النجوم التى يعرفها ثابتة لم تتغير... ولكن هذا النجم الذى كان يراه فى السماء، منذ أن عرف كيف ينظر إلى النجوم لا يجده. لم يصدق عينيه... أمعن النظر. رأى مجموعة النجوم التى كانت تحيط بهذا النجم فى مكانها بضوئها الخافت، محتفظة بالمسافة بينها، لكن مركزها فارغ.

فى صباح اليوم الرابع عاد محمود وإخوته إلى منزلهم، ليستقبلوا المعزين هناك. لم يحضر فى هذا اليوم غير أقربائهم وأصدقائهم.

كـــان يـــبدو علـــى الأخـــوة شعور بالتوتر والقلق. فهذا اليوم هو أول يوم يدخلـــون فيه منزل والدهم، ينتابهم شعور بالعجز عن مواجهة واقعهم.. إحساس يتجسد داخلهم بأن الواحد منهم لم يعد كلاً متجمعًا، وإنما أجزاء منهارة فقدت أهم شـــىء يشـــعرها بالأمـــان وهو الروح. إحساس بالضياع فى هذا العالم فقد غاب الـــرجل الذى كان يوحد صلابتهم، ويجعلهم ينظرون إلى أنفسهم على أنهم كائنات قوية واعية بالوجود ممتدة فيه قادرة على بناء شىء فى داخله.

لـــم يعد العالم كما كان بالنسبة لهم منذ أربعة أيام... يشعر محمود أنه عار تمامًا. صراع فى داخله... يعوى... يعض... ينهش.

يأكل القلب، السؤال الذى كان يلح داخله، ويبحث لـــه عن إجابة. هل يبقى فـــى الأقصـــر ليعمل مدرسًا فيها، أم يعود إلى القاهرة لينهى دراسته العليا. كان شـــىء ما يشده للبقاء فى الأقصر ولعل أهمها صورة الشيخ نور الدين، فهو يريد أن يحـــذو حذوه، أن يكون مثله فى عالم هذه المدينة. أن يجد فى داخلها السلام الـــذى اســـتطاع الشـــيخ أن يحصل عليه، وكان يجذبه إلى القاهرة طموح لإنهاء دراسته العليا والحصول على الدكتوراه.

يشـــعر أنـــه مـــربوط بين حصانين، يتجه أحدهما إلى اليمين، والآخر إلى اليســـار، يتمزق ولا يدرى كيف يعيد الأجزاء إلى وحدة وانسجام. شعر هذا اليوم بأنـــه قـــد استقر على رأى، إنه لا يحس أن أحدًا ينظر إليه فى المدينة على أنه محمود فهو جزء من كل، هذا الكل راقد مع أجداده، وهو يعرف أنه لن يخرج عن دائـــرته ولا يريد. طلب الحاج حجاجى إلى إخوته أن يتبعوه إلى المنزل فى حجرة الشيخ. تركوا الأهل والصحب وتبعوا أخاهم الأكبر.

جلـــس الحـــاج فـــى نفـــس المكان الذى كان يجلس عليه والدهم، وبجانبه الصـــندوق الذى أعطاه إياه والده قبل أن يموت وقد أخذت حركته وسمته يلبسان وقـــار الشـــيخ نور الدين. فى البداية أخذ الحاج ينتزع الكلام انتزاعًا، ثم انطلقت كلماته كما كانت تنطلق كلمات الشيخ هادئة وقوية:

- المدينة كلها بتتكلم عن ثروة أبونا.. الثروة دى كانت حياته...

وخلفـــنا وخلف لنا البركة، ودى أهم حاجة حنعيش بيها طول عمرنا كأكبر ثروة يخلفها أب لأولاده.

أمسك الحاج بالصندوق ووضعه على حجره:

- أبويا اداني الصندوق ده، وأنا خليته مع أمي... الإشاعات كتيرة في البلد بتتكلم عن الصندوق ده، ناس كتير متصورة انه فيه كنز، وأنا جامعكم علشان تعرفوا إيه اللي في الصندوق ده.

فتح الحاج الصندوق، وألقى بمحتواه على الكنبة بجواره... ظروف خطابات مقفلة.. ومجموعة أوراق.

- الورقة دي حجة البيت... ودي حجة قطعة الأرض اللي ورثها أبونا عن أجداده في أرض مشايخ عطية، أبوكم حافظ عليها لأنه شايفها بركة من جدوده، وبيقول لكم كل واحد يعمل أي حاجة بأرضه...

أمسك الحاج بورقة أخرى:

- ودي أسماء ناس أبوكم كان بيديهم رواتب كل شهر.. هو حاطط مبلغ في مظروف هنا، وقال إن الفلوس دي لمدة سنة، انتو أحرار تدوا الناس دول بعد كده والا لأ.

أشار الحاج إلى بقية المظاريف:

- ودي فلوس أمانات لناس كانوا بيشيلوها عنده، ودي حنرجعها بكرة الصبح لأصحابها.

أمسك الحاج بمظروف من هذه المظاريف، ونظر إلى محمود:

- المظروف ده ليك.. فيه مصاريف السنة دي، أبوك بيقولك كمل دراستك، ومتتراجعش عنها أبدًا.

صمت الحاج قليلاً ثم أكمل:

- بالمناسبة أنا انتقلت من أسوان رئيس إشارات منطقة الأقصر.

نادى الحاج والدته فدخلت الحجرة. كبرت عشر سنوات في هذه الأيام الأخيرة.. بقايا دموع تظهر على جفونها المتعبة.

احتضنها أبناؤها، فقد كانت هذه أول مرة يرونها منذ وفاة الشيخ، أعطاها الحاج الصندوق لتعيده مكانه.

* * *

جلس محمود على الكنبة بجوار عمه يونس وغرق داخل نفسه.. لقد عاش

صـــراعًا بين الأقصر والقاهرة حسمه والده فلقد اختار لـــه أن يذهب إلى القاهرة ليكمل تعليمه واختار لأخيه الحاج حجاجى أن يكمل دوره ببقائه فى الأقصر.. إنه يـــثق فى حكمة والده، ولكن لماذا لم يختر لـــه أن يبقى فى الأقصر؟ ولماذا اختار ابـــنه الأكبر؟ إنه يعلم أن والده يثق فى حكمة وصبر ابنه الأكبر... يعرف أنه من الممكـــن أن يمتد فيه... وأنه قادر أن يكمل طريقه فى هذا العالم المتغير... وهو مخـــتلف عن أخيه، ضيق الصدر عصبى، صفات لا تصلح لقيادة الجماعة فى هذا المـــنعرج الضيق من أرض الوادى.. لم يعد قادرًا حتى على الكلام وهو ينظر إلى أخـــيه فى أخريات الجلسة وقد تغير حتى كاد يصبح نسخة طبق الأصل من أبيه.. لولا سواد شعره وشباب وجهه لظنه والده.

لـــم يترك الشيخ نصيحة لابن من أبنائه سواه فقد همس الحاج حجاجى فى أذنـــه وهـــو خارج معه من المنزل بأن والده أخبره أنه يخاف عليه من خضراء الدمـــن، الحسناء فى المنبت السوء، فهو عاطفى انفعالى وقد يسقط معها سقطة كبرى.. يرتفع همس الحاج إلى صوت مسموع:

- أبوك بيقول لك احذر من خضراء الدمن..

ابعد عنها على قد متقدر.

لماذا يحذره أبوه من خضراء الدمن...؟ أخافه هذا التحذير.. هل عرف أبوه قصـــته مـــع إلهام... لقد كان دائمًا يخاف أن يعرف والده قصتها والآن إنه على يقين بمعرفته... فالموتى يعرفون كل شىء... تمنى أن يكون تحذير والده متوقفًا عـــند قصـــته مع إلهام وأنه لم يكن ينظر إلى الغيب فما أقسى أن يكون فى قدره إلهـــام أخرى!... استبعد هذا الخاطر، وسيحاول أن يترسم طريق والده... صحيح أن الطريق طويل ولكنه سيسيره.

أصابه التوتر... شعر بالاختناق أراد أن يغادر المكان، وقبل أن يتحرك من مكانه سمع صوت صراخ رجل من أول الشارع:

- فى سبيل الله يا خوى... فى سبيل الله يا شيخنا... فى سبيل الله يا نور الدين.

توجهـــت نظـــرات الجالسين إلى صاحب الصوت وقف الحاج حجاجى. قال الشيخ يونس:

- ده بصيرى العبادى.

وقــف الجميع فيما عدا الشيخ يونس واتجهوا نحو صاحب الصوت؛ بينما تعالى صراخ النسوة داخل المنزل فقد حرك صوت بصيرى الأحزان التى لم تنم.

١٩

أخذ الحاج حجاجى بصيرى إلى حجرة الشيخ ليتناول طعام العشاء وقد سار خلفهما محمود. كان الطعام قد وضع على المنضدة ولكن بصيرى يرفض أن يأكل فيلح الحاج حجاجى وأخوه محمود عليه فلا يفلح إلحاحهما.

دخل أبو المجد يونس ودياب أبو محمد الحجرة قال أبو المجد:

- لازم تأكل يا عم بصيرى.
- آكل إزاى يا بنى هو ده وقت أكل.
- الأكل ملهوش دخل بالحزن.
- حزن... حزن إيه يا ولدى... انتو متعرفوش نور الدين... أنا عرفته أنا عرفته... شفت سره... شفت نجمه بيطلع وبيغيب.

يا نور الدين... يا نور الدين مدد.

كان دياب يريد أن يتدخل ليلح على بصيرى أن يأكل... ولكنه توقف... لقد رأى هـــذا الرجل سر نور الدين... ترى هل يعرف هذا العبادى نور الدين... تذكر ما صنعه نور الدين له... وكيف غسل قلبه وطهره. ارتفع صوت بصيرى:

- آه يا نور الدين... الفراق صعب.

وهنا انفجر دياب فى بكاء مر...

اتجـــه الحـــاج وأبو المجد إلى دياب يهدئانه... بينما لم يتحرك محمود من مكانه.

لقـــد عـــرف بصيرى سر نور الدين... ما هو هذا السر؟ والنجم الذى رآه محمـــود يغيب، يقول بصيرى إنه رآه يطلع ويغيب. قال لنفسه لست واهمًا... لقد رآه معى بصيرى يغيب.

أخرج الحاج حجاجى وأبو المجد دياب من الحجرة، فبقى بصيرى ومحمود وحدهمـــا فـــى صمت قطعته امرأة عجوز دخلت عليهما الحجرة تحتفظ بحيويتها،

يظهر عليها جمال الكبر، وجهها يشده فيه قوة وحضور.

- ازيك يا بصيرى.

نظر إليها فوقف ليسلم عليها:

- ازيك يا حاجة رفيقة.

سلمت عليه ثم تقدمت نحو محمود وقالت:

- أنت محمود؟

وقــف محمود وقد مد يده ليسلم عليها فوقعت عيناه على جنيه ذهبى معلق بسلسلة ذهبية فوق جيدها.

لم تأخذ يده وإنما احتضنته وقبلته فوق رأسه. وقد عادت إلى ذاكرته صورة الشـــيخ نور الدين وهو يعطى عزيزة الجنيه الذهبى. هل هذا جنيه الشيخ؟ أم أنه مجرد جنيه ذهبى مما تعودت النساء أن يتزين به؟

أصاب محمود الضيق... إنه لا يعرف. قالت المرأة:

- فيك ريحة الشيخ.

تركته وجلست:

- كل يا بصيرى.
- آكــل إيـــه يـــا حاجة... هو ده وقت أكل... شيخنا مات يا رفيقة سابنا وراح.
- أيوه سابنا وراح.
- فاكره عمل فينا إيه؟
- فاكره... لولاه كنت دلوقت فى جهنم.

صمتت المرأة... وغابت عنهما... ودموع صامتة تسيل من عينيها.

- آه يا نور الدين...

توقفــت الدمـــوع، مدت يدًا إلى طرحتها، رفعتها إلى عينيها لتمسحها، ثم غابت عنهما وقد ساد الحجرة صمت غريب.

* * *

كانـــت رفيقة تعود بذاكرتها إلى حوالى ستين عامًا مضت حين كانت أشهر

غازيـــة فـــى إقليم قنا وقد تعدت شهرتها الإقليم. كانت ترقص وتغنى فى الموالد والأفراح.

الرقص حياتها فهى لم تعرف شيئًا منذ طفولتها غير الرقص والغناء. ولدت فـــى أســـرة غجـــرية لا يعمل رجالها شيئًا بينما تحترف نساؤها الرقص والغناء وإمتاع طالبى المتعة. كان لهذه الأسرة تقاليد صارمة فى هذه الحرفة فهم يعدون البغاء حرفة. ما إن تصل الفتاة إلى سن المراهقة حتى تتزوج برجل من أقاربها، لا يمســـها هـــذا الرجل وإنما تعطى لمن يدفع أكبر ثمن فيها من أهل المنطقة، ثم تخـــرج الفـــتاة بعد ذلك إلى عالم الرقص والغناء والبغاء. كان عالمًا سريًا ولكنه معـــترف بـــه... لم تتدخل الحكومة فى عالمهم فهم قوم متنقلون من بلد إلى بلد. يعلـــن الجميع رفضهم حين يحلون، ولكنهم كانوا يجدون دائمًا طلاب المتعة الذين يحـــتفلون بوجودهـــم، حتى أعطت لهم الحكومة صفة شرعية حين صرحت بفتح بيوت البغاء فاستقر والدها فى الأقصر فهى أنسب مكان له فى الإقليم. فهى مدينة مســـالمة مفتوحة على العالم كله، أخذ الغرباء يفدون إليها من كل مكان طمعًا فى الكسب من وراء السياحة.

قـــاوم أهل الأقصر وجود الكرخانة لكنهم لم يستطيعوا لأنها موجودة بحكم القانون والغرباء يمنحونها القوة؛ فهم دائمًا فى ازدياد وتكاثر فى المدينة، فصمت أهل المدينة محاولين أن يصنعوا حاجزًا بين أبنائهم وبين هذا العالم الغريب.

كانت هناك مساحة من الأرض الزراعية تفصل ما بين الأقصر القديمة وبين البيـــت، وكـــان أهالى الأقصر القديمة يراقبون الطريق فمن دخله احتقروه إلا أن المدينة أخذت تتسع وتقترب من البيت فخففت مراقبة الأهالى لزواره.

ثـــار مطران الأقباط على وجود البيت بجوار جبانتهم القديمة وقدم شكوى للمديرية فى قنا، فلم يسمع له أحد فهم موجودون بحكم القانون. ذهب إلى الساحة والـــتقى بالسيد يوسف شيخ المسلمين الذى تلقاه بترحاب يليق به، واستمع إليه وكان الشيخ الطيب موجودًا وبجواره نور الدين، وخفراء الآثار الذين ضربهم نور بجوار البربة.

قال السيد يوسف:

- الحكايـــة بقيـــت خطـــيرة ومينسكتش عليها والحكومة الأيام دى بتحلل الحرام وتحرم الحلال.

قال الشيخ الطيب:
- هذا أمر الله...

والتفت إلى نور الدين وقد ظهرت الابتسامة واضحة على وجهه.
- متخافوش... نور الدين حيقفلها.

نظــر الــرجال الــثلاثة إلـــى بعضهم البعض، السيد يوسف والشيخ الطيب والمطــران ثم اجتمعت نظراتهم على نور الدين، وكأنما أحسوا جميعًا أن فى هذا الفتى سرًا قد يستطيع به أن يقضى على مصدر الشر فى المدينة.

لــم تســقط نظرة الرجال عن نور الدين حتى قال السيد يوسف وقد ابتسم ابتسامة عريضة، وقال كمن يؤمن على كلام الشيخ:
- إن شاء الله... يا طيب.

قال المطران:
- باركه الرب.

شرب الجميع القهوة، واستأذن المطران فى الانصراف.

وقف السيد يوسف ووراءه الرجال ليسير مع المطران حتى باب الساحة.

حين خرج المطران قال له أحد مصاحبيه:
- الحجاجية... ناس مسالمين... ومبيعملوش حاجة.

ظل المطران صامتًا مدة ثم نظر إلى الرجل وقال له:
- متقولش كده... نور الدين حيقفلها.

تعجــب الرجل مما يقول المطران، فهو لم يفهم ما يعنى، وصمت وقرر ألا يفكر فى الموضوع.

بعــد أن خرج المطران عاد السيد يوسف إلى جلسته بجوار الشيخ الطيب، صــمت قلــيلاً وأرخى رأسه ليستقر ذقنه على مقدمة صدره، ثم عاد ورفع رأسه ونظر إلى الشيخ الطيب وقال له وهو يشير إلى نور الدين:
- هذا ابنى يا طيب... أتركه لك...
- نعم ما أعطيت يا شيخنا يوسف.

أصبح عمه الشيخ أحمد أبو الدقون متأكدًا الآن أن فى ابن أخيه سرًا، وسرًا

كبيرًا؛ فالشيخ الطيب صاحب بصيرة تخترق الحجب، يرى فى الظلمات مالا يراه المبصرون. إنه لا ينسى قط حين بات الشيخ الطيب فى الساحة فى ليلة من ليالى الصيف، وكان ابنه يونس يقف على خدمته وقد أراد أن يقضى حاجته فى الغائط، أن صرخ:

- يا يونس... يا يونس... روح دورة المياه فيه عقرب هناك.

قال يونس لنفسه.. الشيخ الطيب بيهزر.

كان يريد أن يرد على الشيخ بأنه ليس هناك عقارب ولكنه لزم الصمت أحضر مصباحًا غازيًا واتجه إلى دورة المياه. صعد يونس وهو يرى العقرب واقفة على أرضية الدورة وقد رفعت ذيلها فى انتظار القادم لتفرغ سمها فيه.

قتل يونس العقرب.. وذهب إلى الشيخ الطيب وقد امتلأت نفسه رهبة وخجلاً من شكه فى قوله:

- قتلتها يا شيخنا
- قتلتها ليه يا بنى كنت بس قطعت ذنبها.

وضحك الشيخ وهو يقول:

- أصله السم فى الذنب.

أمسك يونس يد الشيخ الطيب، وقاده إلى الدورة، وقد امتلأ بالدهشة. وهو يسائل نفسه من منهما الأعمى.

ذهب يونس إلى أبيه وهو يرتجف ليقص عليه ما حدث.

هدأه والده وحاول أن يكشف له سر الشيخ الطيب، فهو قد أصيب برمد ربيعى فى عينيه وحضر إليه الدكتور شاكر طبيب العيون الوحيد فى المديرية. كشف على عينيه وقرر أن الحالة غير خطيرة وأعطاه مرهمًا ليضعه فى عينيه.

أخذ الشيخ الطيب المرهم، ثم أحنى رأسه وأخذ يفكر، ثم رفع رأسه ناظرًا إلى السماء وقد فتح يديه ورفعهما إلى أعلى ثم قال:

- اللهم إن كان هذا اختبار منك فزدنى، منذ هذه اللحظة فقد الشيخ الطيب نظره وأبدله الله به بصيرة نافذة.

طلب الشيخ أحمد من ابنه يونس أن يذهب إلى الساحة من فوره ليكون

بجوار الشيخ يقوم على خدمته، فهو لا ينام الليل إلا قليلاً، وقد يحتاج إليه.

الآن يفهم أحمد أبو الدقون لماذا يكون نور الدين هو الوحيد من بين أبناء عائلته الذى يعشق المرماح، فلقد كان الشيخ الطيب فى صباه فارسًا كبيرًا.

وقـف الشيخ أحمد أبو الدقون، سار نحو ابن أخيه، وحين اقترب منه ربت علـى كـتفه وهو يهمس فليباركك الله؛ بينما نور الدين يرى ويسمع كل ما يقال فـلا يفهم شيئًا. تصور أن عليه أن يذهب ويقوم فى لحظته إلى هذا البيت ليهدمه علـى مـن فـيه وسـيأخذ معه محمد وبصيرى اللعين الذى عرف الطريق إليها ليهدمها، بصيرى لا يرفض لـه طلبًا.

وقبل أن يستمر فى أفكاره أيقظه صوت الشيخ الطيب وهو يصرخ فيه:

- قعمز.

كـان الشيخ غاضبًا لم يدر نور الدين ما يصنع فجلس وقد أصابه الخوف. هل قرأ الشيخ دخيلة أفكاره؟

قال السيد يوسف:

- الطريق طويل عليه يا طيب.

وضـع الشيخ الطيب يده فوق رأس نور الدين وأخذ يربت على شعره، ثم وقف مستأذنًا فى الرحيل إلى القرنة غرب الأقصر. خرج معه كل من فى الساحة وعند الباب طلب من السيد يوسف ومن معه أن يبقوا وألح فى ذلك.

- نور الدين بس حيوصلنى للمعدية.

أخذ الشيخ أحمد أبو الدقون يتابعهما بعينيه والطريق يتسع ويتسع أمامهما، وفوجئ بهما يختفيان فجأة عن ناظريه وكأنما اختفيا وراء جدران غير موجودة.

* * *

لم يقم نور الدين بأى عمل فى الساحة فى هذا اليوم؛ فهو قلق متوتر يشعر بقسوة المجهول تدق قلبه. ما حدث لـه اليوم كثير ولا يمكن أن يستوعبه، شعر برغبة أن يركب حصانه يجرى به فى أى مكان بلا غاية ولا هدف حتى يستريح. تذكـر أن هذا اليوم هو مولد الشيخ أبو الجود فى قرية أبو الجود شمال الأقصر فذهب إلى منزله وأسرج حصانه، وانطلق به إلى هناك.

كانـت الحـياة تدب فى الميدان... عربات تبيع المأكولات... رجال يلعبون

لعـبة الثلاث ورقات... حلقة ذكر... قرداتى يلاعب قرده... حاوى قد كتفه صبيه وجمهور يلتف حوله... خيمة صغيرة للاعب القراقوز.

نصـب المرماح وسط الميدان.. الفرسان يتسابقون... تجمع أناس كثيرون يحمسـون الفرسان... حلقة مزمار بلدى ترقص على نغماتها رفيقة الغازية وقد تجمهر حولها عدد غفير من الناس.

ظهـر نـور الديـن فـى الميدان فوق فرسه.. رآه زيدان أبو دياب فارس التماسـيح، توقـف، تعجـب من نور الدين فهو الفتى الوحيد من أسرته الذى لا يستنكف اللعب فى المرماح.

كثـير من الناس يتعجبون كيف سمح لـه أهله باللعب فيه.. هذا الغلام بز أقـرانه جمـيعًا. عمـره فى حلبة المرماح لا يزيد عن عام ومع ذلك فهو يذهل الفرسـان جمـيعًا بقوتـه وسرعته فى لعب الزانة، ودربة حصانه ومهارته فى تحـريكه. قال الرجل فى نفسه رؤية نور الدين يلعب فى المرماح خير من اللعب معه.

وقـف نـور الدين بحصانه بجوار المرماح بين الجمهور، لم يدخل الحلبة احترامًا لتقاليدها حتى يأتى دوره فى السباق، إلا أن زيدان أبو دياب ناداه:

– يا نور الدين... ادخل المرماح حنلعب بالزانة.

تقـدم نـور الدين بحصانه إلى الحلبة وقد اهتزت الجماهير الملتفة حولها؛ فسيصـبح المـرماح معمعـة كـبرى لنزال الفرسان، ترى ماذا يصنع هذا الغلام لزيدان، وحلبة المرماح لا تعرف سنًا فقد يؤذيه زيدان دون أن يراعى سنه.

وتعالت الأصوات المعبرة عن توتر الجماعة للعب لا يعرف الرحمة ولاعبين مقاتلين لا يستطيع أحدهما أن يتغلب على الآخر.

استطاع نور الدين أن يجد لـه جمهورًا كبيرًا يشجعه وهو يحاول أن يسقط زيـدان مـن على فرسه. سرى حماس المتفرجين إلى بقية الحلقات فأخذ الرجال والنسوة يتزاحمون حول الحلقة. توقفت رفيقة عن الرقص كما توقفت فرقتها عن العزف. هذه أول مرة تصبح رفيقة بلا جمهور، شعرت بأنها أهينت فى أعز شىء لديها، قدرتها على جذب الناس حولها ليروا جسدها وهو يتحرك فى رقصاته على أنغام المزمار.

تحركت رفيقة تصاحبها فرقتها نحو الحلقة لترى من الذى لفت انتباه الناس فجعلهم ينفضون من حولها. وقفت لحظة قبل أن تتبين الرجلين، ثم أخذت تنظر إليهما، إنهما يتحاربان فعلاً، دهشت أن ترى زيدان شيخ التماسيح يلاعب فتى حدثا وازدادت دهشتها وهى ترى الفتى يقترب بعصاه من عصا زيدان ويدفعه بقوة شديدة. كانت تتصور أن يصد زيدان الدفعة ولكنها فوجئت وهى تراه يسقط على الأرض، فيترجل الفتى من فوق حصانه، ليمد يده إلى زيدان ويرفعه عن الأرض وهو يقول بأدب جم:

- آسف يا عمى.

فيربت زيدان على كتف نور الدين:

- لا... راجل... ابن راجل... اللعب مفهوش كبير.

يسحب زيدان فرسه ليخرج من الميدان فهذه أول مرة يسقطه فارس من فوق حصانه بينما نور الدين يعود إلى فرسه ليعتليه والأصوات تتعالى:

- نور الدين... نور الدين.

أخذت رفيقة تنظر إلى نور الدين، فانسحب قلبها متجهًا إليه، شدها هذا الغلام الذى يذكرها بأبى زيد الهلالى سلامة وهو يقاتل والده رزق بن نايل.

رفع الفتى زانته يطلب لاعبًا آخر. تبدو عيونه وكأنها تحمل سر الأرض التى أنجبته.. حركة وجهه لا تعبر عن طفل بل رجل ترتسم عليه كل معانى الرجولة.

أخذ قلبها يدق، ترى هل يزور الكرخانة؟ لو أنه دخلها فلن تتركه سيكون لها، ستحتفظ به، ستسحره بجسدها حتى ينسى فرسه وفروسيته وأهله ونفسه والعالم كله، ترى من يكون هذا الفتى؟

سألت جمعة الزمار:

- ولد مين ده؟
- ده ولد الشيخ مصطفى يونس.

آه من الحجاجية أعداءها الكبار. قالت بصوت سمعه الزمار:

- حاخد منهم نور الدين ولو أروح فى الحديد.
- بتقولى إيه يا رفيقة.
- ولا حاجة.

- ابعـــدى عـــن الـــواد ده لحسن أهله يقروا فينا عدية ياسين. همن مش سايبينا من غير حاجة.
- يقروا اللى يقروه.

توقـــف الحوار بينهما فقد ارتفعت أصوات المتفرجين؛ إذ أسقط نور الدين عصا الفارس الذى يلاعبه.

انشـــغلت رفـــيقة عن الزمار، وأخذت تتابع نور الدين وهو ينازل الفرسان ويهـــزمهم واحـــدًا بعـــد الآخـــر حتى جاء غلام فى سنه على فرس ووقف بين المتفرجيـــن، ومـــا أن لمحه نور الدين حتى أوقع بالفارس الذى يلاعبه، ثم خرج عن الحلقة ليلتقى به. سمعت الفتى يكلمه.

- خرجت ليه يا نور الدين.
- عشان ملاعبكش.
- هو انت كده.
- يـــا بصـــيرى عيب الكلام ده... روح لاعب حد تانى أنا كفاية على كده النهاردة.

تعـــرف رفيقة بصيرى جيدًا، زار بيتها كثيرًا، لم تهتم به كانت تسلمه إلى نساء أخريات. إنها الوحيدة من بين الغوازى التى تختار رجالها. لم يعترض على اختـــيارها أحـــد مـــن أهلهـــا؛ فهذه هى الحرية الوحيدة التى تعتز بها وهى تبيع جسدها.

لـــوى نـــور الدين لجام حصانه، فتحرك ليسير به بعيدًا عن الميدان، تابعه بصيرى فقد قرر أن يسير مع صديقه.

قالت رفيقة لنفسها:

- الأمر سهل.. بصيرى حيجيبه.

* * *

اللـــيل طويل على رفيقة، إنها تفكر فى الغلام الذى هزم كل فرسان الأقصر ونواحيها.

حاولـــت أن تطـــرد التفكـــير من ذهنها فلم تستطع، فقد اقتحم عليها - هذا

الغــلام – جسدها، هزها، دغدغ الحواس، رفضت أن تعمل هذه الليلة، قررت أن تبيت بمفردها. لم تنم، ترى نور الدين فوق فرسه يضرب بالزانة، وجهه يعبر عن القوة ولكن فيه حنانًا. نزل من على صهوة جواده ليأخذ بيد البطل زيدان.

حضر عمدة الغرب يريد رفيقة ناداها والدها لم ترد. حضر بنفسه فتح باب حجرتها.

- العمدة سيد أبو حسين الزغابى عايزك.
- عيانه... ومش حقابل حد.

غضــب العمدة ولكن غضبه لم يستمر فقد قامت الفتيات فى الدار بالواجب معه. هدأ وقال لوالدها:

- قــل لرفــيقة أنا مسامحها انهارده لكن سيد أبو حسين الزغابى محدش يقول له لأ.

علمت رفيقة بقوله، غضبت، أحست بالامتهان. إنه يمس حريتها، هى التى تختار وليس سيد أبو حسين أو أى عمدة فى البر كله. تتمنى أن تراه يلاعب نور الديــن ســيهزمه حــتمًا سيهزمه نور الدين حتمًا كما هزم أبو زيد جده الزناتى خليفة.

نســيت سيد أبو حسين فقد احتواها الفارس نور الدين، تألمت أنها تسجن، تفقد حريتها كلما فكرت فيه.

اللــيل طويــل.. صــوت البــنات يزعجها... خرجت من حجرتها. أنفاس الحشيش تملأ الصالة الكبيرة زجاجات الخمر الفارغة ملقاة على الأرض. الرجال أصحاب الوقار فقدوا وقارهم. البنات يرقصن.

رآها سيد أبو حسين الزغابى وقف:

- أهلا رفيقة.
- أهلاً يا عمدة.
- نورت.. سلامتك كلنا فدا رفيقة.

جلست رفيقة على حشية، وأمسكت بالطار، أخذت تضرب عليه وهى تغنى:

يونــــس خطــــر فــــى الســـــوق ولـــــد الهلالـــــية

سـلم علـى الـتجار ردوا لـه التحـية
نـزلوا بـنات هـلال فـيّه ورا فـيّه
فـى جنيـنة العـلام تـاه الدلـيل بـيه
فانسـه مـن الشـباك وزه عراقـيه
مـن دون بـنات هـلال كـام حلـوه ياريـه
جـرح الغـرام مكـار احـتاروا الطـبابة فـيه
مـن جـرح تقولـوا آه إشـحال أبـو مـيه
قسـموا الـبلد نصـين طلـع الكتـير لـيه
عـيان ورايـح أمـوت متقلـبوش فـيه
تسعـه وتسعـين دكتـورغير التمرجيـه

قدم لها سيد أبو حسين كأسًا رفضت أن تشربها. دقت جليلة، إحدى البنات، على الطار، وقفت رفيقة وأخذت ترقص. يقسم سيد أبو حسين والجالسون حولها أنهم لم يروها ترقص مثل رقصتها هذه الليلة. اهتزت، قفزت، لفت الحلقة، كلمات حزينة تخرج من شفتيها:

مـن جـرح تقولـوا آه إشـحال أبـو مـيه
عـيان ورايـح أمـوت متقلـبوش فـيه
تسعـه وتسعـين دكتـور غير التمرجيـه

أخذت تكرر عيان متقلبوش فيه وطبقات صوتها ترتفع وتنخفض، ثم أخذت تضـحك وتـبكى. وتلف جسدها لفات سريعة، ثم سقطت على الأرض وأخذت فى نشيج هيستيرى.

رمـى سيد أبو حسين الكأس من يده واتجه نحوها. توقف المجتمعون عن الشراب، تركوا كئوسهم والتفوا حول رفيقة. قالت جليلة:

- ابعدوا انتم.

أخذتها إلى حجرتها وقد ساد صمت حزين بين الرجال والفتيات.

جلس سيد أبو حسين وقد شعر بأن شيئًا غير عادى يشده الآن إلى رفيقة. لقد كان يأتى باحثًا عن المتعة فى هذا المكان، يريد أن يفرغ كم الجهد الذى يبذله

فى قريته. هناك لا يهتم بما يقوله الناس عنه فهم لا يستطيعون مواجهته، وهو لا يظهـر نـزواته لأهـل قريته باستثناء الأتباع الذين يسيرون خلفه حين يأتى إلى البـندر لقضاء الأعمال الخاصة به وبقريته، ثم يترك أتباعه ليقضى ليلته فى هذا البيـت ليعود إليهم فى اليوم التالى وقد لبس وقاره الذى خلعه. كثيرًا ما يقرر ألا يعـود إلـى هذا المكان، ولكن ما إن يفكر فى الذهاب إلى البندر حتى يتحرك فيه الحنين إليه وبالذات إلى رفيقة. يتعجب من نفسه له زوجات لا يجد من بينهن من يعطـيه عطـاء رفيقة إنهن خفر ولو تزوج ألفًا من قريته لما أشبعنه كما تشبعه رفـيقة ينسـاها فى قريته فتعود إليه فى البندر وكأن العالم ليس فيه إلا رفيقة. يعـرف لمـاذا يعجـب بهـا؟ جمال وجهها، سحر جسدها، عطاؤها الذى تمنحه باسترخاء، ولكنه فى هذه اللحظة يرى شيئًا آخر غير الجسد.

خـرج وقـد عاد إليه وقاره، ذهب إلى المعدية فقد قرر أن يعود إلى قريته وصورة رفيقة لا تغادر تفكيره.

فى صباح اليوم التالى قال بصيرى لنور الدين:

- مش رايح مولد الشيخ الطواب؟ أنا رايح هناك.
- مـش عارف يابصيرى إذا وافق أبويا أروح... بس أنا خايف الحصان يتعب م المشوار. قوص بعيدة.
- دول تلاتين كيلو. يعنى فركة كعب.
- الأبجر عزيز على ومحبش أتعبه.
- يا أخى متخفش على الأبجر... يا عنتره.
- بتتريق يا بصيرى.

افـترقا ليلتقيا ظهرًا، وانطلقا إلى قوص ليشاركا فى احتفالات مولد الشيخ الطواب. وصلا قوص وقد تجمعت، وكل قراها، للاحتفال بالمولد، استراحا وأراحا فرسـيهما ثـم انطلقا إلى النهر، وأخذ كل منهما يغسل فرسه فى مائه. وبعد أن انتهيا قال نور الدين لبصيرى:

- امسك الحصان وخلى بالك منه.

خلـع نـور الديـن ملابسه وألقى بنفسه فى النهر، وراح يسبح وبصيرى يقـول لـه:

- يا أخى هو ده وقت سباحه متطلع.

ولكن نور الدين قد ابتعد عن بصيرى كثيرًا.

النهر فى هذه المنطقة يتسع كثيرًا عنه فى الأقصر وهو لن يتوقف حتى يصل إلى الشط الآخر. إنه لا يستطيع مقاومة النهر، فما إن يقترب من الشط حتى يلقى بنفسه فيه ويغيب وكأنما بينهما علاقة حب حية لا يهدأ منها نور الدين حتى يلمس روح النهر.

ضاق بصيرى بنور الدين فليس هناك وقت فالمرماح قد نصب، فكر أن ينزل النهر ولكنه تراجع، ليست لديه الرغبة فى أن يلمس الماء فرمى بجسده على الشط مستلقيًا يتطلع إلى الأفق يغمض عينيه لينظر إلى الشمس وهى تقترب من الجبل، إنها قد تخطت ثلثى الأفق، عاد نور الدين وأخذ فى لبس ملابسه، أحس به بصيرى فوقف.

- مبدرى متقعد هناك ياكش تطلع لك عروسة البحر تاخدك بعيد.

لم يرد عليه نور الدين، ركب حصانه فتبعه بصيرى ومضيا نحو مسجد الشيخ الطواب. دخل نور الدين المسجد صلى ركعتين ثم زار مقام الشيخ وخرج ليجد بصيرى قد وصل به الضيق درجة كبيرة.

- أنا حمشى يا عم.. إحنا جايين للمرماح والا نستحم ونصلى ونزور المشايخ، ركب نور الدين فرسه ومضى مع بصيرى إلى حلبة المرماح.

حرك بصيرى عينيه ينظر إلى الحلقات المنصوبة فى الميدان، توقف نظره عند حلقة الرقص ليرى رفيقة ترقص وكأنها تصلى لروح مجهول تحاول أن تكسب رضاءه.

- يا نور.. آه لو تشوف رفيقة وهى بترقص.

لم يرد نور الدين عليه، تمنى لو يضرب بزانته كل الموجودين حول حلقة الرقص التى لم يوجه إليها ناظره بينما ارتمت عينا رفيقه صدفة على نور الدين وهو فوق فرسه فتوقفت عن الرقص. صرخ بصيرى:

- أهى بطلت رقص ياسى نور الدين...

أنت مشكلتك إنك إنسان ملكش قلب... ولا حس.. متعرفش رفيقة... لو شفت فخادها ولا حركة وسطها ولعب ردفها... يا بوووى.

لم يسمع منه نور الدين كلمة كان حصانه يتحرك بسرعة إلى حلبة المرماح بينما توقف حصان بصيرى وهو يمعن النظر إلى رفيقة.

تركت رفيقة الرقص، ومضت إلى حلبة المرماح دون أن تغير من ملابسها ومـــا إن اقتربت من نور الدين حتى وجدته يدخل الحلبة بحصانه، تمركزت نظرة عينيها عليه، حتى الحصان أصبح جزءًا من كينونته. قفز قلبها مع حركته، توتر وأثـــير مع كل حركة من حركاته. لأول مرة تجد نفسها تنظر إلى السماء لتخاطب الله: يـــا رب محـــد يهـــزمه... يـــا رب احفظه. دعوتها هذه غريبة فإن أحدًا لم يكلمهـــا عـــن الله فهـــى لا تعـــرفه ولم تحاول أن تعرفه. إنه بالنسبة إليها شيء مجهـــول لا يذكـــره الـــناس أمامها إلا فى أيمان مغلظة ليؤكدوا صدقهم بينما هى مـــتأكدة من كذبهم. تسمع كلمة الله صادرة كأنها لعنات حين يذكرها الرجال الذين كانت لا تهتم بهم...

يا شيخة حرام عليكى... خافى ربنا... روحى ربنا يخرب بيتك.

وهؤلاء الناس يعرفون أنه لا بيت لها فمكانها بيت من يدفع الثمن، وهاهى الآن تـــتجه لهـــذا الروح المجهول لها، تناديه ليحفظ نور الدين، رأت رجلاً يوجه عصـــاه بقســـوة إلى وسط نور الدين، أغمضت عينيها وخرجت كلمة حارة منها يارب.

لـــم تفـــتح عيـــنها إلا حين دوى التصفيق فقد أسقط نور الدين الرجل على الأرض ولـــم يـــنزل ليرفعه فهو لا يستحق ذلك، كان حريصًا على أن يؤذى نور الديـــن، تخلـــى عن آداب اللعبة، صفقت... تحركت لتقترب من الخط الفاصل بين الجمهور والفرسان.

الـــناس يلتصقون بها، يحاولون لمسها. لم تكن تهتم بذلك من قبل بل كانت تحـــبه، ولكـــنها الآن تكـــره منهم هذا الفعل. ألقت نظرة على جسدها فعاد إليها إدراكهـــا، إنها شبه عارية. خرج نور الدين من الحلبة خافت أن يراها على هذه الصـــورة، تركت الحلبة ومضت بعيدًا لترى بصيرى قد نزل عن حصانه وهو يكلم جليلة اقتربت منهما:

- ازيك يا رفيقة...
- ازيك يا بصيرى.

- ايه اللى جابك؟
- انت ايه اللى جابك؟

ضحك بصيرى:

- ايه اللى جابنا احنا لتنين؟

لقد جاءت لترقص فلم ترقص، وجاء ليلعب فى المرماح فلم يلعب، رأى نور الدين قادمًا تحرك نحوه.

- ابعدوا لحسن نور الدين يسود عيشتنا.

مضــت رفــيقة، وجليلة، دون أن تشعر بضيق فهى لا تريد لنور أن يراها على هذه الصورة.

* * *

ذهب نور الدين إلى مسجد الطواب ليصلى المغرب. قضى الوقت بعد الصلاة فى قراءة القرآن حتى صلى العشاء، ثم خرج لينضم إلى حلقة ذكر بقى فيها حتى منتصــف الليل ثم ذهب ليبحث عن بصيرى فى وكالة العزيزى بالسوق فلم يجده ولم يجد حصانه هناك فبصيرى قد تابع جليلة ورفيقة، فقد قررت رفيقة ألا ترقص الليلة ومضت لتبقى عند أقربائها فى كرخانة قوص.

يقول بصيرى إنه قضى ليلة تعد من عمره. لقد تقبله أهلها على أنه صديق رفــيقة وجليلة. عاملته رفيقة برقة لم يتعودها من أحد من بنات قبيلتها، لم يسأل بصــيرى نفسه لماذا تعامله رفيقة بكل هذه الرقة، لم يتصور أن تحبه فهو يعرف أهلهــا جيدًا؛ إنهم يتاجرون بأجساد بناتهم، دفعته جليلة أن يسرق والده ليعطيها نقــودًا. يذكــر أنـــه سرق جديًا من جيرانه باعه وأعطاها ثمنه ثم اكتشف أمره، ضربه أبوه فى هذا اليوم ضربًا ترك آثارًا باقية فى جسده.

تفاجئه هذه المعاملة.

قالت رفيقة:

- أمال فين صاحبك دلوقت؟
- تلاقيه بيصلى أو بيزْكر..
- روح له ليستعوقك أو يشَغل عليك.

تأخـــر فعلاً على نور الدين. نسى نفسه مع هاتين الشيطانتين. استأذن فى الخروج فتفاجئه رفيقة بالسؤال:

- معاك فلوس؟

تصور أنها تريده أن يدفع ثمن هذه اللحظة فضحك.

- من فين... ولا سنتيم!

تضع رفيقة يدها داخل رقبة جلبابها لتلمس صدرها ثم تخرج له قطعة نقود فتلقيها لبصيرى الذى يتلقفها ويفاجأ حين ينظر إليها بأنها جنيه ذهب.

- ايه ده يا رفيقة؟
- عايز تانى؟
- لأ كفايه... ليه ده؟
- يا أخى بحبك...

خـــرج بصيرى وهو لايصدق ما حدث، فالغوازى فى نظره لا يعرفن الحب، فـــك حصانه وحصان نور الدين، وربط لجامه فى سرج حصانه ومضى إلى وكالة العزيزى، وجد نور الدين خارجًا منها:

- ايه ده يا بصيرى؟

قال بصيرى بجدية مفتعلة:

- كنت فى مهمة خاصة...
- طيب يلا بينا...
- على فين؟
- نرَوح...
- وليه منباتش هنا؟!
- لازم أرجع... بكره حصاد القمح يا بصيرى وضرورى أكون هناك.

لا تنفع المناقشة مع نور الدين، إنه دائمًا يضيع اللحظات الجميلة بالأحاديث الجادة.

قال بصيرى وهو فوق حصانه:

- مش أحسن نتعشى؟!
- ماليش نفس...
- أنا دعيك... معاى فلوس.

أخذ بصيرى نور الدين إلى مطعم بجوار الشيخ الطواب، وبعد أن أكلا وضع بصيرى يده فى جيبه ليدفع الحساب فلم يجد الجنيه الذهب لقد اختفى. صرخ:

- ضاع منى الجنيه الدهب...

دفـــع نور الدين الحساب بينما بصيرى يبحث فى كل جيب من جيوبه عنه، لقد اختفى دون أن يعرف كيف ضاع.

ضحك نور الدين فضحك بصيرى ضحكة عالية:

- مال تجيبه الريح تاخده الزوابع...

ركبا فرسيهما وسارا نحو النيل ليتجها جنوبًا إلى الأقصر.

عــندما وصـــلا إليها أخذ نور الدين طريقه شرق المدينة إلى مشايخ عطية ليبيـــت فـــى منزلهم المجاور للأرض كى يقوم مع الفجر ليبدأ حصاد القمح بينما اتجه بصيرى إلى منزلهم فى الأقصر القديمة لينام هناك.

اســـتيقظ بصـــيرى فى الظهيرة ليبدأ أول عمل فى يومه بالذهاب إلى جليلة الـــتى لـــم تكن قد استيقظت بعد، ولكنه وجد رفيقة جالسة على كنبة أمام البيت. رحبـــت بـــه رفيقة ترحيبًا حارًا وأدخلته حجرتها، كان بصيرى يريد أن يسأل عن الجنيه الذهب ولكنه تأكد أنه لا رفيقة ولا جليلة أخذتاه منه.

تباســـطت رفـــيقة مـــع بصيرى الذى وجدها فرصة أن يقضى لحظة جميلة معهـــا. لكـــم تمناها فأعرضت عنه هذه الغازية الحجرية القلب التى تختار الرجال بمـــزاجها الخـــاص. ترى أدخل المرحلة التى تعجب به امرأة مثل رفيقة دون أن يدفـــع لها الثمن؟ هذا مستحيل ولكنها أعطته أمس جنيهًا ذهبًا، لابد أن فى الأمر شيئًا.

خرجـــت رفيقة دون أن تستأذن. وعادت ومعها جليلة تحمل صينية طعام.. دجاج محمر قال فى نفسه: إيه الحكاية...المسأله فيها سر.

جلســـت جلـــيلة بجواره تأكل معه بينما سهمت رفيقة وشردت عيناها بعيدًا عـــنها. لقـــد قضت الليل كله ساهرة مع جليلة حتى أخذا قطار الصباح ليعودا إلى الأقصر، قالت لها جليلة:

- انت مش عجبانى اليومين دول...

لم تخف عن جليلة همها... نور الدين يدخل فى دمها، فى عقلها، فى قلبها ولا تريد أن تصده.

صرخت جليلة:

- نور الدين ود الحجاجيه.
- ينهار أبيض افتحى علينا فاتحة.

رفيقة لا تهتم بالعالم كله لو تحصل على نور الدين.

فـــى الحقـــيقة هـــى تهتم، لقد اتجهت إلى الله لأول مرة فى حياتها، كرهت عريها استحيت منه. قالت بحرقة:

- أنا عايزاه يا جليلة عايزاه... يآخده... يا حموت...

فكرت جليلة فليس هناك شخص غير الولد العبادى بصيرى.

جلـــيلة تداعبه ورفيقة شاردة... الأمور تتركب تركيبًا غير واضح فى ذهن بصيرى، دجاج محمر وشاى، سألته جليلة:

- أجيب لك خمرة؟
- أنـــا مبشربش... أعمل أى حاجة إلا السكر... آه لو سكرت ونور الدين شم ريحتى... مش حيحصل طيب.

عـــندما ســـمعت رفـــيقة اسم نور الدين عادت بعينيها إلى بصيرى، أصغت السمع إلى كل كلمة يقولها، لم يغب عن بصيرى هذا التغير، قالت رفيقة:

- انت بتخاف منه يا شيخ العبابدة؟
- مفـــيش عـــبادى بيخاف يارفيقة بس أنت متعرفيش نور الدين. اتولدنا سوا وتربينا سوا، مفيش حد عقله زى عقل نور الدين.
- لأ. انت بتخاف.
- أيوه يا رفيقة بخاف... عايزه إيه؟
- ولا حاجة.

حاولت جليلة أن تهدئ غضب بصيرى فقال بصيرى:

- مالها هيه... أخاف مخافشى... ومالها ومال نور الدين؟!
- أنا مقلتش حاجة يا بصيرى...

مالت رفيقة على بصيرى تحتضنه، ضمها وهو يقول:

- هو ده وقت تجيبوا فيه سيرة نور الدين.

ضمته بشدة وهى تتمنى أن يذكر نور الدين ويكرر ذكره دون توقف.

خرجت جليلة، وتركت رفيقة بصيرى لتخلع ملابسها وهو ينظر إليها بعينى الصـــقر. جميلة... جميلة رقيقة حرك يده على جسدها حملها بين ذراعيه، ألقاها على السرير... ضمته... ضمها... حاول أن يقتحمها صرخت ثم أخذت فى البكاء:

- مش قادرة يا بصيرى.
- غطت جسدها بملاءة.
- مش قادرة... مش قادرة...

دهـــش بصيرى لسلوكها فى هذه اللحظة. كل ما حدث منها منذ ليلة أمس يدهشه ويحيره. وما يحدث الآن لا يفهمه بصيرى ولا يجد له تفسيرًا.

وقف بصيرى، لبس ملابسه، ربت على كتفها، ضمها بحنان:

- مش عاجبك ولا إيه يا رفيقة؟ عايزه حاجة؟ أسرق لك جمل من أبويا... أسرق لك كل الجمال اللى عندنا.
- لأ يا بصيرى... الحكاية مش كده أنا بحب يا بصيرى... فاهم؟ بحب.

تحركت أفكار كثيرة فى ذهنه. هذا زمن العجايب، غازية من الغجر تحب... مـــا دخله فى هذا... تضمه. تخلع عارية. تبكى. صوت نحيب رفيقة يرتفع. قلب بصيرى يرق لها، هى إنسانة على كل حال.

- هدى يا رفيقة... بتحبى وماله.. هو الحب عيب.
- أعمل إيه يا بصيرى؟

قال بصيرى بتلقائية متصورًا أنه يقول الحكمة:

- اللـــى بتحبـــيه ده... نامى معاه... اجوزيه... اعملى أى حاجة وبطلى عياط.
- مقدرش أعمل أى حاجة لوحدى.. تساعدنى؟

فكت كلمتها هذه الألغاز التى حدثت الأمس واليوم. فالجنيه الذهب والدجاج لم يكن لسواد عيون بصيرى. وإنما لسبب آخر.

ماذا تريده هذه المرأة أن يكون؟ قوادًا لها. هذا آخر الزمان. أين أنت يا نور الدين لترى صاحبك؟

لم يغضب بصيرى منها. شعر بالرغبة فى أن يعرف هذا الشخص:

- ومين المحظوظ ده يا رفيقة.؟
- صاحبك نور الدين.
- يـا بنـت الأبالسـة ملقتيش غير نور الدين.. طب عيطى.. معاك حق تعيطى ابكى كمان شوية.. شويتين زى متحبى.
- ساعدنى يا بصيرى.

دخلت جليلة لتقول:

- أيوه ساعدها... وليك ميت جنيه دهب.
- أدى صاحبى للشيطان بميت جنيه دهب حرام عليكم... ولا مليون.
- وإيه يعنى هو انت بيهمك.
- لمـا يكون الشيطان بيلاعبنى ألاعبه لكن نور الدين لا... نضافته أجمل شىء فى حياتى.
- وإذا قلت لك أنا ليك على طول يا بصيرى؟!
- برضه لأ.
- يا عبادى يا زفر...

ضحك بصيرى:

- ماله العبادى الزفر؟ .. مش حيبيع صاحبه.

عاد لرفيقة تماسكها:

- يـا جليلة متشتميش بصيرى ده راجل جدع... بس أنا مش عايزه من نور الدين أى حاجة... عايزه بس أقعد معاه أشوف عينيه.

أراد بصيرى أن يختم الموقف:

- بس كده... أحاول.

تـركهما بصـيرى وانصرف، وقد اختلطت الأمور فى ذهنه ولم يعد يتبين شيئًا.

رفيقة الغازية تحب نور الدين. ولماذا نور الدين بالذات؟ إنها لا تعرفه، كل ما رأته منه لمحة وهو يلعب فى المرماح. نور الدين بيضاله فى القفص... «يدى الفوله للى بلا أسنان.

رفيقة التى تهز المديرية ويلقى إليها الأعيان الذهب تحت قدميها تحب نور الدين. لماذا نور الدين بالذات؟ والشيخ الطيب أين هو؟ ليرى ويسمع... لقد سمعه بصيرى يقول إن نور الدين سيقفل هذا البيت وهاهى سيدته تحبه... رفيقة عنيدة لن تهدأ حتى تدخله بيتها.

كـــان بصيرى يسير مسرعًا وهو يتجه إلى مشايخ عطية ترى ماذا سيقول نـــور الديـــن عندما يعرف ما حدث اليوم؟ مائة جنيه ذهبًا ثمنًا للحظة ترى فيها رفيقة عيونه.. ثمن نور الدين أغلى من ثمن رفيقة.

وصل بصيرى إلى منزل نور الدين فى مشايخ عطية.. طرق الباب لم يسمع ردًا ففــتحه، دخل فلم يجد أحدًا، خرج إلى الأرض لينظر نور الدين، وجده لابسًا سرواله يجمع السنابل ويحزمها، إنه يعمل بمفرده. أحبتك رفيقة وهى لم تر منك إلا رجـــلاً على فرس، ولو رأتك الآن لأدركت أنك تستحق أكثر من حبها وحب كل البشر.

نادى بصيرى نور الدين:

- يا نور الدين... يا نور الدين...

رد عليه نور الدين:

- تعالى يا بصيرى لم القمح معاى.
- كفاياك كده الشمس سخنة قوى... تعالى نقعد فى الساقية...
- أهو انت دايما تعطل...

تـــرك نـــور الدين السنابل واتجه نحو بصيرى ومضيا إلى الساقية يجلسان تحت ظلال تكعيبة يغطيها نبات الخروع.

استلقى نور الدين على الأرض المفروشة بالتبن وارتمى بصيرى.

فكـــر بصـــيرى أن يقص على نور الدين قصة رفيقة، لم يستطع، وجه نور الدين يصده... يمنعه من فتح أى موضوع.

أخذ بصيرى ينظر إلى أوراق الخروع:

- يا أخى كنت زرعتوها عنب مش خروع!!
- الخروع فيه الشفا من كتير من الأمراض... يا أخى بطل نقد.

- إلا قل لى يا نور الدين... انت عندك قلب؟
- تقصد إيه؟
- يعنى عندك قلب؟!
- يــا أخــى ليه مش إنسان والا حيوان... يا بصيرى انت جاى تعطلنى علشان تقول لى عندك قلب... ولا معندكشى.
- أصلى بحب.
- بتحب؟
- بحب جليلة...
- جليلة مين؟
- الغازية...
- يا فتاح يا عليم يا صباح يا كريم!!
- احنا قربنا العصر دلوقت...
- بتحب جليلة وعاوزنى أعمل لك إيه؟
- اسمعنى يا أخى... ساعدنى!!
- يــا بصــيرى بطل هزار... انت مش حتّوب... الله يتوب عليك أنا كنت بفكــر أروح أهدم البيت دكهه ع اللى فيه... وكنت متصور إنك حتكون معاى.
- تهدمه.. الواحد يعيش من غيره إزاى؟!
- مش حهدمه... ربنا يهدمه.
- آه لو شفت رفيقة.. الصدر إيه.. والوسط إيه.. عليها سيقان ولا نعومة الكافور والردف يا بوى..
- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... بصيرى قوم روح.

قال بصيرى وهو يضحك:

- رفيقة عايزاك.. عايزة تشوف عينيك وتدينى ميت جنيه دهب.

قام نور الدين وحمل بصيرى بين يديه..

- أنا حرميك فى الساقية..

وألقى به فى بئرها، وبصيرى يصرخ وقد تعلق بحبال قواديس الماء.

- والله انت معندك رحمة... شوفها وأنا آخد الميت جنيه...

خرج بصيرى مبلولاً ليرقد فى مكانه، بينما أغمض نور الدين عينيه وغاب فى النوم.

عرفت رفيقة أنه لا أمل لها فى لقاء نور الدين. لم تيأس.. أخذت تتابعه فى كل مرماح، اكتفت برؤيته وهو يلاعب الفرسان.

قالت زميلاتها وقريباتها فى الكار إنها تغيرت، كما قال الرجال ذلك، أصبحت شاردة لا تهتم بأحد، لم تعد تعطى المتعة من داخلها، تحولت جسدًا باردًا ولكنه جميل.

ذهبت رفيقة إلى أكثر من مولد لترقص، توقفت عند كل حلبة مرماح لم تجد نور الدين، قالت لجليلة:

- نور الدين مش موجود... غايب ليه مدة يا جليلة.. حتى الشوفة اتحرمت منها!!

كان وجهها مصفرًا وهى تكلم جليلة.. شفتاها تهتزان بارتعاشة ظاهرة، عيونها متعبة.

- مش حرقص الليلة.. ومش حنام مع حد.. الرقص والرجالة قلنا وعد ومكتوب... طب وغياب نور الدين برضه ده وعد ومكتوب يا جليلة... وعد إيه ده يا بوى؟ يكنشى عيان والا حصلت له حاجة.

عادت إلى البيت وعادت معها جليلة، بصيرى غير موجود لتعرف أخبار نور الدين... سافر العبادى اللعين إلى السودان. هو أيضًا وعدها ومكتوبها.

لبست جليلة بردة وغطت وجهها ومضت نحو الساحة.

وجدت امرأة قرب الساحة سألتها عن بيت الشيخ مصطفى والد نور الدين، أشارت المرأة إلى البيت. تشجعت جليلة وسألتها عن ابنه نور الدين أخبرتها المرأة أنه سافر إلى مصر ليتعلم فى الأزهر الشريف... تركت المرأة كأنها تتجه إلى منزل الشيخ مصطفى وعادت أدراجها إلى البيت.

أخبرت جليلة رفيقة بما سمعت، قالت لجليلة بصوت حزين:

- سافر وسابنى والله لروح له آخر الدنيا.
- تروحى فين يا بنتى دى مصر عالمها كبير... انت عارفه هوه فين ولو عرفت حتقولى له إيه؟.

حقوله يا نور الدين... عايزاك وعايزه أتوب... ده الحب وعد ومكتوب.

وفى الصباح اتجهت رفيقة إلى المعدية لتأخذ مركبًا إلى نجع حمادى لتركب القطار إلى مصر.

مصر مدينة كبيرة عالم مختلف... ولكنها امرأة جميلة، لها دائمًا مكان فى أية بقعة من الأرض... اتجهت إلى حى الأزهر فلا بد أنه هناك ولابد أن تجده.

مـــرت أيــــام وهى تسير ما بين حى الأزهر والحسين والغورية، تنظر إلى الوجوه فلا تجد نور الدين، طال انتظارها، انتهت نقودها، عادت إلى حرفة الرقص تمـــتع رواد المقاهى والموالد برقصها... أعجب بها الرواد كثيرًا فهى حس جديد يختلف عن راقصات مصر، بحيويتها الدافئة... لم تتوقف عن البحث، عاشت حياة غريـــبة تـــرقص باللـــيل وتـــزور مشايخ القاهرة بالنهار لعله يكون بين الزوار. اهتزت فى مقام الحسين، بكت وهى تمسك بخشب مقام السيدة زينب وتدعو الله:

- يا رب أقابل نور الدين.. أشوفه يا ست ببركتك...

ولكن الله لم يستمع إليها والسيدة أعرضت عنها فلم تر نور الدين. هكذا تقول.

أصـــابها اليأس من لقائه، كرهت القاهرة ضاقت بحاناتها وبمشايخها لا أحد يفهم.. رجعت إلى الأقصر لتمنح نفسها لطلاب المتعة.

فرحت جليلة بعودتها كثيرًا، كان البيت مظلمًا دونها، خف الزوار، وقل دخل البيت، وقد أصاب جليلة السأم أن تعمل دون رفيقة.

قالت جليلة:

- كل حاجة حترجع حلوه زى زمان...

لم ترد رفيقة، فلن يعود شىء مثل زمان، إنها لا تعرف هذا الزمان. كل ما تعــرفه أن المقـــدر والمكتوب ألقيا فى طريقها بنور الدين، الرجل الوحيد الذى لا تستطيع الحصول عليه.

تغــيرت صـــورة رفيقة بعد عودتها من القاهرة، خفتت ضحكتها، وسكتت روحهـــا، لم تعد تختار رجالها، تساووا جميعًا فى نظرها... فقدت الحرية الوحيدة الـــتى كانـــت تمـــنحها لنفسها. لم يكن أحد يهتم بهذا التغيير غير رجلين بصيرى العبادى وسيد أبو حسين الزغابى.

كان بصيرى الوحيد من بين الرجال الذى تأنس إليه. كان يحترمها ويفهمها، لم يمسها ولم يشتهها فهى عاشقة صديقه، كانت عندما تراه ترحب به وتترك زوارها وتقضى اليوم كله بصحبته وصحبة جليلة التى عمقت علاقتها به. كانت تسأله عن نور الدين وعن أحواله، ولكن بصيرى لم يعد يأتى بانتظام، فقد ورث عمل أبيه فى تجارة الجمال، يذهب إلى السودان ثم يعود منها إلى القاهرة ليتوقف عندها وقتًا قصيرًا. تتمنى أن يعود ليحدثها عن نور الدين.

قال لها ذات يوم وكان فى زيارتها:

- نور الدين هنا.. رجع خلاص ويشتغل فى قنا.

اهتزت... وقالت بصوت حزين عميق:

- نفسى أشوفه يا بصيرى... نفسى أكلمه كلمة واحدة.
- والله معارف إزاى يا رفيقة... نور الدين اتغير معدش بيروح المرماح.. ولا بيغضب... وقلبه رق رقة الميه.. نور الدين طمطم يا رفيقة... محدش عارف... أنا عارف وأنا متأكد... وشفت السر.
- وأنا متأكدة طول عمرى إنه مطمطم... هو حد يعمل فيّه كده إلا راجل مطمطم، دى زانته كان فيها سر. تعرف يا بصيرى أنا مبشتهيش نور الدين، أنا نفسى أشوفه بس... أقعد معاه...

دخل عليها سيد أبو حسين سكران، كان يعرف الصداقة الحميمة التى تربطها ببصيرى.

- ازيك يا بصيرى...
- أهلاً يا عمدة...
- جيت م السودان؟

خرج بصيرى وتركهما منفردين، إنه يعرف أن هذا الرجل يحبها. قال بصيرى لنفسه.. يا سبحان الله الدايرة مبتتقفلشى أبدًا.. كل الأشياء التى تلتف حول نور الدين تتغير. بصيرى، رفيقة، سيد أبو حسين. منذ أن سافر معه إلى السودان لم يعد يجد متعة فى زيارة جليلة. إنه يذهب بحكم العادة. الجلسة فى هذا البيت لها طعم خاص لا يستطيع أن يتخلص منه، وقد بدأ شىء ما يتحرك بداخله يعذبه كلما عاد من عند جليلة. وعذابه الأكبر حين يلتقى بنور الدين. إنه لا يستطيع أن ينظر إلى وجهه. إنه يتعجب منه، ما الذى يجعل نور الدين يتقبل صداقته؟

ورفيقة يأكل الحزن عينيها ومع ذلك يزيدها جمالاً، مات أبوها فتولت رعاية البيت والبنات، تزداد رقة وقسوة.

وسيد أبو حسين هدأ وانهد، أصبحت كلمة رفيقة لديه أمرًا. يأمر وينهى فى قريته ليعود إليها طفلاً وديعًا وكأنه ليس عمدة أقسى قرية فى المديرية ومع ذلك يقود أهلها بالقوة والجبروت.

قال لها فى ذلك اليوم:

- أنا عايز أجووزك يا رفيقة.

لم تأخذه مأخذ الجد كان سكران.

- يا عمدة اعقل... أنت سكران.
- أنا بكلم جد.
- لأ أنت سكران.

تـــركها وانصـــرف ثم ذهب إلى وكالة النخيلى لم يخرج من حجرته. انشغل رجاله عليه.

طرق بابه واحد منهم:

- مش عايز حاجه يا عمدة؟
- روحوا انتوا... وأنا جاى بكره.

لم يناقشه الرجل فقد تعودوا أن يسمعوا كلمته على أنها أمر لا يناقش.

شـــعر ســـيد أبو حسين أن شيئًا فى داخله يأكله، أصبح يضيق بعالم رفيقة ويغار عليها ويريدها له.

لـــم ينم ليلته، قام مع طلوع الفجر، ذهب إلى رفيقة وجدها نائمة، طلب من إحـــدى البنات أن توقظها، كانت نائمة مع رجل آخر تركته لتقابل سيد أبو حسين الزغابى.

- إيه فيه يا عمدة؟
- أنا عاوز أجوزك.
- أنت سكران.
- لأ مش سكران أنا عاوز منك كلمة.

- أنا منفعكش وانت متنفعنيش.
- بقى كده يا رفيقة.

تـــركها وانصـــرف، مضى نحو النهر ليركب مركبًا إلى بلده، توقف بجوار الجميزة، نظر إلى الأفق، إلى النيل، عادت رفيقة قوية إلى ذهنه. يتعجب من نفسه رآهـــا نائمة مع رجل وعرض عليها الزواج وهى ترفض، اتجه إلى المعدية، ولم يعد إلى رفيقة.

اســـتاءت رفـــيقة مـــن تصـــرفها مع الزغابى، لا تدرى لماذا عاملته بهذه القسوة؟ منحت جسدها لكل من دفع الثمن. لم تفرق بين أى واحد منهم، أما قلبها فلم تمنحه إلا لنور الدين ولن تتزوج حتى تكون حرة فى أن تمنح هذا القلب لـــه. كان عليها أن تكون رقيقة مع الزغابى. على كل فهذا خير من إعطاء الأمل لـــه. إنهـــا لا تـــريده أن يضايقها بمطلبه هذا. هو لا يعرف ما يقول، مندفع بعاطفته. ســـيتغير غدًا ويحاسبها على حياتها، إنها تظلمه لو قبلته. سيظل قلبها بعيدًا عنه وعن العالم. تأوهت... خرجت الآهة حارة حارقة... نظرت إلى السماء...

- وبعدين يا ربى؟!

لـــم تعـــد إلـــى حجـــرتها، ذهبت إلى حجرة جليلة... ارتمت على السرير بجوارها، أخذت تبكى وجليلة تحاول أن تهدئها.

كانـــت جلـــيلة تلومها على حب بلا أمل، تترك جميع الرجال لتحب رجلاً لا تعـــرفه ولـــم تلتق به. رفيقة تصنع شيئًا لم تصنعه بنات عائلتها. إنهم لم يخلقوا للحـــب، ولكنها تفهمها الآن جيدًا فهى أيضًا تحب بصيرى العبادى حبًا أخذ يسرى فـــى قلبها فى هدوء وصمت، لم تتبينه فى البداية حتى كبر وعجزت عن إيقافه. وبصيرى لا يشعر بشىء. كان يأتى إليها ليقضى وقتًا ممتعًا.

هذا العبادى يدغدغها بلمساته الحسية. إنه أرضى كأنه خلق من طينتها.

وهـــو الآن يتغير يأتى إليها يقضى وقته معها فى الكلام والحديث. كلام هذا العـــبادى لا تمل منه أبدًا. يمر عليه وقت قبل أن يلمسها وهى تشعر بأن حبها له يزداد يومًا بعد يوم. هذا العبادى اللعين لكم تحبه.

* * *

بـدأت أعمال بناء بجوار البيت فقد هدمت جبانة الأقباط، وأنشأت الجمعية الخيرية القبطية مكانها مدرسة جديدة.

أعطـت المدرسـة حياة للبيت، فقد أصبح بعض الطلبة القرويين من رواد البيت المنتظمين.

وذات يـوم حضـر بصيرى إلى البيت فوجد الطلبة، طردهم فغضبت جليلة ورفيقة من فعله.

قال بصيرى لجليلة:

- دول عيال يا جليلة!!
- وانت مالك؟ أنا حرة...
- مهـو يا جليلة.. انت حره آه.. لكن العيال دول فى البيت عارفة معناه أيه.. إنى أنا حهده على اللى فيه.

قالت رفيقة:

- متقدرش تهده... ده مفتوح بأمر الحكومة.
- بأمر الحكومة... بأمر الدنيا كلها... عيب... وإلا انتو متعرفوش العيب! على كل يا جليلة أنا كان رأيى فيكى غير كده... وعلى كل إذا اتمسكتوا بحكاية العيال مش حتشوفوا وشى تانى.

سـكتت جليلة، فهى تحب بصيرى وتوافق على كلامه.. تغضب منه وتثور علـيه، ولكنها لا تريد أن تخسره فهو الوعد والمكتوب. لو يتزوجها هذا العبادى ويأخذهـا معـه بعيدًا إلى السودان لارتاحت من كل ذلك. إنها لم تعد تتمتع بهذا البيت.

قالت لبصيرى:

- خلاص يا عبادى يا عقر... أنت تكسب.

هدأت كلمات جليلة من بصيرى ولم تثره رفيقة وهى تقول له:

- لأ مش خلاص... محدش يفرض رأيه علينا.

قـال بصـيرى بهدوء وقد اقترب من جليلة ووضع يده على كتفها وقربها منه.

- اســمعى يــا رفيقة... الشيخ نور الدين اتنقل من قنا وبيشتغل هنا فى المدرسة دية وإذا سمع بحكاية العيال مش حيحصل طيب.

مــا إن سمعت رفيقة كلام بصيرى حتى جلست على أقرب مقعد وقد اصفر وجهها ولم تتكلم، كان ذلك إعلانًا منها بالموافقة. بصيرى متأكد أن أى طالب لن يدخل هذا البيت ثانية.

لقــد حــدث تغيير فى جغرافية المكان الذى يوجد فيه البيت فلم يعد منعزلاً بعــيدًا عن المدينة، إذ إن الأهالى بعد أن أمرتهم الحكومة بإخلاء مساكنهم أخذوا يــتجهون إلــى المزارع القريبة من منازلهم القديمة، وعمرت المنطقة وأسموها الأقصر الجديدة.

عرفــت رفــيقة المكان الذى بنى الشيخ فيه بيته، وأخذت كل صباح تلبس الجــبة والقناع الريفى وتقف فى الطريق التى يمر بها الشيخ وهو خارج من بيته فــى طــريقه إلــى مدرسة الأقباط. قلبها يهتز. روحها ترتعش. أحست بالاكتفاء وبالرضــا. إنها الآن تراه: كانت جليلة تعترض أحيانًا على سلوكها غير أنها فى أعماقها تستريح لحبها لنور الدين وتعجب به فهو المقدر والمكتوب.

* * *

ذات يــوم استيقظت جليلة على صوت بصيرى وهو يطرق حجرتها، قامت من فورها سعيدة، احتضنته أدخلته الحجرة.

- جيت يا بصيرى.
- انهاردة الفجر.

ســمعا طرقا على الباب، فتحت جليلة لترى رفيقة، قالت جليلة لنفسها ليس هذا وقت حضورك يا رفيقة.

قالت رفيقة:

- ازيك يا بصيرى حمد الله ع السلامة.
- أهلاً رفيقة.. ادخلى.
- أنا منمتش الليلة دى. بقالى مدة مبنمشى.
- خير؟!
- مانت عارف.. والله بفكر أموت.

- بعد الشر يا زينة النسوان.

جلست رفيقة، غلفهم جميعًا الصمت، وبعد قليل قالت رفيقة:

- مش عارفه أعمل ايه.. مفيش دوا فى السودان للنسيان.. رحت للسحرة واللــى بيكتــبوا منفعش.. أنا تعبانه يا بصيرى.. تعبانه.. فكر بصيرى طويلاً.
- والله معارف أعمل لك إيه..؟ يعنى كل اللى عايزه تعمليه إنك تشوفيه؟!
- أيوه يا بصيرى...
- الشيطان طماع يا رفيقة...
- كفايه أشوفه...
- انت تروحى له البيت...
- إيه..؟
- أيوه هو دلوقت مأذون البلد ومسؤول عن الناس.. روحى اعملى نفسك عايزه تسأليه فى مشكلة.
- فكرك كده.
- مفيش غير كده.

تركت رفيقة الحجرة ومضت إلى حجرتها لتنام نومًا عميقاً.

اســتيقظت لتعد نفسها لرحلة إلى بيت الشيخ. لبست جلبابًا أسود وبردة، لم تضع مساحيق على وجهها، غطت شعرها بطرحة سوداء ومضت إلى بيت الشيخ نور الدين.

أفكــار شــتى تتنازعها فقد مر عمر طويل أكثر من خمسة عشر عامًا على علاقــتها بــنور الدين هى تسميها علاقة، ستدخل بيته الآن، ترى لو أرادها نور الديــن أتعطــيه نفســها؟ أتقــبل أن تخرجه من عالمه إلى عالمها؟ ضايقها هذا الإحساس فهى لا تريده فى عالمها إنها تريده فى عالمه.

وصــلت إلــى بيت الشيخ طرقت الباب، فتحت لها زوجته وكانت حاملاً فى طفلها الأول، نظرت إليها وهى ترتعش.

- سيدنا الشيخ موجود؟
- مين حضرتك؟!
- أنا رفيقة...

دهشـــت الزوجة أن تكون رفيقة شيطانة الأقصر فى منزلها ياما خربت هذه المـــرأة بـــيوتًا عامرة لماذا تأتى إلى هنا.. الشيخ لايصد أحدًا والبيت مفتوح لكل الناس.

أدخلتها إلى حجرة الشيخ وهى تناديه:

- يا سيدنا الشيخ رفيقة هنا...

حضر الشيخ نور الدين وجلس على الكنبة...

لم يحيها. طلب من زوجته أن تغادر الحجرة، فغادرتها قلقة. تمنت لو بقيت أو اعترضـــت علـــى كـــلام الشيخ ولكنها استسلمت، غير أنها جلست بجوار باب الحجرة المغلق تحاول أن تصغى لما يقال.

مكث الشيخ وقتًا ليس بالقصير يتمتم بورده. ولا ينظر إلى رفيقة التى أحنت رأسها ولم تستطع أن تنظر إليه.

كان محفوفًا بنور من الجنة أعشى عينيها، أخذت ترتعش، لم يتوقف الشيخ عن تلاوة ورده، لكنها سمعت صوته قويًا حنونًا:

- مـــاذا أتى بك يا رفيقة، سبعة عشر عامًا طويلة وأنا أنتظر حضورك.. فلا تأتينى.

ذعـــرت المرأة.. ينتظرها.. كيف؟ ولماذا؟ إنه حتى لا يحس بها، أتراه كان يحبها؟ توقفت عن التفكير، ركزت انتباهها لتستمع إلى كلماته.

- ســـبعة عشر عامًا يا رفيقة تنصبين حبال الشيطان فى المدينة. لا يردك راد ولا يوقفـــك وازع... تدفعيـــن الـــناس للشر، تأكلين الدود وتبيعين جسدك رخيصًا بغير تمن.

الشيخ لم يفهم أنها لم تبع جسدها رخيصًا أبدًا... كان يُدفع فيه أغلى سعر يدفع لامرأة.

يـــا رفيقة لن تتوقفى حتى يحل عليك غضب من الله ينزل بجسدك وروحك العذاب الأليم.

كـــان العـــذاب الأليم قد بدأ فقد أحست بدوار... صداع يتحرك يلف رأسها يحتويها بنار حارقة. رأت جهنم دخلتها... آه ما أقساها... ألسنة اللهب تحرقها...

تموت مع كل كلمة من كلماته وتعود إلى الحياة لتحرق من جديد.

- يا رفيقة سيذهب الجسد وتبقى الخطيئة حيث لا توبة ولا ندم... عودى لنفسـك فالطريق مازال مفتوحاً. لا تبيعى نفسك للشيطان، فهناك طريق أجمـل وأروع... يكفى... يكفى ما صنعت يا رفيقة... الله غاضب منك وملائكته والمتقون.

حركك الشيطان لتأتى إلى هنا ولكنى كنت أنصب حبالاً له... أردتك أن تأتى فقـد ازدادت شكوى الناس منك ومن عالمك، لن تفتنينى يا رفيقة فلقد كسرت ما بينى وبين الشيطان منذ زمن بعيد.

يا رفيقة خلطت الحب بالغواية فحرريه منها... الحب هو حب الله، أحبى الله يُغْنِكِ عن الناس ويطهر نفسك وجسدك ويملأ قلبك بنور الحب.

كـان نـور الديـن مستغرقا فى ورده ولكن وجهه كان يكتسى لبدة الأسد. حاولت أن ترفع رأسها لتنظر إليه... لم تستطع فقد كانت ألسنة اللهب تحرقها فى كـل اتجاه... كلماته تحرق قلبها مع أنها لا تدرى من أين أتت فهى متأكدة أنه لم يفتح فمه قط.

رفـع الشـيخ يديـه إلى السماء ليدعو الله فخرجت أول كلمات تصدر من فمه...

- اللهـم أنـر قلب رفيقة... وتب عليها وعلينا وعلى المؤمنين... اللهم باركها فإنها لا تعلم وأهدها واهد بها.

أخـذت النـيران تهدأ مع كلماته وما إن انتهى من دعوته حتى شعرت بأن مـاء النـيل قد فاض فغطى نيران جهنم المشتعلة فى جسدها وأطفأها، وأن ريحًا طيـبة تهب من الجنة تزيل آلام النيران وآثارها على الجسد، وقد شعرت برئٍ فى روحها.

وقف الشيخ نور الدين، وكان ذلك منه إعلانًا بنهاية الجلسة، كفكفت رفيقة دموعها، وقفت، لم تقل للشيخ غير كلمة:

- فتك بعافية.

حين خرجت وجدت زوجة الشيخ فى الصالة، قالت دون أن تنظر إليها:

- فتك بعافية.

دهشــت زوجة الشيخ أن ترى رفيقة مبتلة بالماء وكأنها خارجة لتوها من النهر.

ما إن جلس الشيخ على المصلاة يقرأ ورده حتى طرق الباب فرفع صوته:

- ادخل...

لــم يفاجأ الشيخ ببصيرى العبادى فإنه قد أدرك أنه قد وصل من السودان حيــن حضرت رفيقة. إنها لا تستطيع أن تأتى من تلقاء نفسها فقد حضرت بناءً على نصيحته.

- أهلاً شيخنا...

جلس بصيرى فى مواجهة الشيخ وأخذ يقص عليه أخباره.

قال وهو يبتسم:

- أنا طلقت السابعة.

لم يرد عليه الشيخ.

- أصلها دنقلاوية ماسخة ومتعنطزة.

شــعر بصيرى بأن الشيخ غير مهتم بسماعه، سكت. فى ذهن الشيخ أشياء كثــيرة، بصــيرى لا يحتمل الصمت مع الشيخ، حاول أن يخلق موضوعًا للحديث والشيخ لا يرد، سكت ثم ضاق بالصمت فقال:

- هيه رفيقة كانت هنا... مش برضه كانت هنا.

تغير وجه الشيخ ولبس وجهه لبدة الأسد وصرخ فيه:

- صــبرت عليك كتير يا بصيرى وبرضه مرجعتش وجايينى جنب.. لكن عمايلك دى لازم يكون لها نهاية.

شعر بصيرى أن الشيخ يقف ويقترب منه أصابه الرعب، قال مذعوراً:

- فيه إيه؟ فيه إيه؟

اتسعت عينا الشيخ واحمرتا وهو يحملق فى بصيرى:

- انهارده آخر عهدك بالزنا يا بصيرى الكلب...

مد الشيخ يده إلى رأس بصيرى وهو يحاول أن يبعدها عنه فلم يستطع.

أمســك الشيخ جبهة بصيرى بالخنصر فى ناحية والإبهام فى ناحية أخرى.

توقف بصيرى عن المقاومة. كأن الشيخ يدق الجبهة دقا، وكأنه لن يرفع يده حتى يكسـرها. استسلم. أخذ يئن أنينًا عاليًا، رأى الشرر يخرج من عينيه وكأنه قطع جمـر مشـتعلة، أحس بأن عروق الرأس تتحرك، تشد، تتحول إلى أماكن أخرى. تربط.

صـمت عـن الأنين فقد ذاب صوته وعجز تمامًا عن أن يتفوه بكلمة، رفع الشـيخ الخنصـر والإبهام ولكن إحساسه بأن يده باقية تسحق اللحم والعظام لم يتوقف.. الغريب فى كل ذلك أن الشيخ جالس مكانه يتمتم بآيات من القرآن الكريم وقد حلت عليه السكينة وكأن بصيرى لا يعانى كل هذه الآلام.

طرق الباب، نظر الشيخ إلى بصيرى الجالس فى عذاب لا يستطيع الحركة.

- قوم يا بصيرى افتح الباب...

ما إن انتهى الشيخ من كلمته حتى شعر بصيرى بأن كل الآلام قد انزاحت. لقد عاش زمنًا من العذاب لا يستطيع أن يقيسه.

قام بصيرى ليفتح الباب، عاد ومعه سيد أبو حسين، وقف الشيخ ليرحب به وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه.

- أهلاً بعمدة الغرب كبير الزغابى.

جلس بصيرى وسيد أبو حسين وقد أرخيا عيونهما حتى لا تقع على عينى نور الدين. لا يدرى سيد أبو حسين كيف قادته قدماه إلى هنا.

اسـتيقظ هذا الصباح، شعر بحنين قوى إلى رفيقة، أهانت كبرياءه، قاومها فى نفسه، كلما شعر بانتصاره عليها عادت لتجذبه نحوها بقوة فيقاوم، شعر هذا الصـباح أنه مأخوذ، لبس ملابسه وخرج من بيته، أمر أتباعه أن يتركوه وحده. جاء المدينة، ذهب إلى بيتها، لم تكن موجودة، أخبرته جليلة أنها فى بيت الشيخ نـور الديـن، لم يفكر لم يسأل نفسه لماذا تذهب هناك؟ أخذ طريقه إلى البيت، لا يعـرف مـاذا يقـول للشيخ ورفيقة لو وجدهما؟ ولكنه ذهب، ليس فى داخله أية مقاومـة لأى شـىء... وبعـد أن دخل الحجرة، ورأى الشيخ أفاق لنفسه فأحس بالخجل. ماذا يقول الشيخ الآن؟ إنه يبحث عن غازية سلبته نفسه وروحه وجسده فوق لنفسك يا سيد أبو حسين.... يا زغابى هذا ليس عالمك.

شعر بأنه يقف مرحلة وسطى:

عـــالم رفـــيقة ليس عالمه، وعالم الشيخ نور الدين ليس عالمه، يقف بين العالمين، لا يحس لنفسه وجودًا. قطع عليه تفكيره صوت الشيخ نور الدين:

- أهلاً أبو مهران ولد الزناتى خليفة.
- أهلاً بيك يا سيدنا الشيخ.

ماذا يقول للشيخ؟ لماذا جاء هنا؟ وفر عليه الشيخ الإحراج:

- شـــوف يـــا ســـيد أبـــو حسين رفيقة هناك فى مكانها مستنياك طلعها م المكـــان ده.. وربـــنا حـــيكرمك كرم كبير.. أحسن معاملتها دى فيها خير.. أنت وحدك حطلعه يا سيد.. وده مش اختيارك ده اختيار الله.

قال سيد أبو حسين لنفسه والله الراجل ده مبروك.

- قوم يا سيد روح لها.

قـــام سيد أبو حسين وقبل يد الشيخ ثم اتجه نحو الباب وقبل أن يصل إليه ناداه الشيخ:

- استنى يا عمدة.

وقف سيد أبو حسين ونظر إلى الشيخ:

- أيوه يا سيدنا الشيخ.

وضـــع الشيخ نور الدين يده فى جيبه وأخرج حافظة نقوده، فتحها، أخرج منها جنيهًا ذهبيًا، أعطاه له وهو يقول:

- ادى الجنيه ده لرفيقة نقطة زواجكم.

أخـــذ سيد أبو حسين الجنيه فى صمت لم يجد كلامًا يقوله حتى كلمة الشكر بـــدلاً مـــن أن تخرج من لسانه دخلت لتسرى فى وجوده كله. شعر بعجزه فخرج مسرعاً.

قـــال بصـــيرى لنفسه لقد عذبنى نور الدين اليوم، بينما يرق مع السيد أبو حســـين، نـــور الدين غاضب على، غضبته هذه المرة حادة وقاسية، شعر بضيق فقام وقال للشيخ.

- أنا ماشى يا سيدنا الشيخ.

تعجب بصيرى لنفسه فهذه أول مرة ينادى الشيخ نور الدين بسيدنا.

نظر الشيخ إلى بصيرى ثم رفع يديه إلى السماء وأخذ يدعو الله:

- اللهـــم أهد بصيرى واعف عنه.. وأنر قلبه بنورك، واستر عليه ستره للولايا فى الدنيا والآخرة.

توقف الشيخ عن الدعاء وأمسك بحافظة نقوده وأخرج منها جنيهًا ذهبيًا مد يده بالجنيه إلى بصيرى وقال له:

- خد يا بصيرى.. ربنا يفتح عليك..

خـــرج بصـــيرى وهـــو يشعر بدوار شديد، شىء ما يتغير فى هذا المخ... الشيخ نور الدين يقول ستره على الولايا، بصيرى لم يستر على ولية حتى الآن؟ فمـــاذا يعنى؟ يعطى جنيهًا ذهبًا لسيد أبو حسين ليعطيه لرفيقة نقطة لها، ويعطيه جنـــيهًا ذهباً، لم يقل لـــه لمن يعطى هذا الجنيه، بصيرى لا يحتاج إلى جنيهات. ولكن هذا من مهر عطيات. هل يقصد أن يدفعه لجليلة؟ لقد شجع سيد أبو حسين علـــى الزواج من رفيقة فهل أعطاه بهذا الجنيه الإذن بالزواج من جليلة لماذا لم يقـــل لـــه ذلك مباشرة، قال لنفسه أنت غبى يا بصيرى عشت العمر كله مع نور الدين ولم تفهمه قلبك مظلم.

اصـــح يا بصيرى اصح... وجد نفسه بجوار شاطئ النيل قرب الجميزة... اقترب منها أمسك بها، عشت حياتك فى الحرام يا بصيرى. صحيح ليس فى عيب غير المرأة، أحبها فى الحلال والحرام، توقف عند الحرام تألم، تذكر أنه جنب نزل إلـــى الشـــط، اســـتحم فـــى النهر، خرج وقد استعادت نفسه توازنها، واستراحت رأســـه.أخذ يفكر فى جليلة، حقيقة لقد أحبها طوال هذه السنين أصبحت جزءًا من حـــياته. يعـــرف الناس أنه يحبها وهو ينكر ذلك. لماذا ينكره؟ لأنه عبادى وهى غازيـــة. كلمـــا فكـــر فى الزواج بها، قاوم أفكاره وعدها من نزواته. والآن يقرأ الشـــيخ نور الدين أفكاره، يعرف مكانة جليلة فى نفسه ويدعو لـــه بالستر لستره للولايـــا. ومَـــنْ غـــير نور الدين يدخل جليلة زمرة الولايا. إنه يعطيه الإذن بهذا الـــزواج حيـــن أعطاه جنيهًا من مهر عطيات إنك يا بصيرى قريب من الله وبعيد عنه.. علاقتك بجليلة تبعدك عن الله فلتكن وسيلتك للتقرب إليه.

أخـــذ طـــريقه إليها. وجد سيد أبو حسين يكلم رفيقة. لم يهتم بهما، نادى جليلة...

قالت رفيقة:

- إيه فيه يا بصيرى؟

- مفيش... خليكى فى حالك يا رفيقة.

حضـــرت جليلة فقد كانت مشغولة فى إعداد حاجيات رفيقة، حين دخل سيد أبـــو حسين على رفيقة وجدها مصفرة، تشعر بالضياع، تبحث عن سبيل للتوبة، ولا تعـــرف الطريق إليها، تذكرت سيد أبو حسين، تكبرت عليه ألقته بعيدًا عنها. إنهـــا راغـــبة أن تصنع أى شىء، تتزوج أى رجل فى الحلال يلمها ويكفيها هذه الصنعة الباطلة.

وعندما رأت سيد أبو حسين صرخت:

- مدد يا نور الدين.

ضمها سيد أبو حسين وهو يصرخ:

- مـــدد يـــا نور الدين... أنا كنت عنده وأمرنى بزواجك... يعنى خطبتك منه.

أخرج سيد أبو حسين من جيبه الجنيه الذهبى وقدمه لرفيقة:

- الشيخ باعت لك الجنيه ده نقطة زواجنا.

أمسكت بالجنيه تتأمله وقالت مندهشة:

- صحيح... صحيح يا سيد.
- المهم... أنك حتمشى معايا دلوقت.

لم تعترض ولم تناقشه فقد قررت أن تترك البيت لجليلة.

فكـــرت لحظـــة... تترك البيت لجليلة تديره، أى تترك الشيطان يستمر فى عملـــه. ولكن ماذا تصنع جليلة؟ لا تدرى، توقف تفكيرها، إن ما تصنعه هو عشر توبـــة، بالتأكيد ليس توبة كاملة، وحين رأت بصيرى قالت فى نفسها مدد يا نور الدين... سيحدث شىء لجليلة.

قال بصيرى موجهًا كلامه لسيد أبو حسين دون أن ينظر إلى جليلة.

- انت حتكون شاهد عقدى انهاردة على جليلة.

صرخت جليلة:

- انت خدت رأيى يا عبادى يا زفر؟
- متتكلمـــيش زى الغـــوازى.. اتكلمى باحترام ده انت حتبقى مرات شيخ العبابدة.

- مين قال إنى أنا أجوزك يا عقرة العبابدة بتعايرنى من دلوقت؟

شدها بصيرى إليه... احتضنها.. احتضنته فى حنان بالغ، أبعدها عنه برقة، وضع يده فى جيبه أخرج الجنيه الذهب مد يده إلى جليلة:

- خدى يا جليلة.
- إيه ده...؟
- ده بركة سيدنا الشيخ نور الدين.
- هو نور الدين ده عنده منجم جنيهات جابها منين.

وما إن أتمت جملتها حتى أخذت فى الضحك، قال بصيرى:

- يـا بـت اسكتى قطع لسانك.. الشيخ نور الدين مش موضوع هزار... اتعلمـى تبقى محترمه... ده لولا هوه ما كنتش جيت ولا اجوزتك ولو لمست نجوم السما.

تغـير وجه بصيرى فقد ظهر الغضب عليه، صمتت جليلة، شعرت فعلاً أنها أساءت للشيخ دون مبرر. أمسكت بالجنيه... وحاولت أن تعتذر.

- أنـا مقصدش إساءة... أنا عارفة أنه راجل على قد حاله... بس عايزة أعرف جاب الفلوس منين.

لم يترك الغضب بصيرى:

- راجل... راجل ايه...؟ أبو مخيمر... لكن حقول عليك إيه...

اكتسى صوت بصيرى بالحزن وهو يقول:

- الفلوس دى يا جليلة مهر مراته الأولى.

تدخلت رفيقة فى الكلام.

- بنت عمه؟
- لأ واحده تانى متعرفيهاش... محدش يعرفها...

سـاد الصـمت الجمـيع وقد غاب ذهن بصيرى بعيداً... فى عطيات... فى الشـيخ الطيـب... فـى السـودان... فى النجم ذو الذنب. لا أحد يفهم هكذا قال بصيرى لنفسه.

أحسـت جليلة أنها أخطأت فى حق الشيخ تحدثت باستخفاف فهذه طريقتها، أصـابتهـا رهـبة، شعرت بأن الشيخ يدخـل قلبها، قالت لنفسها أنـا غلطانة.

الشيخ طول عمره راجل طيب.

قالت رفيقة:

- وفين هى دلوقت؟!

صرخ بصيرى:

- ماتت... قبل ميدخل عليها...

ضربت رفيقة صدرها بيدها:

- بتقول إيه؟

شعر بصيرى أنه باح بالكثير فقال:

- مفيش حاجة... انسوا الموضوع.

قالت رفيقة لنفسها أى رجل هو.

بينما اقتربت جليلة من بصيرى وقد كبر فى نظرها كما لم يكبر فى يوم من الأيام، وأحست باحترام عميق له.

استطاع بصيرى أن ينتزع نفسه من الحس الحزين الذى انتقل إليه فقال ضاحكاً:

- المهم دلوقت خلونا نتكلم فى المهم.

قالت رفيقة:

- أنا عاوزة مهرى من سيد أبو حسين.

قال سيد أبو حسين:

- انت تؤمرى يا رفيقة.

طلبت منه أن يكون مهرها مساعدة فتيات البيت على الزواج.

فى الفجر كان الجميع يستعدون للرحيل وترك البيت.

قال بصيرى:

- محدش حيمشى قبل منسكن البيت.

ردت رفيقة:

- ليه يا بصيرى؟!

- أنا خايف حد م الغجر ييجى هنا ويفتحه وترجع الحكاية تانى متخلصشى... البيت ده لازم يتقفل للأبد.
- بس ده ملكى ومحدش يقدر ياخده.
- مين عارف...
- انت حتكونى فاضية للمشاكل... أنا عارف حوالى تلاتين أربعين طالب من الأرياف محتاجين سكن... أنا حجيبهم دلوقت.

خرج بصيرى ليعود بالسكان الجدد بينما تمضى رفيقة والبنات مع سيد أبو حسين إلى الغرب.

وصحب بصيرى جليلة لمنزل الشيخ نور الدين ليكتب عقد زواجهما، لم تكن الشمس قد أشرقت بعد حين سمع الشيخ طرقا على الباب. يذكر بصيرى بعد أن مرت الأيام والسنون أنه لم ير نور الدين سعيدًا كسعادته لرؤيتهما... أدخلهما وتركهما ليتجه إلى القبلة ليغيب فى لقاء مع حبيبه الأكبر يشكره على ما صنع.

ذكرت جليلة لبصيرى أنها بعد أن رأت نور الدين هذا الصباح عرفت لماذا أحبته رفيقة..؟ ولماذا أحبه بصيرى؟

لقد غسلت دعواته جسدها من كل ما صنعت فى الماضى.

يقسم بصيرى أنه لم يعرف فى حياته امرأة أشرف وأنقى نفسًا منها. أصبحت له زوجًا وأمًا وابنة. أخذها معه إلى السودان لتعيش فى دنقلة فأحبها كل من عرفها، نساء العبابدة اللاتى لا يعجبهن العجب قبلنها ووضعنها فى منزلة كبرى فى عالمهن.

أنجبت له هجرس ثم ماتت، حزن عليها كما حزن عليها كل من عرفها.

أرهقه الحزن، رآه الشيخ نور الدين، نصحه بالزواج، لم ينسه الزواج جليلة.

أما رفيقة فقد أنجبت ابنًا وابنتين، وحجت إلى بيت الله الحرام سبع مرات.

زارها بصيرى وجليلة بعد حجتها الأولى، وقد عادا من السودان فى زيارة قصيرة، أعطته كيسًا به مائة جنيه ذهبًا.

* * *

ضحك بصيرى، وضع الكيس فى جيبه.

كانــت دمــوع رفيقة تسقط بلا توقف من عينيها، همست لنفسها... رحمة واسعة لك يا شيخنا.

يجزيك ربنا على اللى عملته لينا.

وحيــن دخــل الحاج حجاجى ومعه دياب وأبو المجد الحجرة، أفاقت المرأة مسحت دموعها وتركت الحجرة ومضت داخل المنزل.



٢٠

نقل محمود نظره بين الموجودين، توقف عند دياب وقد لبس جلبابًا صوفيًا أزرق بخطـوط بيضـاء وعلـى رأسه عمامة كبيرة، يبدو واحدًا من أعيان ريف الأقصـر. تركـزت نظرته على وجهه، إنه يبدو وسيمًا مريحًا. تعجب محمود من نفسـه فإنه منذ وقت قريب لم يكن يطيق النظر إلى وجه دياب وهو الآن يستريح إلى تأمل تقاطيعه المنسقة ويشعر بحب شديد نحوه.

جلـس ديـاب علـى كرسى أمام المائدة وبجواره أبو المجد، بينما الحاج حجاجى يسحب يد بصيرى برفق، وصوت دياب يرتفع بحنو...

- يـلا يـا عـم بصـيرى... شاركنا الطعام قوم يا محمود هات الطشت والإبريق علشان نغسل إيدينا..

قـام بصـيرى وجلـس بجـوار دياب بينما ذهب محمود ليحضر الطشت والإبـريق، خرج إلى الصالة المواجهة للحجرة ومنها إلى صالة داخلية لم يستطع أن يدخلها فهى مازالت ممتلئة بالنسوة.

نادى أخته منيرة لتحضر الطشت والأبريق، أخذ ينقل ناظريه بين الجالسات رأى والدتـه تجلـس فى ركن من أركان الحجرة غارقة فى أفكارها وعن يمينها رفيقة وقد أمالت رأسها واضعة يدها اليمنى تحت ذقنها، فوجئ وهو يرى عزيزة وريا يجلسان على يسار أمه.

قدمـت منيرة بالطشت والأبريق، أخذهما منها ودخل الحجرة ليجدهم جميعًا يتـناولون الطعام... وضع الطشت والأبريق على الأرض وخرج ليجلس مع عمه يونس، فلم تكن به رغبة للأكل.

كـان الشيخ يونس مستغرقا فى قراءة ورده فلم يشعر بمحمود وهو يجلس بجـواره، لم يستطع محمود أن يسترخى فى جلسته، كان يفكر فى عزيزة ورفيقة

ويشعر بحب لأمه، وشفقة عليها... ماذا يمكن أن تصنع هذه المرأة بعد أن فقدت الرجل الوحيد الذى عرفته فى حياتها...

* * *

لقــد عاشت الحاجة زوجة الشيخ أيامًا عصيبة، فقد مرت أيام الوفاة الأولى وهى لا تصدق أن زوجها مات، غاب عنها إلى الأبد، كانت كالذبيح الذى لا يشعر بألم السكين ساعة الذبح، وقد بدأ الإحساس يعود إليها لتتبين الحقيقة المخيفة، أن زوجهـــا الحبيب قد مات، استغرقتها الأفكار، لقد مرت عليها أربعة أيام منذ غيابه عرفــت عنه أكثر مما كانت تعرف طيلة مدة زواجها به. إنها الآن مشدودة، كانت تغـــار عليه، كم يرهقها الألم، يأكلها، كيف تغار على رجل كان غطاءً للمحتاجين؟ إنهـــا تنظر إلى رفيقة فتشعر بحب كبير لها ولنساء أخريات يذكرن أيادى الشيخ عليهـــن وعلـــى أزواجهـــن. كـــان الشيخ لها طيلة عمره. والآن ترى الكثيرات يشـــاركنها حبها والحزن عليه. إنها لم تعد تغار عليه ولكنها تتضايق أن يشاركها فـــى حـــب الشـــيخ والحزن عليه أحد آخر، ولكن هكذا الشيخ دائمًا حبيب إلى كل الـــناس. ليـــتها تموت، كيف تعيش دون الشيخ. يبكينه ويتكلمن عنه، وهن مهما تحدثـــن وتحدثـــت عنه المدينة فإن أحدًا لا يعرفه معرفتها لـــه، لقد كان زوجها، شـــريك حـــياتها، أنجبت لـــه ستة أولاد وبنتين، كل واحد منهم يمثل علاقة حب صـــاخبة. لقـــد شاركها العالم فى حب الشيخ ولكن أحدًا لم يشاركها فراشه. كانت لـــــه وكـــان لها حبًا بلا ألم، ومتعة بلا نهاية. إنها الوحيدة التى اختارها لتكون زوجته من بين كل نساء الأرض كانت لهما لحظات ولحظات.

إنها مازالت تذكر حين طاردته الحكومة وقد فر منها، لم يتركها أبدًا. كانت حـــاملاً فى ابنتها الأولى عائشة وكانت ابنتاه سكينة وشمسه تعيشان معها كانت تشعر أنها أختهما فهما دم الشيخ ولحمه، انتقل أبوه الشيخ مصطفى وأمه ليعيشا معها فهى غريبة عن المدينة، شعرت فى غربته أنها ابنة المدينة فقد أخذ الرجال والنســـاء يفدون إلى بيتها يقدمون لها الحب ويسألونها عما تحتاج إليه ولم تكن تحتاج إلا أن يعود نور الدين. إنها تشعر أنه منحها وطنًا جديدًا وأهلاً كرامًا. لقد امتدت جذورها فى هذه المدينة فهى أرض الشيخ.

اســـتيقظت ذات لـــيلة على خطوات فى أرضية الصالة. تحركت، أرادت أن تصرخ، أحس بحركتها وقبل أن تخرج صرختها هدأها صوته الحنون...

- أنا نور الدين يا زكية...

هبت واقفة احتضنته... وقفت طويلاً بين ذراعيه... سألها أن تشعل ضوء المصباح الغازى فهو يريد أن يرى ابنتيه... قبلهما أخذ يحصنهما بقراءة القرآن... أيقظ والديه. إنها لم تر رجلاً يحب والديه كما أحبهما الشيخ. ترك والديه، ثم أخذها إلى غرفة فى السطوح، لمس بطنها. قال مداعبًا:

- بترعص.. البكرية بنت.
- لأ ولد.. عايزاه يبقى زيك.
- ولد ولا بنت كلهم عيال الله كل اللى يجيبه ربنا خير...

ثم قبلها، أحست أنها لن تظمأ أبدًا...

ذهب بعدها متسلقًا الجدران سائرًا فوق سطوح المنازل ليغيب وتختفى حركته، بكت كثيرًا ليلتها. ماذا كتب على الشيخ ليدخل بيته متلصصاً؟ من يومها لم تبت فى حجرتها، انتقلت إلى حجرة فى السطوح تنتظر قدومه تتسمع إلى كل حركة، إذا غفلت عيناها لحظة تقوم فرحة على أى صوت؛ صوت الريح صوت قطة تقفز أو فأر يتحرك فوق أحد الأسطح القريبة. إنها تتصور نور الدين قادمًا.

وكان يأتى... ليمنحها الطمأنينة والحب. والآن يغيب عنها، لكنها ستعيش له بقية عمرها وسيظل اسمها مقترنًا باسمه حتى تلقاه وبعد أن تلقاه. هؤلاء النسوة ينظرن إليها ويعاملنها على أنها الشيخ. إنها ليست الشيخ فهى زوجته أم أولاده وحبيبته، انفجرت فى البكاء، أفاقت رفيقة من أفكارها أخذت تهدئها غير أنها غرقت فى بكاء عميق، ثم وقفت وأخذت طريقها إلى حجرة مجاورة. ألقت بنفسها على سرير معد لها. ذهبت منيرة وراءها:

- حتنامى يا حاجة؟
- أصلى تعبانه شويه.
- أحسن تنامى علشان تستريحى.

غطتها منيرة بملاءة بيضاء ثم ذهبت إلى الصالة وهى تنظر لوالدتها الحزينة قالت فى نفسها..

كان الله فى عون أمى..

ستكون الأيام صعبة عليها. إنها تعرف أمها جيدًا لم تكن تأنس لأحد غير

الشـــيخ، كانت قليلة الكلام حتى يقدم الشيخ فتأخذ فى حديث لا ينقطع معه - كان رحمـــه الله يحسن الاستماع إليها وهى تحادثه عن مشاكل الطبخ والخبيز وكأنها تتكلم الحكمة الخالدة، لقد عرفت عن أبيها هذه الأيام الكثير وكل ما عرفته يزيدها حـــبًا فـــيه. عطـــيات... رفيقة... عالم الأقصر كله. أى رجل هو..؟ أخذت منيرة تصرخ والدموع تتساقط من عينيها:

- آه يابا... أجيبك منين يابا.

قامت الحاجة رفيقة من فراشها لتأخذ بيد منيرة احتضنتها..

- هدى يا بنيتى هدى.

هدأت منيرة ثم أخذت رفيقة إلى حجرتها..

- تعالى يا عمة رفيقة نامى.

مـــا أجمـــل كلمة عمة حين تخرج من فم هذه الفتاة، إنها تجعلها تقف من الشـــيخ فـــى مكان الأخت. هذا شىء جميل. الفتاة تحس بهذه الكلمة ولا تقولها مجاملة.

قامت مع منيرة، ارتمت على السرير بينما منيرة تقول لها:

- أنا حعمل لك شاى يا عمة.

مضت منيرة لتصنع الشاى بينما رفيقة تشعر بحب شديد لهذه الفتاة، سألت نفسها هل تعرف هذه الفتاة أباها. إنها تعرف جوانب منه ولكنها لا تعرف حقيقته بالتأكيد. هل تعرف أن والدها كان أكبر خيّال فى الأقصر، وأنه كان بطلاً عظيمًا لا يقـــل عـــن أبو زيد الهلالى سلامة، وأنه صنع منها ومن رجال كثيرين أبطالاً فى منطقتهم...

* * *

تذكـــر رفـــيقة أن سيد أبو حسين الزغابى جاءها ذات يوم بعد سنوات من زواجهـــا وقـــد عـــاد من الأقصر مهمومًا، سألته فيم يفكر وكانت تتألم لأى شىء يضايقه، قال لها سيد أبو حسين:

- أنا كنت فى البندر انهارده.

لقيـــت كل اللى فيه مشغولين قوى والمديرية باعته رجالتها علشان يقبضوا على الشيخ نور الدين.

انزعجت رفيقة من الخبر، وقالت بصوت خرج كالصرخة:

- ومسكوه.
- لأ... هوه هربان منهم ليه أسبوعين.
- ولـــيه عايزيـــن يمسكوه هوه حرامى ولا حرامى... ده أشرف من كل الحكومة.
- لأ مـــش حرامى... وز الناس ع الثورة على الإنكليز.. وقاد الإضرابات ضدهم.
- لنكليز... لنكليز مالهم بيه.

صـــمتت رفـــيقة لحظة، أخذت تفكر ترى أين يذهب؟ لم تجد إجابة لسؤالها فقالت لزوجها...

- فكرك يا عمدة حيروح فين؟
- الشـــيخ نـــور الدين مش حيغلب... المديرية كلها بتاعته... وهو مش لوحده هربان دول اتناشر واحد.
- وهو فين دلوقت... ونلاقيه إزاى.
- والله مانا عارف... دول فى المركز بيقولوا إن الشيخ بيخطف لنكليز.
- وماله بيهم؟
- أصلهم خدوا سعد زغلول باشا وابن عمه الشيخ عبد المعطى أبو جبريل ومعاهم كل الناس الكويسه ونفوهم بره مصر.
- أنا مش فاهمه حاجة يا سيد.
- أقول لك إيه يا رفيقة؟ بتفكرى زى الفلاحات.
- ما أنا فلاحه يا سيد... فهمنى.
- البلد فيها ثورة.
- امال بلدنا مفهاش ثورة ليه؟

سكت سيد أبو حسين، ثم قال:

- مفهـــاش ثـــورة لـــيه...؟ آه مفهاش ثورة ليه...؟ أصلى بلدنا مفهاش رجاله عمدتها ميساويش نكله.
- متقولش كده على سيد الرجال.
- والله يـــا رفـــيقة أنا ما أقل م الشيخ نور الدين، بس أنت روحى هاتيلى آكل...

- هو ده وقت أكل يا عمدة.
- آه آكـل محـنا حنتعب لحد منلاقى نور الدين وأنا لازم حلاقيه.. يا أنا يلنكليز يا رفيقة.

أخذ سيد يبرم شنبه، ثم قال بهدوء وثقة:

- مـا يـبقاش ده علـى راجل إذا ما أدبش لنكليز، قومى هاتى الأكل يا رفيقة.

مـا يـبقاش ده على زغابى إذا ما أدبتش لنكليز... ما يبقاش ده على ولد الـزناتى خلـيفة إذا مرجعش سعد باشا وعبد المعطى أبو جبريل... قومى هاتى الأكل يا رفيقة.

* * *

أصـاب المسئولين فى مديرية قنا الرعب؛ فقد اجتاحتها موجة من العنف. اغتـيل حكمـدار المديـرية الإنجلـيزى، كما اختطف عدد من الأجانب لا يعرف مصـيرهم. أصـابع الاتهام تشير إلى الشيخ نور الدين وجماعته. لكن المحير أن هـناك أحداثـا تمت فى مناطق مختلفة فى وقت واحد فى إسنا والأقصر والغرب وفرشوط.

أرسـلت الحكومـة فـى القاهـرة دعمًا لقوتها فى المديرية. بعض الجنود اختفوا، انضموا للمتمردين.

قـوات الحكومة تطارد الشيخ نور الدين فى كل مكان تظن أنه موجود فيه. الأهـالى يخفـون نـور الدين، طردت الحكومة بعض العمد من مناصبهم بتهمة التهاون أو التواطؤ مع نور الدين، ألقت القبض على خمسة منهم، كان اسم سيد أبو حسين فى أول قائمة المقبوض عليهم إلا أنه هرب.

كانـت الساعة الواحدة صباحًا عندما وقف مركب على شاطىء النهر قرب قرية خزام، نزل منه عشرون رجلاً، اتجهوا من فورهم إلى شريط السكة الحديدية وأخـذوا يفكون فلنكات الشريط.. يتحسسون الصواميل فى الظلام الدامس، وبينما هم منهمكون فى عملهم وجدوا أنفسهم محاصرين وصوت يصرخ فيهم:

- إيه اللى بتعملوه ده؟

عـرف سـيد أبـو حسين ورفيقة صاحب الصوت فهو الشيخ نور الدين. ارتاحت نفساهما فقد وجدا الرجل.

ترك الرجال بنادقهم والمفاتيح التى يفكون بها الصواميل بينما ارتفع صوت سيد أبو حسين:

- أهلاً شيخ نور الدين، إحنا بندور عليك من زمان.

عرف الشيخ صاحب الصوت..

- أهلاً يا زغابى... اربطوا الصواميل بسرعة... دا القطر مليان مصريين ومش معقول نقتلهم.. رجع الفلنكات زى مكانت.

أخذ الرجال جميعًا يعملون فى ربط الفلنكات حتى انتهوا منها، ثم قال الشيخ:

- امشوا بهدوء... ادخلوا القصب نتكلم هناك.

كان رجال الشيخ قد قطعوا أعوادًا من القصب فى وسط الغيط تكفى لجلوسهم وحركتهم داخله، وبعد أن دخلوا اقتربت رفيقة من الشيخ وقالت:

- أهلاً يا سى الشيخ.
- أهلاً.. مين رفيقة.. والله فيك الخير..

تغير صوت الشيخ وهو يقول:

- ومين بيقوم بمصالح الزغابى هناك؟
- الناس كتير.
- ... الناس كتير...!! لا يا رفيقة، محدش يعرف يقوم بيها غيرك... إن شاء الله بعد عملية النهارده ترجعى البلد تشوفى مصالحها.

تركته رفيقة وعادت لسيد أبو حسين فوجدته يكلم بصيرى، لم تكن تتوقع أن يكون بصيرى هنا. هتفت بحنان بالغ:

- ازيك يا بصيرى؟
- ازيك يا رفيقة؟
- جليلة فين؟
- فى دنقلة يا رفيقة... بتسلم عليك.
- ومجبتهاش ليه؟
- أجيبها إزاى؟.. ده أنا أول مسمعت أنهم قبضوا على نور الدين جيت جرى.. وهيه حامل فى شهرها التالت وشايفه المصالح كلها. نادى

الشيخ نور الدين على سيد أبو حسين فأقبل عليه.

- اسمع يا سيد انت حتاخد رجالتك بعيد شويه من هنا وتختفى فى البوص والحلفا.. واحنا حنقعد هنا أول متسمع صوت القطر حنكون مولعين نار على الشريط وسادين طريقه، ساعة ميقف حنزل الأهالى وحنقبض على كل الخواجات اللى فيه... ومتطلعشى من مكانك إلا إذا ناديناك أو لقيتنا فى زنقة.

أخذ سيد أبو حسين رجاله وابتعد، بينما اتجه الشيخ نور الدين بالرجال إلى شـريط السـكة الحديـد. أخذوا يضعون الأحجار عليه ثم أحضروا أفلاق النخيل ووضـعوها بعـرض الشـريط ثم ذهبوا إلى الترعة المجاورة يختفون فيها وسط الغاب ونبات الحلفا وأشجار السنط.

كانت الساعة الرابعة صباحًا حين خرج الشيخ نور الدين ومعه الرجال إلى الشريط، وقد حملوا بأيديهم حزمًا جافة من نبات الحلفا ألقوها على أفلاق النخيل وأخذوا فى إشعال النيران.

لـم يظهـر القطـار بعـد، والشيخ يخشى أن يتأخر فالفجر على الأبواب، والضـوء سيكشـفهم وستفشل عمليتهم هذه الليلة، ويصعب عليهم أن يكرروها، فالحكومـة ستأخذ استعدادها بعد ذلك. إن نجاح هذه العملية مهم بالنسبة له، فهو يـريد نجاحًـا بلا دم وإذا ما فشلوا فالرجال سيخرجون عن إرادته وقد يتجهون للعـنف والدم. وهذا آخر شىء يريده الشيخ. عندما تفشل كل الوسائل فى تخفيف حـدة الإنجلـيز فليس هناك إلا الدم، ولكن ليس الآن. الحمد لله... فقد وصل إلى سمعه صوت القطار فصرخ فى الرجال:

- استعدوا!

كانـت النيران تتعالى، وكان واضحًا لدى الشيخ أن عمران الشقيرى سواق القطـار لديـه وقت كافٍ ليرى النيران ويتوقف فهذه إشارة بينهما. وفعلاً توقف القطـار قبل أن يصل إلى النيران بأمتار وهنا دخل الرجال العربة الثالثة فيه وهى المعـدة لأن تحمل الجنود الذين أرسلتهم الحكومة لتعزيز قوتها فى بندر الأقصر. كان الجنود وقيادتهم يغطون فى نوم عميق فى انتظار الوصول إلى محطة الأقصر حين فاجأهم نور الدين بالرجال. صرخ نور الدين فيهم بصوت قوى مخيف...

- انزلوا بسرعة وسيبوا اللى فى إيديكم..

ذعر الجنود وتركوا ما بأيديهم ونزلوا من القطار يتقدمهم ثلاثة من الضباط الإنجليز.

نزل كل من بالقطار من الأهالى كما نزل سواقه عمران الشقيرى.

ربط الرجال أيدى الجنود وأرجلهم بحبال، وأمسك الشيخ نور الدين بعمران الشقيرى وقام بنفسه بربط يديه ورجليه وهو يقول له بهمس..

- آسف يا عمران.
- يا أخى اربط.
- لمـا تعـرف مـيعاد سفرتك الجايه تبلغ حد من أخوانا يبلغ يونس أبو أحمد. ثم تركه ومضى إلى المسافرين الذين امتلأت نفوسهم بالخوف.
- محـدش يخـاف... إحـنا بس حناخد خيول الحكومة وأسلحتها ومش عايزين حاجة تانى.. دى كلها ملكنا.

نـادى الشـيخ نور الدين راضى سليمان ومحمد أبو أحمد والطاهر مفتاح وبصيرى وطلب إليهم إخراج الأسلحة من القطار، كما طلب من بقية الرجال إنزال الخيول.

نظـر الشيخ حواليه، شعر بأن كل شىء قد تم كما قدر لـه، ركب فرسًا... طلب من بصيرى وراضى سليمان والطاهر مفتاح أن يأخذوا الضباط الإنجليز على خيولهم ثم نظر إلى الجنود..

- وانـتوا يا غلابة ملقيتوش غير الشغلانه ديه... تبلغوا اللى حتقابلوهم من رجالة الحكومة إن إحنا مش حنسكت لحد ميجيبوا سعد باشا وعبد المعطى أبو جبريل وإخوانهم ويسيبوا البلد...

وجه الشيخ نظره إلى الرجال وقال:

- اركبوا يا رجاله..

ومضـت الخيول مسرعة لتمر على سيد أبو حسين ورجاله، فركبوا معهم حـتى وصلوا إلى المعدية كان فى انتظارهم الشيخ محمد موسى الأقصرى وعدد مـن الرجال. كان القلق قد أصاب الشيخ محمد ففكر فى أن يترك القوارب الثلاثة

ويمضـــى ليــتعرف على ما حدث لنور الدين فقد يكون فى حاجة إليه. وحين رآه شعر بالراحة الشديدة إلا أن صرخة تلقائية خرجت منه..

- اتأخرت كتير يا نور الدين؟!
- لا أبدًا يا شيخ محمد... الحاجات دى عايزه الصبر.

وضعت الخيول على المراكب وبدأت الرحلة نحو الغرب والضوء قد أخذ فى الانتشار ليملأ الأفق.

وصل الرجال إلى البر الغربى وأنزلوا خيولهم وقبل أن يمضوا متجهين إلى الجبل طلب الشيخ من واحد من رجال سيد أبو حسين أن يصحب رفيقة إلى البلدة إلا أن رفيقة قالت:

- أنــا عارفــة السكة كويس... خليه يقعد هنا... انتو جايز تحتاجوه...

ووجهت حصانها نحو الجنوب ليمضى بها مسرعًا إلى قريتها.

ســار الــرجال مقتحمين الجبل يقودهم نور الدين وبصيرى فى دروبه حتى وصـــلوا إلـــى هضبة مستوية ساروا فيها أكثر من ساعة ليواجهوا بمرتفع، كلما اقتربوا منه تظهر فتحة واسعة. عرف سيد أبو حسين أنهم وصلوا إلى مخبأ نور الديــن. وفعلاً كانت مغارة كبيرة وقف عندها نور الدين فى رحلة السودان، جلس الرجال واستراحوا، وكم كانت دهشة سيد أبو حسين أن يرى فى هذا الكهف بئرًا عذبة الماء.

* * *

لــم يكن الطريق طويلاً على رفيقة وهى تقطعه لتصل إلى قريتها. لقد كانت تتعجب من الأقدار وفعلها، تذكرت كيف كانت حياتها قبل أن ترى نور الدين وكيف أصــبحت بعــد رؤيته إلى أن تزوجت سيد أبو حسين الزغابى عمدة الغرب. لقد كــرمها الــرجل أكبر تكريم، أصبحت به امرأة محترمة، دخلت عالم الحريم لأول مرة، وجدت ثلاث نساء يشاركنها فيه. الغريب فى ذلك أنها أحبت وضعها الجديد. كانت تتضايق كثيرًا من نسائه وهن ينظرن إليها فى احتقار، ذكرتها إحدى نسائه بماضــيها، سمع سيد أبو حسين بقولها فطلقها من فوره، لم تسترح رفيقة لفعله. لامته على ذلك فهى لا تريد أن تسبب لأية واحدة من زوجاته ضررًا إنها تريد أن تكسب رضاءهن بأى ثمن، لم يستمع سيد أبو حسين لكلام رفيقة فلم يعد زوجته.

مـــنذ هــذا اليوم لم تسمع من زوجاته وأخواته البنات غير الكلام الطيب، غير أن عيونهن كانت تقول كلامًا مختلفًا، كان ذلك يعذبها فهى تريد أن تكون واحدة منهن لهـــا الحـــق فـــى أن تصيب وتخطئ أن تمدح وتلام. أن تسمع منهن الحقيقة أن يتعرفـــن عليها لا على ماضيها. إنها تعود الآن بعد أن مر أكثر من شهرين على تـــركها لبيـــتها، ترى ماذا يقول الناس عنها؟ أخذت سيد أبو حسين الزغابى إلى الجبال، حولته من عمدة للغرب كله إلى طريد. فكرت أن تلوى فرسها وتعود إلى الرجال فهى لا تريد أن تذهب إلى القرية لتواجه عيون الناس هناك، قالت لنفسها إنها لا تعرف أين هم الآن، وليس من المعقول أن تعود إليهم، ماذا تقول لهم؟

مضت فى طريقها إلى القرية وقد تذكرت ما صنع لها سيد أبو حسين فقالت كل شىء يهون من أجله، حتى الأيام التى قضياها بعيدًا عن القرية كان لها مذاق خـــاص. أحبـــت المغامرة وأحبت روح سيد أبو حسين. إنها لم تتعرف عليها عن قرب إلا هذه الأيام، لقد أصبحا صديقين حميمين، لا تفارقه ليلاً أو نهارًا.

ابتسمت وهى تذكر ليلة قضياها عند صديق لسيد أبو حسين وهو لا يعرف أنهـــا زوجته. فقد خدعت ملابسها الرجل فتصورها من رجاله. وقبيل الفجر كان ســـيد أبو حسين على صدرها يغيبان فى لحظة حب، أدركت من خلالها معنى أن تكون المرأة زوجة.

نقلـــتها هـــذه اللحظة إلى عالم لم تتعرف عليه من قبل، عالم أنوثتها التى كانـــت تتصـــور أنها فقدتها فى عالم الرجال، شعرت يومها أنها تحب هذا الرجل وأنها على استعداد أن تمنحه عمرها.

اقتربـــت مـــن مدخـــل القرية وقلبها يخفق خوفًا وإشفاقًا من نظرات الناس إلـــيها. دخلت القرية فى الضحى... الناس مشغولون فى الغيطان، قلة من الرجال تجلـــس فـــى الطريق تلعب السيجة، بعض النسوة يسرن، الأطفال يلعبون، لا أحد ينظر إليها. يبدو أن أحدًا لم يتعرف عليها إلى أن وصلت إلى المنزل. وجدت ابن زوجها يقف أمام الديوان... نادته:

– مهران.

نظـــر الغـــلام إليها وهى تنزل من على الفرس، الصوت أليف لديه لكنه لا يعرف صاحبه، تقدم الفتى من رفيقة وقال:

- أيوه يا عم... أى خدمة..؟ اتفضل فى الديوان.

قالت رفيقة:

- خد الفرس يا مهران.

نظر الغلام إليها، تفرس فى وجهها ثم صرخ..

- خاله رفيقة... خاله رفيقة، ثم اتجه نحو الباب وفتحه وصرخ...
- يا أمه.... يا عمه.... خاله رفيقة هنا.

كان صوت الفتى فرحًا سعيدًا... هزها.. حركها اقتربت من الباب... احتضن مهران زوجة أبيه. أخذ يقبلها والدموع تتساقط من عينيه، قبلته رفيقة، احتضنته، شعرت بأنها تقبل ابنها، شعرت بحب الأم يشتعل فى ذراعيها وهى تحتضنه. أخذت تبكى.

- أهلاً مهران...

حضرت النسوة وأخذن يقبلن رفيقة، حاولت إحداهن أن تزغرد، أوقفتها فسيد أبو حسين لم يعد إلى منزله ولا يجب أن يعرف أحد أن شيئًا تغير فى بيته.

جلست رفيقة فى حجرتها وكلمة مهران... خالة رفيقة ترن فى أذنها. فهذه أول مرة تسمعها من الغلام، من أى غلام فى هذا البيت. والنسوة وفرحتهن بحضورها أشعرنها فعلاً أنها واحدة منهن وأنها ليست دخيلة عليهن.. ماذا حدث ليتم كل هذا التغيير؟!!

شغلها أمر، تركت غرفتها، نادت على مهران سألته:

- مين قايم بأمر العمدية هنا؟

رد الغلام:

- الحكومة رفتت أبويا زى منت عارفه... وعينت بدله جابر أبو عبد الله الرياحى.
- محدش يبقى العمدة فى غياب الزغابى إلا ولده.

نظر الفتى إليها فهو لم يفهم ما تعنى بهذا القول:

- أيوه انت العمدة... نادى لى جابر أبو عبد الله... لأ مترحشى انت أبعت حد من هنا يناديه. واقعد انت فى الديوان متتحركش حتى بعد مييجى.

ذهب الغلام إلى الديوان وبقيت رفيقة فى حجرتها حتى نادتها إحدى النسوة:
- جابر أبو عبد الله وصل.
- خليه يدخل المندرة.

وقفت رفيقة وقد لبست ملابس سوداء فضفاضة ولفت رأسها بطرحة سوداء، دخلت الحجرة، إنها تعلم أن سيد أبو حسين سيغضب حين يعلم بلقائها للرجل... غضبه عليها أهون من ضياع حقوقه على هذه الأرض.

قام الرجل حين دخلت وحياها دون أن ينظر إلى وجهها:
- أهلاً حاجه رفيقة.
- أهلاً يا شيخ جابر... اتفضل اجلس.

جلس جابر وهو لا يخفى قلقه من أسباب دعوة رفيقة له:
- خير يا حاجة؟
- خير إن شاء الله...

ثم رفعت صوتها:
- أنا عايزه أعرف حكاية العمدية دى.
- يا حاجة هدى... العمدة هنا سيد أبو حسين الزغابى أنا عارف كده... وأنا مقبلش آخد مكانه فى وقت زى ده... أنا قبلتها علشان متضيعش مننا... وأنا حسيبها أول ما ييجى.
- لا... أنت حتسيبها دلوقت لمهران.
- إزاى؟
- معرفش إزاى أنا أعرف إنك تبصم بس على كل كلمة يقولها مهران.

نكس عبد الله أبو حسين رأسه وأخذ يضرب بعصاه الأرض. إنه يعلم إن التى تكلمه ليست الغازية رفيقة، هذا كان زمان قبل أن تهرب مع سيد أبو حسين الزغابى ولكنها الآن الحاجة رفيقة الزغابى، والغرب كله يتكلم عن بطولتها وشجاعتها. لقد رفعت مع زوجها رأس الغرب كله، وأن أية محاولة للوقوف ضد هذه المرأة لا تؤمن مغبتها فالبلدة كلها معها. وإغضابها سيحرك الزغابى ولا يأمن أن يدقوا رأسه، وسيد أبو حسين الزغابى لن يتأخر كثيرًا فى العودة إلى بلدته، فليجاملها وليجامل الزغابى والغرب كله. فهذا خير له من الصراع الخاسر.

قال بصوت هادئ وهو مازال مطرقا يضرب الأرض بعصاه:

- انـــت علشـــان كده بعتالى... ومسيبانى مصالحى... وبتزعقى يا حاجة رفيقة... العمدة مهران وأنا هنا أبو مهران... ابعتوا لنا على قهوة.
- القهوة مستنياك فى الديوان.

تركــت رفــيقة الحجرة ونادت على مهران الذى قاد جابر أبو عبد الله إلى الديوان.

نامــت رفيقة وقد شعرت أن هذه هى الليلة الأولى التى تحس فيها أن هذا البيــت بيــتها وأنها واحدة من أهله. كانت سعيدة سعادة يشوبها حزن دافئ على غيبة أبو مهران سيد أبو حسين الزغابى.

كانـــت الأيام تسير سريعة والأحداث تتكاثر فيها. الشيخ نور الدين والرجال يتجمعون يتكاثرون، يهددون هيبة الحكومة، يخطفون الإنكليز والمعدات والمؤن.

أقالت الحكومة فى القاهرة مدير المديرية واتهمته بالتهاون فى القبض على مسببى المتاعب فى المديرية على ظهر باخرة كبيرة. وقبل أن تصل الباخرة مدينة قـــوص، فوجئ الموجودون فى الباخرة بالحراس وقد سقطوا فى النهر ومجموعة مـــن الرجال تقف أمامهم بسراويلها وقد صوبوا البنادق إلى صدورهم. طلبوا من سائق المركب أن يتجه بها صوب خزام.

وقفت المركب عند الشط الغربى قرب خزام، انطلق الرجال بأسراهم صوب الغار.

لـــم يمـــر هـــذا الحادث ببساطة على الحكومة فتحركت قواتهما قادمة من القاهرة ومنقباد لتتوقف عند البر الغربى قرب خزام وتتجه غربًا فى عمق الجبل، رأى رضـــا ســـليمان أحـــد الرجال المكلفين بمراقبة الطريق... القوات تتجه نحو الغار، أسرع ليبلغ الشيخ نور الدين.

خـــرج الـــرجال مسرعين وقد تفرقوا فى الجبل وكان عليهم أن يصدوا هذه القوات.

نظر الشيخ نور الدين إلى السماء، ورفع يديه...

اللهم إنا لا نريد إراقة الدم...

اللهم إنا لا نريد قتل أحد...

اللهم إن ما نرجوه هو أن يتحرر عبادك من ظالميهم..

اللهم حررنا... وانصرنا عليهم... وأمدنا بجند من عندك...

واحفظ رجالك...

ثم أنزل يديه... وأطلق أول رصاصة فانهالت طلقات الرجال على الجنود.. وهم يتراجعون، ثم أخذوا يتفرقون فى الجبل... وبدا واضحًا أن الرجال... قد حوصروا..

طال الحصار... وفى الأيام الثلاثة الأولى انتهى الزاد، فلقد أخطأ نور الدين وصحبه؛ إذ لم يتصوروا أن يقدم أحد عليهم فى هذه المنطقة فلم يحتفظوا بزاد لمدة طويلة.

قال الشيخ نور الدين لنفسه: أخطأت يا نور الدين تحملت مسئولية رجال لم تحافظ عليهم... تتركهم للموت....

نظر الشيخ نور الدين إلى الشيخ محمد موسى وقال:

- الموقف معقد جدًا... الإنجليز ورجالتهم مش حيسيبوا الجبل قبل منسلم... والرجاله جعانه والجعان ميعرفش يحارب..
- دى مسئوليتى أنا يا نور الدين... الرجاله إن سلمت حتموت، وإن مسلمتش حتموت..
- أنا غلطت... كنا أكتر من مجموعة... دلوقت اتجمعنا فى حته واحدة..
- مفيش غير حل واحد... نخرج ونضرب أهو إن متنا متنا شهدا وإن عشنا نبقى هزمناهم.
- بالطريقة دى مش حنعيش... ولازم نفكر فى وسيلة تانى..
- مفيش غير معجزة هيه اللى تنقزنا..

أطرق نور الدين ثم قال:

- إحنا مش فى حاجة لمعجزة دلوقت يا شيخ محمد لما العقل يعجز نبقى نفكر فى المعجزة... الإنجليز فى الشرق قدامنا وهمن ميعرفوش حاجه كتير فى الطرق ديه... وقدامنا طريق قبلى واسع... وإحنا مش حنقعد هنا... حنسيبهم ونمشى.

- نمشى إزاى يا نور الدين... دى تبقى هزيمة..
- دى هزيمة ليهم... البلد بلدنا ونتحرك فيها زى محنا عايزين..
- ونسيبهم... نبقى عملنا إيه؟
- ميــن قال إن إحنا حنسيبهم... إحنا نتوزع جماعات... كل جماعة تقوم بعمــل وبكــده لو قتلوا جماعه أو مسكوها ميقفش عملنا وإحنا دلوقت مقدمــناش غــير يــنموت ينسلم وهمن عايزين كده... وإحنا لحنموت ولحنســلم إحــنا حنروح القرنه... نستخبى فى الجبل فى مقابر جدودنا هــناك ونــبقى قريبيــن مــن الشــيخ الطيب وولاده، وده حيسهل لنا الحــركة... فيه تلت رجاله هنا يعرفوا الطريق كويس... بصيرى وسيد أبــو حســين والمعلم عبد المسيح أبو فهمى.. أنا حجيبهم لك بس بعد الليل ميليل.

كانــت الشمس قد اختفت أمام أعين الرجال فى الهضبة المجاورة. وعندما أخــذ الظــلام ينتشر فى الأفق قفز نور الدين وأخذ يجرى بين الصخور والرمال محــاذرًا أن يظهــر أى جزء من جسده ولكن يبدو أنه فشل إذ انطلقت رصاصات طائشــة نحــوه. توقــف، أخذ يطلق رصاصات يعلم أنها طائشة، جاوبه زملاؤه بإطلاق الرصاص دون توقف، ترك مكانه وأخذ يجرى حتى وقف عند بصيرى.

- اجر انده العمده سيد والمعلم عبد المسيح وتعالى هناك.

أشار إلى مكان الشيخ محمد موسى.

جرى بصيرى بينما عاد إلى الشيخ محمد والطلقات لا تتوقف.

حضر بصيرى ومعه العمدة سيد والمعلم عبد المسيح إلى الشيخ نور الدين والشيخ محمد موسى...

قال بصيرى:

- فيه حاجة يا شيخ نور...
- شوفوا يا أخوانا إحنا قررنا نسيب المكان ده...
- اهتز سيد أبو حسين...
- نسيبه إزاى... والله...

صرخ نور الدين فيه قبل أن يكمل قسمه:

- متحلفش يا عمده... دى أرواح ناس معانا... وفكر كويس.
- إحنا هنا جايين علشان نموت..
- لا إحــنا مــش جايين علشان نموت.. إحنا جايين علشان نهز الإنكليز ويسيبوا بلدنا... أهو إحنا هزناهم... وأنا متأكد إنه فيه ناس كتير زينا فــى بــر مصر كله بيعملوا زى مبنعمل... يا زغابى الحرب خدعة... ومتــبقاش زى جــدك الزناتى خليفة... بطل وشجاع لكن ضيع الغرب كله..

هدأ سيد أبو حسين وقال مبتسمًا..

- ماله جدى.. أجدع فارس..
- مقلــناش حاجــه... إحــنا بس حنروح جبل القرنه ونختفى فى مقابر أجدادنــا هــناك... تــاخد رجالتك وتمشى بيهم دلوقت.. وبعد ساعتين حيحصــلك بصــيرى ومعــاه شــوية من الرجالة وبعديكم عبد المسيح وبعدين أنا والشيخ محمد حناخد باقى الرجاله... فيه أى اعتراض؟

قال سيد أبو حسين:

- خلاص مادام أنت شايف كده...
- على بركة الله... المهم الضرب ميسكتش أبدًا...

غــاب الرجال الثلاثة لتجمعوا مع زملائهم بينما تحرك نور الدين ليبلغ بقية الرجال بالقرار...

* * *

ظهر واضحًا قبل بزوغ الفجر بوقت قليل استعداد الشيخ نور الدين والشيخ محمد والجماعة للرحيل...

قال الشيخ محمد:

- نجيب لنكليز م الغار.

رد عليه نور الدين:

- لأ حنسيبهم.
- نسيبهم إزاى؟

- دول حيخلوا لنكليز يسكتوا وميطاردوناش... وحيبقو حمل علينا فى السكة... يا شيخ محمد البلد مليانه إنكليز.

هدأ سيد أبو حسين وقال مبتسمًا..

- أنا مش مبسوط لكده يا نور الدين.
- معلهش يا شيخ محمد... يلا بينا نتحرك بسرعة قبل الفجر ميبان ويشوفونا وانطلق الرجال مسرعين يخترقون الجبل نحو القرنة..

* * *

مرت أيام على هذه الليلة حين قرر نور الدين أن يجمع أكثر من خمسين رجلاً من الرجال، وأن يضرب ضربته فى ونتر بالاس، قال للشيخ محمد:

- حناخد كل الأجانب من هناك ونعملها مولد والمرة دى يا سعد باشا وعبد المعطى أبو جبريل ييجو يتكون النهاية.

كان الليل فى آخره حين حاصر الرجال ونتر بالاس، دخل معظمهم الفندق وبقى عدد قليل للحراسة إلا أنهم فوجئوا بجنود فى الداخل كما حوصر الفندق من الخارج، فلقد أدركت قوات الحكومة أن نور الدين لن يترك هذا الفندق دون أن يصنع شيئًا به، دبرت له كمينًا وانتظرته طويلاً حتى جاء بنفسه هذا اليوم، لم تدر معركة بين الرجال وقوات الحكومة فقد عرف نور الدين ورجاله أنهم خسروا المعركة.

نقل الرجال إلى مركز البوليس فى الأقصر، كان المأمور الذى استقبلهم مصريًا، عبس وجهه، وارتفعت صرخاته، ثم سأل:

- فين نور الدين؟

خرج إليه الشيخ نور الدين..

- إنت حتتعدم... عارف يعنى إيه..؟

طلب منه أن يتبعه وهو لا يتوقف عن الصراخ حتى دخل به حجرته، وإذا بالرجل يتغير تمامًا... اكتسى وجهه رقة وأخذ يتكلم بحنان:

- إيه ده يا شيخ نور الدين؟... إيه اللى عامله؟.. انت مش عارف أن سعد باشا طلع ليه أسبوع... على كل إنتوا حتسافروا قنا الصبح...

وربـــنا يعمل إللى فيه الخير... ومش عايزكم تتضايقوا من أى معاملة سيئة... أنا مش عارف أعمل إيه...؟ سامحنى يا شيخ نور الدين...

خرج نور الدين ليدخل هو وصحبه فى زنزانة البندر.

قال نور الدين:

- يا رجاله سعد باشا وكل اللى معاه رجعوا م المنفى.

هاجت الزنزانة بصرخات الفرح، قال نور الدين:

- بتهيصـــوا ليه..؟ ما أظنش المسألة انتهت... صدقونى... الإنكليز كفره ولاد كفــره بيلعــبوا بيــنا.. وأنا عايز أقول حاجة إن قعدنا فى السجن قعدنا.. وإن خرجنا مش حنسيب السلاح... ودلوقت ناموا لكم شويه.

غير أن نور الدين لم ينم حتى الصباح، فقد كان يفكر فى الكيفية التى يخرج بهـا الرجال من السجن ويعودون إلى أسلحتهم حتى يتحرر الوطن. ضاق بتفكيره فهو لم يجد الوسيلة للهروب من السجن. فتح باب الزنزانة وأطل أكثر من جندى يسألونهم القيام والتوجه معهم إلى محطة الأقصر..

سار الرجال مقيدين بالسلاسل إلى محطة الأقصر تحت حراسة مشددة، وقد تجمهر عدد كبير من الأهالى حولهم والحراس يمنعونهم.. وجدوا القطار واقفًا فى المحطـــة. صـــعدوا إليه، وعيون الشيخ نور الدين شاردة تفكر فى مستقبل مصر ومستقبل الرجال، لم يشعر بالقطار وهو يتحرك. كانت عيناه تخترقان الوادى الذى يقطعـــه القطار. الأرض مخضرة... الفلاحون يعملون... لكم يحب الأرض ويحب الناس.

أفـــاق لنفسه حين وقف القطار فى محطة قنا، وقد طلب إليهم الحراس أن يـــنزلوا... كم كانت دهشته وهو يرى أهالى قنا متجمهرين لاستقبالهم والحراس يدفعونهم بعيدًا، قال الشيخ نور الدين للشيخ محمد:

- والله ده يوم جميل يا شيخ محمد بلدنا فيها ثورة...

ابتسم الشيخ محمد وقال:

- دلوقت بس عرفت إن بلدنا فيها ثورة يا نور الدين... مهو إحنا حطبها.
- يبقى كويس... أهو الحطب بيشتعل..

ذهــب الرجال إلى المديرية... كانوا ينتظرون أيامًا طويلة. ربما فى ليمان طره وربما فى طوكر فى السودان، وفكرة الهروب بدت مستحيلة لنور الدين. أخذ الجــنود نــور الديــن والــرجال، وصــنعوا لهم فيش وتشبيه، ثم أوقفوهم صفًا فحكمدار المديرية يريد أن يراهم.

كانــت مفاجأة كبرى لهم أن يخبرهم الحكمدار أن السلطات قد قررت العفو عــنهم، لأن الثورة انتهت وأنهم سيذهبون إلى بيوتهم وسيوضعون تحت الرقابة لمدة عام، وأن أى شخص منهم يقوم بأى عمل مشبوه سيحاكم وقد يعدم.

ارتفعــت أصــوات الرجال بالتهليل بينما هتافات شعب قنا المتجمهر خارج المديرية تصل أسماعهم: نموت... نموت وتحيا مصر...

قال نور الدين لنفسه لم نمت ولم تحى مصر بعد... أنا لا أرى شيئًا تغير... فالوجوه الإنكليزية مازالت تحكم مصر...

مر على الرجال... حدد لهم موعدًا للقاء فى الكهف بعد أسبوع من عودتهم إلى المنزل.

* * *

ذهــب نور الدين إلى الكهف بعد أسبوع من عودته إلى منزله ليجد حصانًا أبــيض واقفًا خارج الكهف، عرف الحصان جيدًا فهو حصان شيخه الطيب. دخل الكهــف مسرعًا، كانت مفاجأة لــه أن لم يجد أحدًا فيه سوى الشيخ الطيب يؤدى الصلاة... قال السلام عليكم ثم وقف وراء شيخه يتبعه فى صلاته.

انتهى الشيخ الطيب من الصلاة بالتسليم ثم قال لنور الدين...

- إزيك يا نور الدين... انت مستنى الرجال؟
- أيوه يابا الشيخ.
- وناوى تعمل إيه...؟
- حنحارب الإنجليز.
- بمين؟...
- بالرجاله.
- طب استنى...

أخــذ الشــيخ الطيب فى الذكر... تبعه نور الدين... استغرقا زمنًا فى الذكر

حتى حانت صلاة العصر. صلى الشيخ الطيب إمامًا، وبعد أن فرغا من الصلاة نظر نور الدين فوجد بصيرى وسيد أبو حسين الزغابى ورفيقة يقفون خلفهما.

قال سيد أبو حسين:

- السلام عليكم.

قبل يد الشيخ الطيب كما قبلها بصيرى، وقفت رفيقة صامتة لا تتحرك فقد أصابتها الدهشة بالصمت حين رأت الشيخ الطيب. إنها تسمع عنه... وهذه أول مرة تراه... أية منحة يمنحها الله لها لترى هذا القطب العظيم؟

قال الشيخ الطيب:

- اجلسوا... هه يا نور الدين لسه حتحارب...؟
- أيوه يابا الشيخ...ححارب لحد البلد متتحرر من كل أجنبى.
- بمين يا نور الدين؟

أشار نور الدين إلى بصيرى وسيد أبو حسين ورفيقه وقال:

- بدول.
- دول ممكن يموتوا علشانك انت بس.

صمت الشيخ الطيب وقال:

- لم يئن الأوان بعد يا نور الدين... لم يئن الأوان بعد... لا تقحم أحبابك يا نور الدين فيما لا يعرفون واصبر... فالأيام قادمة... سترى فيها الكثير... يا نور الدين ستأتى أيام على هذا البلد يحكمها من لا يحبها ويقودها من لا خير فيه... سيأتى يوم يخاف فيه الأب من ابنه ولا يأمن الابن على نفسه من أبيه... سيخاف السائر فى الطريق ويخاف المقيم فى بيته... لا أمن ولا أمان... سيصبح الانتساب إلى هذا الوطن عارًا وسبة يحاربكم الأعداء والأصدقاء... سيقنط الناس من رحمة الله ويظنون ألا مخرج لهم إلا بالموت أو الهرب.. سيضيعون فى الأمم تتخاطفهم وتستعبدهم... تأكل جهدهم بلا ثمن.. ولكن رحمة الله كبيرة لن تتركهم... سيعودون صفًا... يقفون جميعًا ليصنعوا الحرية والأمن بسلاحهم... سيصنع أبناء هذه الأرض التى تقف تحتها مالا يتصوره إنسان... سيهزون الدنيا.... سيكونون رحماء بينهم أشداء على

أعدائهـــم عندها لن يحكم هذه الأرض إلا من يحبها... رجال ذوو عزم شديد... ضاع الخوف من قلوبهم... سيملئون هذه الأرض حرية وأمنًا وحبًا... اصبر يا نور الدين اصبر.

بكى نور الدين... ارتفع نشيجه.

- شيخى.

رفع الشيخ الطيب يده إلى السماء وأخذ فى الدعاء:

- اللهـــم إنى أعلم أن نور الدين حبيب إليك وإلى الناس اللهم قربنى إليك بحب نور الدين.

مد الشيخ الطيب يده إلى رأس نور الدين المطرقة وقال:

- لـــن تحتاجنى بعد الآن يا نور الدين ستكون مفتى طريقنا فنحن نحتاج إليك.

دخلـــت منـــيرة بالشاى إلى الحاجة رفيقة فأيقظتها من أفكارها بينما ارتفع صوت محمود:

- يا أمه خللى عزيزه وريا ييجوا.... يونس ومنوفى عايزينهم.

٢١

احتضـــن مـــنوفى بصيرى حين وجده فى الحجرة، وأخذ يعزيه فى الشيخ، ويسأله عن أحواله وعن السودان.

وقد خرج أبو المجد يونس من الحجرة ليجلس بجوار والده وقد تبعه دياب أبو محمد. عاد محمود إلى الحجرة، وقد أخذت نظراته تنتقل بين بصيرى ومنوفى ويونـــس دون تركـــيز، فهو تائه... يبحث عن شىء ضائع فى أعماقه لا يعرف ماهو؟ فراغ فى داخله يشعر أنه يتسع، وكأنه الفراغ الممتد بين السماء والأرض. توقفت نظرات محمود حين سمع صوت ريا فى الصالة تنادى منوفى:

- أيوه يا منوفى.

رد عليها منوفى:

- تعالى يا ريا سلمى على بصيرى.

دخلت ريا وتبعتها عزيزة وقف بصيرى ليسلم عليهما... مد يده إلى ريا:

- إزيك ياريا...؟

ثم نظر إلى عزيزة... تركزت نظرته... ظهر على وجهه أنه يعانى... برزت تجاعيد الوجه صارخة حادة... مد يده إلى عزيزة، خرج صوته دافئًا عميقاً:

- مين... عطيات... إزيك؟

ارتبكـــت الفتاة فهذه هى المرة الثانية التى تنادى باسم غير اسمها، خرجت كلماتها متقطعة:

- أنا... أنا عزيزة يا جد بصيرى.

جلس بصيرى على الكنبة، وكأنما أسقط جسده ثم خرجت منه صيحة:

- مدد يا نور الدين... مدد يا طيب.

ثم غاب بصيرى بعيدًا عمن حوله.

عــاد بذاكــرته إلى العام الخامس لنور الدينْ فى القاهرة وقد أخذه معه إلى جبل الميدوب فى كردفان ليأتى بالجمال. لولا عطيات ما قبل نور الدين السفر إلى الســودان، فــرح نــور الدين بالرحلة لأنه سيأتى بمهر عطيات، أما بصيرى فقد اطمأنت نفسه، ستكون هذه الرحلة خير رحلاته كلها، وسيعود بالجمال سالمة إلى فرشوط. حدد نور الدين موعدًا للسفر صباح الخميس، لم ينم ليلتها لقد كان على موعد حب مع زوجته.

كــان نور الدين متعجلاً الوصول إلى الميدوب، وحين وصل دنقلة كان على بصــيرى أن يتوقف فيها ليعد لرحلة طويلة تستمر حوالى شهر. لم يكن أمام نور الديــن وجه للاعتراض، مكث فى دنقلة يومين فى بيت صديق بصيرى وابن عمه على كرار.

أخــذ نــور الديــن يــتجول فى المدينة فى صحبة على كرار، يزور قبور مشايخها. كثيرًا ما كان ينظر إلى الجبل يتأمله ويسرح فى عطيات وفى أهله وفى الســاحة. يقــف بجــوار الــنهر ينظر إليه وإلى حركة مائه وقد حاصرته الجبال والصحراء، فبدا كمن يقاوم فى سبيل الحياة ليصل إلى مستقره ومقامه الآمن فى الشمال. إنه سيمر قرب الساحة حاملاً نفس هذا الماء الذى يراه.

لكــم هــو عظــيم فى مقاومته! وفى استقراره! فهو مستودع السر الإلهى الأعظم.

عاد نور الدين إلى منزل على وقال له:

- جــدى أبــو أمــى محمــد عــبد الرحــيم أبو الشيخ كان قاضى قضاة السودان... مات فيها، سمعنا أنه تزوج سودانية وخلف منها... ياريت أعرف همن فين؟

رد عليه على:

- الســودان كبير... مليان ناس من لقصر ونواحيها والحجاجية حتلاقيهم فى أماكن كتيرة فى السودان.
- تعرف لولا ارتباطات كتيرة لى فى مصر لكنت قعدت هنا طول حياتى... بحس إن النيل والجبل هنا بينادونى.
- أهى كلها بلادك يا نور الدين.

دخل بصيرى وهما يتحادثان فقال وهو يضحك:

- ودى بلاد دى؟

رد نور الدين متجاهلاً تعليقه:

- ليه متعيشش هنا؟
- عايزنى أعيش فى بلاد نم نم.
- والله بلاد حلوة.

لم يكن بصيرى يتصور أن يعيش فى دنقلة... يبدو أن نور الدين كان يقرأ الغيب فقد أصبحت فيما بعد موطنه ويدعو الله أن يسكن فيها جسده.

بعد غروب شمس اليوم التالى صلى نور الدين المغرب، ثم ركب ناقة ربط فى ظهرها ناقة أخرى تحمل الماء والمؤن، كما ركب بصيرى ناقة ربط فى ظهرها جملاً يحمل الخيام.

كانت الرحلة طويلة استغرقت سبعة وثلاثين يومًا حتى وصلا إلى الميدوب.

تعرف خلالها نور الدين على عالم كبير. يذكر بصيرى أن نور الدين قضى معظم وقته فوق ظهر ناقته وهو يسبح لله ويتأمل ملكوته، قال نور الدين لبصيرى: إنه رأى الله فى هذا الطريق.

بصيرى يصدق نور الدين فى كل ما يقول، ليس لديه سبب يمنعه من تصديقه. كان نور الدين رحيمًا رفيقًا به، لم يكن نور الدين يعامله بهذه الطريقة من قبل، شعر بصيرى نحو نور الدين بحب الأب.

كانت ميدوب قرية صغيرة، حدثه بصيرى كثيرًا عن أهلها، كان نور الدين ينظر إلى وجوه الأهالى، أدرك أن هناك شيئًا مكسورًا فى داخلهم. لقد كان أهالى هذه المنطقة من أكثر الناس اعتزازًا بحريتهم، لم يسلموا هذه الحرية لأحد، حتى للمهدى نفسه، ثم كسرتهم إنجلترا، كسر الله شوكتها... تمنى لو يستطيع أن يصنع شيئًا لهم، ولكن كيف؟ إنجلترا فى مصر وفى السودان وفى الميدوب.

كان يريد أن يمكث مدة أطول فيها... تذكر عطيات آه يا إلهى... ليتها كانت معى... لا... فالرحلة شاقة عليها... هذا المكان بداية طيبة للعمل من أجل الله.. ولكن فى الشمال مازال هناك أشياء لم تتم... تذكر الساحة وأجداده... قرأ الفاتحة

لهم.. بصيرى يتعجل الرحلة فقد جمع ثلاثمائة وخمسين جملاً قسمهم إلى قافلتين؛ الطـريق لا تحتمل مسيرة هذا العدد الكبير من الجمال، استأجر من قبائل العبابدة عشـرة سـواقين مـن رعاة الإبل وخبيرين للرحلة. جعل على كل قافلة خمسة سـواقين وخبـيرًا، كان اتفاقهم أن يسير نور الدين مع القافلة الأولى بينما يتبعه بصـيرى فـى القافلة الثانية على مسيرة ساعتين وهى المدة الكافية للراحة فى الطـريق، وأن يلـتقوا جمـيعًا حين تشتد حرارة الشمس ويصعب المسير تحت أشـعتها، كـانوا يعقلـون الجمال، وينصبون الخيام، ويقومون بإعداد الطعام، ثم ينامون بالتناوب، خوفًا من اللصوص.

مـرت أيـام علـيهم قـبل أن يدخلوا جبل العين، توقف نور الدين انتظارًا لبصـيرى، فالطريق تبدو وعرة، يصعب التحكم فيها، أخذ نور الدين يتأمل الجبل. إنه يصلح مكانًا طيبًا لقطاع الطرق. أدرك الآن جيدًا أن شكوكه التى كانت تساوره فـى إلحـاح بصيرى على اصطحابه فى هذه السفرة لها سبب واضح... العبادى اللئيم اتسرق هنا..

وصل بصيرى، فاستراح الجميع، ثم أخذوا فى المسير قبيل غروب الشمس. كان نور الدين قلقًا على الجمال يخشى عليها الطريق وصعوبته... حاول جهده أن ينظم طابورها فلا تتزاحم فى المنعرج الضيق مما يؤدى إلى إيذاء بعضها البعض.

كان يسير مع الجمال وقد ترجل عن جمله يتابع حركتها بنفسه، حين أخذت السـحب تتجمع وتتراكم ويسود لونها، بدأت أصوات الرعد تنذر بمطر غزير، لن تستطيع الجمال أن تسير فى هذه الأمطار، فى هذا المنعرج الضيق.

قـاد الجمال نحو منحنى ظاهر فى الجبل، أخذ يعقل مع الرجال الجمال بينما لم تمهلهم الأمطار حتى ينتهوا فأخذت تسقط بغزارة.

توقفـت الأمطار عن السقوط وأخذت السحب تنقشع. قرر أن ينتظر حضور بصـيرى، مـر علـيه أكثر من ساعتين، لم يظهر بصيرى فى الأفق، ركب ناقته وانطلـق مسـرعًا فـى اتجاه قافلة بصيرى، سار بناقته أكثر من ساعتين ليجد بصـيرى ورجاله مقيدين من أرجلهم وأيديهم مطروحين على الأرض وقد اختفت الجمال كلها. لقد صنعها الهمباتا، سراق الجمال.

لـم ينتظر نور الدين وصول ناقته، تركها وانطلق يجرى نحو بصيرى وقد

أخذته المفاجأة، صرخ نور الدين:

- إيه اللى عمل فيك كده؟

كـــان بصـــيرى يبدو مهزوماً، آلمت نظراته نور الدين فتغير وجهه ولبس لباس الأسد، صرخ وهو يفك وثاقه:

- مين الكلب اللى عمل فيك كده؟

كـــان الغضـــب قـــد أخذ من نور الدين كل مأخذ وهو يرى صديقه مسلوب الإرادة عاجزًا وقد فقد قافلته، أخذ يفك وثاق بقية الرعاة دون أن يغادره الغضب.

قال نور الدين لبصيرى:

- همن مشيوا إزاى؟

أشـــار بصيرى إلى الطريق الذى سار فيه اللصوص أمسك نور الدين برقبة ناقته بيد وبعصاه باليد الأخرى وقفز على ظهرها، وجهها إلى الطريق الذى أشار إليه بصيرى.

جرى بصيرى مع الناقة وهو يصرخ على نور الدين:

- بلاش تروح ورا الهمباتا دول كتار قوى ومش حتقدر عليهم..

كانت ناقة نور الدين تجرى وبصيرى لا يتوقف عن العدو وراءها.

- بلاش يا خوى بلاش تودى نفسك فى داهية.

رد نور الدين عليه بصوت جاف قاس:

- اسمع يا بصيرى.. انتو مش حتقفوا امش بالجمال ببطء.. وإذا ما جتش بعد يوم متستنانيش.. ربنا يدلنى عليهم.

أرخـــى نـــور الديـــن اللجام لناقته ولكزها بعصاه فأخذت تجرى حتى عجز بصيرى عن اللحاق بها فتوقف وقد ظهر عليه حزن عميق.

أخذ ضمير بصيرى يؤنبه على إحضاره نور الدين فى مغامرة بهذه المنطقة الموحشة.. لقد كانت أنانية منه أن يأتى به إلى هنا.

وقف بصيرى حائرًا وقد عاد إلى رجاله، فأخذ ينظر إليهم لا يدرى ما يصنع لقد أخذته المفاجأة.. فوجئ باللصوص يرفعون بنادقهم وراء ظهره وظهر رجاله، والأمطار تسقط بغزارة، لم يكن يدرى ما يفعل فاستسلم لهم.

كانــت لحظة مؤلمة وهو يرى جمال والده تغتصب منه، ولا يستطيع حراكًا فقد قيده اللصوص قيدًا يصعب فكه. هذه ثانى مرة يحدث لـــه ذلك، ما الذى حدث لكـــردفان؟ منذ أن دخلها الإنجليز لم تعد مكانًا آمنًا، تذكر نور الدين فربما أخذوا منه الجمال، معنى ذلك أنهم جميعًا هالكون إن لم تنقذهم قافلة قادمة.

القـــيد يـــرهقه... الشـــعور بالهزيمة... مرارة الاغتصاب تجتاحه... تملكه الشـــعور بالحقد والعجز معًا. مشاعر تكفى لكسر الإنسان من داخله لقتله.. حتى صديقه الذى جاء به لينقذه سيموت حتمًا.

استعاد بذاكرته صورة الشيخ الطيب.. الضرير المبصر الذى يرى الحقيقة.. لقد رآه يقدم لنور الدين ثلاث مرات بلا قائد يقوده. إنه يعلم إنه لم يأت لنور الدين بجسده فقد كان قابعًا فى القرنة أما روح الشيخ الطيب فهى التى تحركت مسرعة لتأخذ بيد نور الدين حين عجز عن صنع شىء له.

لقـــد كان قبسًا من نور يتحرك.. ترى هل يأتى له الآن من ينقذه وينقذ نور الدين؟ صرخ وهو يحاول أن يحرك قدميه ويديه الموثقتين:

- يـــا طيـــب... يـــا طيـــب... الحقنى والحق نور الدين حنموت هنا فى الصحراء... حنموت... يا رب الحقنا...

لـــم تـــأت النجدة من السماء لبصيرى ورجاله... حاول أن يتدحرج بجسده تجـــاه أصـــحابه لعله يستطيع أن يفك وثاق أحدهم بأسنانه ولكن المحاولة باءت بالفشل. فاللصوص عليهم لعنة الله قد أحكموا الوثاق.

استســـلم بصيرى لقدره، فالسماء والشيخ الطيب لن ينقذا رجلاً عاصيًا مثل بصيرى.

نظر إلى السماء، أخذ يدعو الله فى حنان الخائف الضائع المرتجى أملاً:

- يـــارب... أنقذنا... يا شيخ يا طيب متسيبناش... يا رب... أنا عاصى بـــس مؤمـــن بيك وبحبك وإذا خرجتنى من الضيقة دى ونجتنى حتوب ومش حعصيك أبدًا.

جاءتـــه صـــورة جليلة حاول أن يطردها وهو يقول فى نفسه هو ده وقته يا بنت الأبالسة.

لــم يأت الفرج لبصيرى، أخذ ينظر إلى الرجال وهم يحاولون الحركة. إنه مــتأكد أن كلاً منهم يخاطب ربه على طريقته، وهذا حقهم فلن يطول الوقت حتى يلتقوا به.

حبس بصيرى صرخته حين رأى شبحًا قادمًا من بعيد، لقد جاء الفرج. كان بصيرى متأكدًا أنه نور الدين، أغمض عينيه حتى لا تقعا عليه. إنه يشعر بالحياء مــنه.. لقــد أوقعــه فــى هذا المحذور ولم يقل لــه الحقيقة وهو يلح عليه فى الحضور إلى السودان. إنها خيانة منه، ترى هل يقبل فيها نور الدين عذره؟ كان قلــب بصــيرى يتمزق وهو يرى وجه نور الدين وقد اكتسى لبدة الأسد والغضب يملأه على اللصوص لقد أدرك بصيرى جيدًا حب نور الدين له... إنه لا يستحقه، والآن يمضى بعيدًا عنه يغيب فى منعرجات الجبل، ليواجه مغامرة أكبر منه؛ فهذا الجــبل تــيه لا تعرف دروبه ومنحنياته، يستطيع أى لص أن يخفى مئات الجمال دون أن يــراه أحد، والهمباتا هنا عصبة. يكونون دولة فى هذا الجبل لا يستطيع أحد اقتحامها، والحكومة المركزية فى العاصمة لا تفكر فى تطهيرها.

أخــذ بصــيرى يفكــر ويفكــر... هل يذهب إلى الجبل برجاله... إنهم لن يســتطيعوا صــنع شىء... لقد غاب نور الدين ولن يستطيعوا حتى العثور عليه. شــعر بضــرورة أن يستمع لنصح نور الدين فيأخذ الجمال ويسير بها فى الوادى ببطء مسيرة يوم كامل.

أخــذ القلــق بصيرى، شعر بأن جسده وروحه ينهدان، فنور الدين لم يأت، وقد انتهى اليوم.

لقــد طلب منه نور الدين ألا يتوقف ويسرع فى السير إذا لم يأت، أجراس تدق فى رأسه، ماذا حدث لنور الدين؟ هل مات؟ كيف لم يفكر فى الأمر قبل ذلك؟ هل يستطيع نور الدين أن يقف بمفرده أمام شياطين هذا الجبل؟

إنــه قلق، لا تجد أسئلته إجابة عليها فى داخله، توقف، رأى الوادى يتسع، ســار ببعيره يتقدم القافلة، حتى وصل إلى أكبر اتساع للوادى، صد الجمال لتقف. صرخ فى رجاله:

- حنقف هنا يا رجاله، أنا مش ماشى إلا إذا جه نور الدين.

أخذ الرجال يعقلون الجمال، تركهم وعاد ببعيره من حيث جاء.

قــرر ألا يــترك نور الدين وحده. إنه يعلم أن زمنًا طويلاً قد مر على نور الديــن مــنذ تركه، وقد يكون انتهى أو استطاع أن يتغلب على اللصوص – وهذا مســتحيل – فكــرة نهاية نور الدين لم توقفه عن المسير فإنه لن يهرب بالجمال ويترك ثأر أعز الناس إلى قلبه. سيموت فى المكان الذى مات فيه نور الدين ولكن ليس قبل أن يقتل الكثيرين منهم.

عضــلات وجهه تتقلص، جسده يرتعش، العرق يتصبب من جبهته وقد بل عرق الجسد ملابسه، أخذ يحرك سوطه فوق رقبة البعير وظهره. إن على البعير أن يعدو، أن يجرى فربما كان هناك أمل فى الوقوف بجوار نور الدين.

صــرخ لنفســه: آه مــا أجبنك يا بصيرى، تأتى بصديقك إلى هذه الأرض وتتركه يموت وحيدًا.

لم يخذل البعير بصيرى فقد أخذ يعدو وكأنه يعرف هدف صاحبه.

الألــم يــرهق بصيرى وهو يذكر كيف دفع صاحبه للحضور إلى هنا، كانت خدعة منه، فهو لم يقل له عندما ذهب إليه فى القاهرة أن قطاع الطرق قد سرقوا جمالـــه. اغتنم فرصة حاجة نور الدين للمال وهو الآن يحرمه من المرأة الوحيدة التى أحبها... إن فعله بصديقه شنيع وفظيع سيحكيه الرواة على أنه خيانة صديق لصديقه.

غابت الشمس ثم ساد الظلام الأفق، وهدأت الحرارة قليلاً وإذا بالجمل يقف فقــد أنهك تمامًا. مرت عليه عشر ساعات وهو لم يتوقف عن العدو، سحبه إلى ناحــية بالجــبل وتركه يرعى بعض نباتات الصيف، برك الجمل، فاغتاظ بصيرى فــالجمل لــن يأكل إنه يعلم بصبره على الجوع، ولكن العشب الريان سيريح من جســده المتعب، فأخذ يجمع الأعشاب ويقربها من الجمل، ثم جلس بجواره وألقى بجسده على الأرض المخضرة بالعشب يراقب الجمل عله يقف دون أن يدفعه لذلك مرت عليه ساعتان ثقيلتان والجمل لا يقف.

ســحب خطامـــه بقوة وسار به فى الطريق ثم مد يده وأمسك برقبته وقفز على ظهره.

كـــان الظلام حالكًا ولكن عينا بصيرى استطاعتا أن تتبينا غبارًا وأن تتسمع

أذنـــه أصواتًا أقدام قافلة قادمة من بعيد. لن يستطيع أن يسير فى الطريق مقتحمًا القافلة، عليه أن ينتظر مسيرها، وقف على جانب الطريق ليفسح للجمال.

اقتربـــت الجمـــال من بصيرى. صوت حركتها وثقل الغبار يؤكد أنها ليست قافلة عادية. فإن أحدًا لا يستطيع أن يسير فى هذا الطريق بأكثر من مائة وخمسة وسبعين جملاً.

بـــدأ بصيرى يتبين القافلة فى الظلام. إنها أكبر بكثير مما يحتمل الطريق. صـــوت آخـــر قـــادم من الخلف يشد انتباه بصيرى.. وجه نظره، رأى ناقة تقدم مسرعة نحوه.. أمعن النظر بعينيه إلى القادم. لم يكن من السهل عليه أن يتعرف علـــيه وحيـــن اقترب أدرك إنه بشير ود صالح رفيق نور الدين فى قافلته، ناداه بصيرى أن يتقدم ويفسح الطريق للقافلة القادمة وقف بجواره. قال بصيرى:

- شنو جابك؟

لم يرد بشير، ولم يكن بصيرى فى حاجة إلى أن يستمع لرد منه.

كانـــت هـــذه أول رحلـــة لبشير فى هذا الطريق لقد بلغ السادسة عشر من عمره، فطلب والده من بصيرى أن يأخذه، سواقا فى القافلة.

لـــزم بشـــير نـــور الدين طوال الرحلة، تعلم منه الكثير، فتح لـــه آفاقا من المعـــرفة لم تكن تتاح لـــه لو لم يصاحب نور الدين. الغريب أنه سمع فى صغره أن أهل الشمال ضعاف عجزة، منعمون لا يستطيع الواحد منهم أن يركب جملاً أو يسير فى قافلة، إنهم فراعنة – قساة القلوب إن قدروا.

تعلم من نور الدين أن يستمع ولا يصدق غير عقله. عرف منه كيف تكون الرحمة من الكبير للصغير ومن الإنسان للحيوان.

لقد أحبه فى هذه المدة القصيرة حبًا يجعله فى مرتبة أبيه. كان لا يناديه إلا بياعم، وكان نور الدين يحب أن يستمع إلى كلمة عم منه.

شـــعر بشير بالألم لغيبة نور الدين وتمنى أن يصنع شيئًا له، إن نور الدين علـــى علمـــه الكبير لا يعرف هذا الجبل ولصوصه، لو عرف أنه يريد أن يطارد اللصوص لأوقفه، مضى فى الرحلة مع بصيرى ساكتًا حزينًا قلقًا على نور الدين، وعـــندما رأى بصـــيرى يلوى خطام ناقته ويبتعد عن القافلة، شعر أنه أولى من

بصـــيرى فـــى الدفـــاع عن نور الدين فترك زملاءه وأخذ يعدو بناقته ليصل إلى بصيرى، ولقد وصل إليه وهو لا يعرف ماذا سيصنعان بعد أن تمر القافلة.

قال بشير:

- دى كتير على قافلة واحدة.

لـــم يسمع بصيرى ما يقول فقد كان مشغولاً عنه مركزًا نظره على القافلة يتابعها، صرخ بحدة:

- يا بشير عندى إحساس أن نور الدين فى القافلة.. ركز معاى.

نـــزل من فوق ناقته وسار تجاه القافلة بقدميه، لمحت عيناه عن بعد راعيًا يـــتحرك مسرعًا غربًا وشرقا، تسمر لحظة ثم انطلق يجرى نحو الراعى. إنه نور الدين.

- يا نور الدين... يا نور الدين.

نظر إليه نور الدين، وأخذ يجرى نحوه:

- مين بصيرى...؟

تعانق الرجلان، والجمال تتابع طريقها، سأله بصيرى بلهفة:

- قل لى... حصل إيه؟ حصل إيه؟
- بعدين أقولك... دلوقت خلى بالك من الجمال معاى.

* * *

ظهر الخيط الأبيض من الخيط الأسود وبدأ النور يدفع الظلام.

تـــرك نور الدين القافلة لبصيرى وتوقف ليصلى، سارت الجمال ببطء، حتى ينتهى نور الدين من صلاته ليسرع بها إلى قافلتهم المنتظرة.

هـــال بصـــيرى كـــثرة الجمال التى جاء بها نور الدين. إنها أكثر بكثير من جمال قافلته المسروقة، دفعه حب الاستطلاع إلى أن يعدها.

أدرك بصـــيرى إنـــه جـــاء بهـــا وبنفس الجمال التى سرقت منه فى المرة السابقة وتزيد عنها أربعين جملاً من أبنائها الذين ولدوا طوال غيبتها.

مـــاذا حـــدث فى هذا الكون؟ كيف استطاع أن يأتى بها كلها دون أن تنقص واحدة، بل زادت وامتلأت.

تبدو على نور الدين حركة الهارب وكأنه لم يدخل معركة، يقترب منه نور الديـــن فقد انتهى من صلاته، وأسرع نحو القافلة وجد بشير يتابع نظام الجمال، صرخ نور الدين:

- شنو حالك يا بشير؟

رآه بشير فأخذ يجرى نحوه، ارتمى نور الدين سريعًا على رقبة ناقته، وما إن أمسك بها حتى قفز على الأرض، ضم بشير الذى أخذ يبكى، قال له نور الدين:

- متدمعشى... أنا جيت، ومحصلشى حاجة.

واقـــترب نور الدين من بصيرى، وتحادثا فى ضرورة تقسيم الرجال عليها، والإسراع بالمسير حتى يعبروا الجبل، كأن بصيرى يعرف أن عدد الرجال لا يكفى ولكـــن لا خـــيار لـــه حتى يصل إلى دنقلة، ويؤجر عددًا من الرعاة ليأخذوا معه القافلة إلى فرشوط، قال بصيرى:

- الرحلة حتبقى صعبة بالعدد ده.

سكت نور الدين ولم يرد عليه، فقد وصل إلى مسمعه صوت بشير ود صالح يحدو للجمال:

السفر داير لو راى وبصاره
وبندقيته والعفش لاى ساره
وجملاً ساوى صبيًا فنجرى
وإيدًا ما بتخون الجارة.
الخلا من قبحته وسيسو المطرح فوده
وداير لو صبى وكلسن قوايا زنوده
يكون طيب مع الاخوان ميتين ميعوده
طول باله ودكارته وجوده.

* * *

بدأت التلال المؤدية لدنقلة تظهر بوضوح لبصيرى فتملكه شعور بالراحة.
فصرخ بفرح:

- وصلنا بالسلامة يا رجاله.

وقـــبل أن يدخـــل الطـــريق المؤدى للنهر من بين التلال كانت الشمس قد غربت.

سارت الجمال يوجهها بصيرى ورجاله نحو النهر حتى وصلت إليه، وقد أخذ القمر ينشر أشعته فى الأفق. همت الجمال إلى الماء وأخذت تشرب فقد مر عليها أكثر من عشرة أيام دون ماء.

نظر بصيرى إلى النهر وقد عكرت الجمال مياهه، وانعكاسات ضوء القمر تلون المياه بالذهب والفضة، اقترب من الماء أراد أن يخلع ملابسه ليستحم فى النهر توقف، شىء ما يمنعه من دخول النهر... ليس الخوف ولكنها رهبة تقتحمه تصده عن النهر، تراجع... توقف خلف الجمال رمى بجسده على الأرض وحاول أن ينام، لكنه لم ينم فقد أخذت القوافل تقدم تباعًا ولم تبق إلا قافلة نور الدين. أخذ بصيرى ينظر إلى القمر ويتابع بعينيه النجوم وضوءها الباهت. توقفت نظراته ناحية الشرق قرب الجبل عند دائرة من النجوم يقف على بعد قريب منها نجم ذو ذنب يشع ضوءه، ولا يستطيع ضوء القمر أن يخفيه، استرعى انتباهه المنظر، فأخذ يتأمله، لم يتوقف إلا حين قدمت قافلة نور الدين. تحركت جمال القافلة نحو النهر، انطلق نور الدين إلى النهر، خلع ملابسه وارتمى فيه وأخذ فى السباحة. وقف بصيرى ينظر إلى نور الدين فوجده اختفى فى الماء، تذكر حين كانا طفلين يتسابقان فى العوم، حاول أن ينزل النهر ولكنه لم يستطع، ارتجف بصيرى وهو يرى تمساحًا يبدو ظهره الأسود يخترق الماء ناحية الشرق، التمساح قفز، رآه كله، خاف على نور الدين، توقف. وجد نور الدين يقفز مكان التمساح ثم يعود ثانية إلى الشط.

* * *

مر اليوم الثالث عشر منذ ترك نور الدين وبصيرى دنقلة. وقد سارا فى الصحراء، توقفا خمس مرات على النهر، استراحا فيها واستراحت الجمال. وكانت آخر وقفتهم فى إسنا، انطلقوا منها فى اتجاه فرشوط.

كانت حركتهم سريعة، أراد بصيرى أن يقطع المسافة بين إسنا وفرشوط فى أقل من يوم كامل. إلا إنهم ما أن غادروا إسنا فى عصر اليوم الرابع عشر حتى أخذت ناقة فى قافلة بصيرى تصرخ من ألم الطلق، توقف بصيرى حتى تلد الناقة. وصلت القوافل الباقية إليه فوجدته فى انتظار وضع الناقة، ذهب نور الدين إلى الناقة وأخذ يقوم بتوليدها. خرجت رأس القاعود فى يد نور الدين وقد أخذ يسحبه

حتى خرج حوارها، أراد بصيرى أن يأخذ الناقة معه ويترك طفلها فى الصحراء. كانت الناقة تصرخ، وبصيرى والرجال يسحبانها بعيدًا، وإذا بنور الدين يجرى نحوهم ويدفع بصيرى بعيدًا:

- سيب الناقة يا بصيرى... احنا مش حناخدها معانا.
- واسيبها ليه؟
- يا راجل خلى عندك رحمة... تاخد أم من ابنها... سيبها زكة عن مالك. سيبها وأنا أدفع تمنها لعل الله يجد لها مخرجًا.
- بتقول إيه يا نور الدين آخذ تمنها... فداك الجمال دى كلها...

وسار بصيرى بقافلته تاركًا الناقة مع رضيعها.

كانت الشمس فى طريقها للمغيب فى الجبل وقافلة بصيرى لم تبتعد كثيرًا عن نور الدين حتى بدأت الرياح قادمة من الجنوب تهب حاملة معها رمال الصحراء. أدرك نور الدين من القوة التى تحمل بها الرياح الرمال أن هذه بداية عاصفة قوية. توقف وتوقف بصيرى، طلب نور الدين من الرجل أن يقتربوا من الجبل وأن يدخلوا فى أقرب ممر حتى يجعلوا من الجبل حائطًا يحميهم من الرياح ويجعلهم قادرين على التحكم فى الجمال.

أسرع نور الدين إلى بصيرى يطلب منه أن يتجه بالجمال نحو الجبل ثم عاد إلى الجمال، وقد ترك ناقته وأخذ يقود مع الرجال الجمال التى أخذت فى الرغاء.

لم يمض وقت طويل على حركتهم هذه حتى وجدوا المدخل للجبل فأخذت الجمال تمر تحت رعاية شديدة منهم، توقفوا عند هضبة متسعة قرب انحدار الجبل وأخذوا فى عقل الجمال.

استمرت العاصفة طويلاً وقد دخل الليل، وبدا واضحًا أنهم سيقضون الليل فى هذا المكان قبل أن تتوقف العاصفة.

ولكن العاصفة توقفت، تحرك بصيرى ليفك الجمال نادى على نور الدين . لم يجده، سأل عنه الرجال، قال له بشير ود صلاح إنه سار فوق التبة المجاورة واختفى فى الجبل. لم يفك بصيرى الجمال، وقف ينتظر عودة نور الدين، جلس على الأرض، أخذ يلعب بأصابعه فى الرمل. إنه قلق يريد أن يعود، وأن يسلم

الجمال ويذهب إلى القاهرة ليتمتع بنسائها... كانت هذه الرحلة مليئة بالأحداث... تذكـــر جليلة... تأوه... التوبة صعبة... كيف يتوب وفى الدنيا نساء جميلات؟ إن الله غفور رحيم.

أفاق من أفكاره على صوت نور الدين يناديه:

- يـــا بصيرى... ده إحنا قرب خزام.. تعال أنا لقيت كهف فيه بير ميتها زلال.
- يا نور الدين مفيش وقت.. تعالى بسرعة عايزين نمشى.

أدار نور الدين ظهره له وسار حتى اختفى عن ناظره.

امـــتلأ بصـــيرى غيظًا من نور الدين، فليس هذا وقت تأملات، تحرك حول الجمـــال ثـــم سار بعيدًا وأخذ ينظر إلى النجوم يتأملها... منظرها الليلة غريب... ضوءها ساطع سطوع لآلىء قريبة من ضوء شمس الظهيرة فى الصحراء... طال تـــأمل بصـــيرى فـــى الـــنجوم... توقف عند النجم ذو الذنب... رآه يتوهج، كبر الوهج... تحرك النجم حركة واضحة.

اقترب النجم ذو الذنب من دائرة النجوم... دخل النجم الدائرة... احتل مكانه وسطها توقف... استقر... بدا أن هذا هو مكان النجم الطبيعى...

شعر بصيرى أن شيئًا يشد وجهه. يدفعه إلى الالتفات فوق الجبل، رأى نور الدين واقفًا يتابع النجم ينظر إلى استقراره.

نقـــل بصـــيرى ناظريه بين نور الدين وبين النجم، النجم فى السماء ونور الدين بجلبابه الأبيض فوق الجبل... انسحب قلبه... توقفت نظرته عند نور الدين رأى شـــعاعًا يســـقط علـــى الأرض ينزل على رأس نور الدين، ثم أخذت الأشعة تتســـاقط لتلفه فى دائرة من نور... لم يعد بصيرى يرى غير النور. أدرك أن هذا نجـــم نور الدين يستقر فى مكانه. شعر بدفء يسرى فى أوصاله... فهذا صديقه نور الدين... إنه يعرف... يعرف... ولكنه الآن يؤمن، استطاع أن يخرج بعد جهد صيحة:

- شهدنا لك يا نور الدين... شهدنا لك يا شيخ نور الدين.

فوجئ بصيرى بالضوء يختفى تمامًا ويظهر نور الدين نازلاً من الجبل وهو يقول بصوت مرتفع:

- إيه فيه يا بصيرى؟

ندم بصيرى على أن قطع الصمت وتسبب فى اختفاء الضوء، ولكن ذلك لم يمنع بصيرى من أن يقفز ويصرخ صرخات الفرح:

- شهدنا لك يانجم.. شهدنا لك يا شيخ نور الدين.

كـــان نـــور الدين يسير هادئًا فى اتجاه بصيرى، الذى لم يتوقف عن القفز وإطـــلاق صيحاته. كان بصيرى يقترب من أحد الجمال، فأخرج خنجرًا وقفز فوق رقـــبة جمل معقول، ونحر الجمل فيما بين الرقبة والترقوة، وقفز عنه وهو يسقط مدرجًا فى دمائه على الأرض. وابتعد عن الجمل. نظر الرجال إلى بصيرى. وهو يفعل ذلك. اقتربوا منه.

قال بصيرى وعيناه تشعان بضوء فرح:

- مش حنسافر الليلة.

كان نور الدين قد وصل إلى بصيرى وسأله:

- إيه اللى بتعمله ده يا بصيرى؟ انت اتجننت.
- قـــول اللـــى تقولـــه يـــا شـــيخ نور الدين. الليلة ليلتك حنسهر ونغنى ونرقص.. ده نجمك يا شيخ نور اليدن.

بدا على نور الدين أنه لم يفهم فقال بعتاب:

- ليه بتعمل كده؟
- حتعمل مش فاهم.. أنا عارفك.. كتوم.. وصاحب أسرار.
- أنا مش فاهم حاجة.. ليه بتعمل كده.. ونجم إيه.. دى أول مرة بتنادينى بشيخ نور الدين.. إيه اللى حصل.

لـــم يجاوبـــه بصـــيرى فقد جاء الرجال وأحاطوا بنور الدين وأخذوا يغنون ويرقصـــون وصوت بشير ود صالح يرتفع وكأنما يريد لصوته أن يصل للنجم، ثم أخذوا فى إعداد الجمل للشواء.

وبعـــد أن أكلـــوا عادوا للغناء والرقص وإذا بالشيخ نور الدين يدخل دائرة الرقص. يقف ويحنى رأسه وصوته الحنون يرتفع، يجاوبه الرجال:

يا نفسى كفى عن سوى مولاك

يا نفسى كفى فالهوى أرداك

وقد أخذ الرجال فى الذكر يرفعون أصواتهم خلفه حى.. حى.. حى..

ظلـــوا طـــوال الليـــل يتنقلون بين الغناء والرقص والذكر حتى ظهر ضوء النهار. توقفوا، فكوا عقال الجمال. ساروا فى الطريق إلى فرشوط، وعينا بصيرى ملتصـــقة بالنـــجم. لقـــد رآه بصيرى منذ أربعة أيام يغيب كما رآه يولد فأدرك أن صديقه قد مات.

* * *

أفاق بصيرى على صوت منوفى يقول:

- نستأذن يا بصيرى.

وقـــف بصيرى ليسلم على منوفى ويونس، سلم على عزيزة، أمسك بيديها. أخـــذ ينظر إليها، ومحمود يمعن النظر فى وجه بصيرى. عيون هذا الرجل عيون صقر لم يضعفهما الزمن، هزه حنان نظرته لعزيزة كأنه يعود بها إلى زمن بعيد.

خـــرج منـــوفى ويونـــس وعزيزة، وجلس بصيرى وغاب ثانية فقد أعادته عزيزة إلى عطيات.

تذكر بصيرى فرحة الشيخ نور الدين وهو يعود إلى القاهرة ولهفته ليراها، ثم عودة بصيرى ليجد نور الدين يعيش عذابًا لم يعشه إنسان.

لقد أدرك بصيرى أن الشيطان قد قتل عطيات ليختبر الشيخ نور الدين. كان الاختـــبار صـــعبًا... أراد أن يحرمه من حب يستحقه ليسقط نجمه، أخذت الدموع تتساقط من عينى بصيرى ومحمود يراقبه، ثم ارتفع صوته بنشيج محموم:

- آه.. يا خوى.

غادر محمود الحجرة فهو يريد لبصيرى أن يعيش لحظة حزنه على صديقه بمفرده.

٢٢

كان الشيخ يونس يتمتم بورده، وقد جلس الحاج حجاجى وأبو المجد ودياب على دكة واحدة، حين وصل إلى سمعهم صوت نشيج بصيرى.

جلـــس محمود بجوار عمه يونس وقد تحرك دياب يريد أن يذهب لبصيرى ليهدئه، أوقفه الحاج:

- سيبه وحده.. البكا ساعات بيكون ضرورة.

عاد دياب إلى جلسته، تسبح أفكار محمود فى بصيرى... الحاج حجاجى... الشـــيخ نـــور الدين... شعر بوحدة... لقد مات نور الدين... ما أكثر الناس الذين يعرفون نور الدين أما هو... فإنه يتحول بالنسبة له إلى سر من الأسرار. غير أن هـــذا السر مات مع صاحبه، اختفى إلى الأبد... تحول إلى خيال لا وجود لـــه، لن يعود... لن يتكرر... هذا صعب شعر بالاختناق... لقد عاش اثنين وعشرين عامًا هـــى كل عمره فى ظلال رجل ينظر إليه مبهورًا وهو يشعر بالعجز تجاهه، أيقظه الحاج حجاجى وهو يقول له:

- محمود... خليها على الله... سلمها لله...

هل قرأ أخوه أفكاره... هل يعرفه أخوه كما كان الشيخ نور الدين يعرفه... لأ... فنور الدين لن يتكرر.

تحرك من مكانه ومضى يسير فى نفس الطريق الذى كان والده يقطعه نحو النـــيل حتى وصل إلى الجبانة القديمة، وجد الحكومة قد وضعت حاجزًا من السلك يمـــنع الـــناس من الدخول... حاول أن يتخطى الحاجز، فنهره خفير الآثار... لقد بدأت الحفريات بحثًا عن طريق الكباش... حول مشيته نحو طريق آخر، أخذ ينظر إلـــى أطـــلال الساحة، فقد بدأت الحفريات تحتها بحثًا عن المعبد.. سويت أرضها بأرضية المعبد... انتابته رغبة فى أن يقتحم الأطلال... تخطى الحاجز السلكى... وقـــف فوق الأطلال. وجد بقايا حجارة مذبح الكنيسة القديمة... كانت هنا كنيسة

قديمة تهدمت... سار فوق الأحجار... وجد بقايا تماثيل... كان هنا جزء من معبد مصرى قديم هُدَّ هو أيضًا... معبد.. كنيسة... ساحة... هدت جميعها... اهتز عقله... مصلحة الآثار ترمم المعبد. ترى أهو الأصل؟ فمن يرمم الكنيسة؟ ومن يرمم الساحة؟... اهتز قلبه... وقف أمام وجه تمثال ضخم... أخذ يتبينه على أشعة الضوء المنعكس عن مصابيح مئذنة أبى الحجاج... وقف أمام الوجه لا بد أنه الملك الإله الفرعونى فى الساحة... اهتز جسده فقد أدرك أنه يقف أمام وجه نور الدين... لقد كان هنا فى المعبد كما كان فى الساحة، ولا بد أنه كان فى الكنيسة... كاهنًا.. أنبا... شيخًا.

تذكر أنه مات هنا من أجل الساحة... تذكر... فهم الآن لماذا كان أول معول يضرب فى جدران الساحة هو معول نور الدين... لقد رآه بعينيه كما رآه كل أهل الأقصر... تجمع الناس أمام الساحة يوم هدها سمعوا صوتًا يصرخ:

- لا أستطيع.

كان هذا صوت أحد العمال المكلفين بهدم الساحة... توقف العمال لا يجرؤ أحدهم على أن يضرب بمعوله الضربة الأولى فى الجدار. الخوف والرهبة تمنعهم... تعالى ضجيج الناس فى الخارج... ارتفع صوت بين الضجيج الله أكبر... الله أكبر... تتردد الكلمة... يسمع نور الدين الضجيج فيتجه نحو الساحة ليعرف ما حدث... صعد درج الساحة... توقف فوق سطحها... نظر إلى الناس من عل... أدرك الآن أنها لحظته... إنه يستطيع أن يواجه السلطة ويمنع هدم الساحة... إنها لحظته... طيف الشيخ الطيب يتحرك نحوه... نقل ناظريه بين الطيف والناس... معظمهم من الشيوخ... سيحاربون فى سبيل الساحة سيموتون من أجل الساحة... آه ستبعد الساحة... وضع يديه على وجهه... غاب... صرخ... خرجت كلمات مكتومة.

- يا شيخى... يا شيخى... يا شيخى... ألم يئن الأوان؟... متى يأتى الوقت؟ نزل يديه من على وجهه... استدار... اتجه نحو عامل من العمال أمسك بالفأس وكأنه يريد أن يعتصرها وهو يدعو ربه.
- اللهم امنحهم خيرًا منها.

وأخذ يضرب فى الجدار الضربة الأولى وكأنه يضرب فى روحه.

ترك التمثال ليجد نفسه أمام جسد إله فى نعومة وصفاء جسد نور الدين

حين خرج من النيل، هناك كان نور الدين كما كان هنا... ترى أين هو الآن.

شـــعر بـــأن عليه أن يغادر الأطلال سار تجاه السلك تخطاه... حول مشيته نحو طريق آخر حتى وصل إلى شاطئ النهر، وجد حفرًا فى الشارع أدرك أن بناءً جديدًا سيأخذ فى الارتفاع فندقا جديدًا للسائحين... فالحكومة قد منعت الأهالى من بناء مساكن على النيل... قصرت الشارع على الفنادق السياحية ليتمتع القادمون بجمال النهر والطبيعة المحيطة بأهله.

اقـــترب مـــن الجميزة... لقد عاشت عمرًا طويلاً ترتوى من ماء النيل تمد جذورهـــا إليه... لا تفارقه لحظة... هذا الفندق الجديد نذير لها فلن تتركها بلدية الأقصر شامخة فى مكانها... لا بد أنهم قاطعوها...

كل شىء يضايق هذه الأيام... لا يبقى شىء على حاله، نزل إلى الشط وقد أخذ الفيضان فى الانحسار، وبدأت مياه النيل تعود خفيفة إلى شكلها الصافى.

نسمات الخريف تعبث بالمياه... صوت فلاح يغنى من بعيد... أمسك محمود بـــأحد جذور الجميزة البارز من حافة الشط... قال لنفسه لا أظن أحدًا يستطيع أن يمتد لجذرك أيتها الجميزة... تذكر أن هذا آخر عام للفيضان فالنيل سيتوقف عن الفيضان... فالسد العالى سينتهى العام القادم ليحكم حركة هذا النهر العظيم، ويحد من حريته التى لم يمسسها بشر منذ آلاف السنين.

تذكـــر الشـــيخ نور الدين ولم يحزن... لقد مات فى الوقت المناسب.. ترى ماذا كان يمكن أن يصنع لو رأى الجميزة مقطوعة ورأى النيل بلا فيضان سجين قدرات الإنسان.

جلـــس على بقعة جافة على حافة النهر تأمل حركتها... رأى النجوم تلمع علـــى صـــفحة الماء... رفع عينيه إلى السماء... مازال النجم ذو الذنب غائبًا... يـــبدو أنـــه اختفى إلى الأبد... فلابد أن النجوم تموت تمامًا كما مات الشيخ نور الديـــن... رأى السماء على حالها نجم ينقص أو نجم يزيد لاشىء يتغير... أحس بالارتعـــاش... جلـــس على الأرض... تذكر نبوءة والده عن خضراء الدمن تبدت صـــورة إلهام منصور غولاً فى ذهنه... وجهًا مشوهًا كريهًا... فزع... خاف... وقـــف... شـــعر بالفراغ الأسود يقتحمه... أحس بالحاجة لنور الدين يستمد منه القوة... صرخ:

- يا نور الدين... يا نور الدين.

لـــم يســـمع ردًا... جاوبـــه الصدى، فنور الدين مات ولن يعود، وعليه أن يواجه مصيره بمفرده، ألقى بجسده على الشط سمع صوت ربابة يصدر من فرح بالشـــط الغـــربى وصـــوت النادى عثمان الراوى الشعبى يرن فى أذنه بغنائه عن الهلالية:

يا مشتاق ع النبى صلى
يا قلب صلى على النبى المنتسب
اللى سراله جبرائيل فى ليلة رجب
بفن تعتبروا العقول التمام
أمة نبينا الزين عليه السلام
نتكلم عن أبو زيد الهلالى
أبو شاش ع القرن مايل
ركاب ضيق القيد
ربيع اليتامى فى السنين لمحال
أبو البركات وعمه الخضر حداه
شيخ مشايخ العرب أمير الرجال

تحـــرك مـــع صوت النادى ومع أبو زيد الهلالى سلامة... سأل نفسه أكان يستطيع أبو زيد الهلالى أن يكون ذلك البطل العظيم لو عاش الآن؟

مســـتحيل... لـــن يستطيع... فالساحة هدت... والجميزة ستقطع... والنهر سيتوقف عن الفيضان.

أخـــذ يحرك ناظريه فى السماء. يبحث عن النجم ذى الذنب... رآه... وقف أمعـــن الـــنظر فـــيه... إنه مختلف عن صورته الأولى، إنه يبدو صغيرًا فى حالة ميلاد. بعيد عن مجموعته... بينه وبينها مسافة كبيرة لكنه موجود.

نقـــل ناظـــريه بين السماء والأرض، بين النجم والجميزة... إنه لا يفهم... ويفهم.

رمـــى بجســـده ثانـــية على الشط. عاد صوت الربابة ثانية إلى أذنه، سمع صوت الشاعر يرتفع:

- صــلوا ع النــبى... طب وزيدوا النبى صلاه... إحنا كل يوم بنجيب فى ســيرة أبو زيد... وبتقولوا يعنى هيه سيرة... فيه ناس كتير متصوره إن إحــنا بنحكى حاجة ملهاش أصل وأبو زيد مكانشى ليه وجود. لأ أبــو زيد كان موجود.. وعاش بينا وكان بطل... ياما فيه أبطال عاشت وحتعيش فى أرضنا.. ده البر حبال ولاد.

عاد الشاعر إلى ربابته.

تنقلــت نظرة محمود إلى النجم... إلى النهر... إلى الجميزة... شعر بأن أبا زيــد الهلالـــى ســـلامة لم يمت... ونور الدين لم يمت... ولم يهزم النهر أحد... والجميزة لن تموت ستبقى جذورها فى النهر قوية لتلد أشجارًا أخرى، ربما ليس فى هذا المكان ولكن فى مكان آخر.

ضاع الخوف من نفسه، اختفت الوحدة، فلن تؤذيه الغولة خضراء الدمن.

وأخــذ يــتأمل ماء النيل، أراد أن ينزل الماء، خلع ملابسه، نظر إلى جذر الجميزة. نزل الماء، شعر برغبة أن يلمس القاع ويمسك الجذور.

وصلوا ع النبى.





صدر من هذه السلسلة:



رقم الإيداع ٢٧٠١/ ٢٠٠٢
I.S.B.N.
977-305-254-0
مطابع المجلس الأعلى للآثار